

INTERNATIONAL ISLAMIC UNIVERSITY
ISLAMABAD – PAKISTAN
FACULTY OF USULUDDIN
DEPARTMENT OF TAFSEER & QURANIC
SCIENCES



الجامعة الإسلامية العالمية
إسلام آباد – باكستان
كلية أصول الدين
قسم التفسير وعلوم القرآن

المسؤولية والجزاء في القرآن الكريم

دراسة موضوعية

(بحث تكميلي مقدم لنيل درجة الماجستير)

تحت إشراف

فضيلة الأستاذ الدكتور مصباح الله عبدالباقي

الأستاذ المساعد في التفسير وعلومه

بكلية أصول الدين – الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد

إعداد الطالب

سجاد أحمد بن محمد أفضل

١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م

رقم التسجيل : ٦١٤/FU/MA/٠٢

الشكر والتقدير

أتوجه بالشكر الجزيل لله تعالى أولاً على ما وفقني من اتمام هذا العمل
الجليل ثم أشكر الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد التي أتاحت لي
فرصة الدراسات العليا في كلية أصول الدين بقسم التفسير .
انطلاقاً من قول النبي ﷺ " من لم يشكر الناس لم يشكر الله " فإنني أتوجه
بجزيل الشكر والعرفان إلى مشرفي وأستاذي فضيلة الدكتور مصباح
الله عبد الباقي - حفظه الله - الذي تكرم بقبول الإشراف على هذه
الرسالة منذ أن كانت فكرة إلى أن خرج البحث بالصورة التي بين
أيديكم ، وكذلك أقدم الشكر الجزيل إلى جميع أساتذتي وخاصة
أساتذة كلية أصول الدين وأخص بالشكر أساتذة قسم التفسير ، ولا
أنسى في الشكر والدعاء زملائي وأصدقائي الذين عاونوني في هذه
الرسالة فجزاهم الله أحسن الجزاء في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من
أتى الله بقلب سليم .
أسأل الله سبحانه أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ،
وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم
بإحسان إلى يوم الدين .

أُمِّتِي

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، الذي بلغ الرسالة وأدى الأمانة وترك الأمة على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، وصلى الله وسلم على هذا النبي الأمي وعلى آله وأصحابه ومن دعا بدعوته واستمسك بسنته إلى يوم الدين .

أما بعد :

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ . (١)
- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ . (٢)
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِغِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ . (٣)

فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار . (٤)

(١) . سورة آل عمران: الآية رقم: ١٠٢ .

(٢) . سورة النساء: الآية رقم: ١ .

(٣) . سورة الأحزاب: الآيتان: ٧٠-٧١ .

(٤) . جزء من حديث طويل ، أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب في الهبة الصالحة ، ٥ رقم الحديث ، ص :

أولاً: أهمية الموضوع :

اقتضت حكمة الله تعالى أن يخلق مخلوقاته لغاية في هذا الكون وشملت هذه الحكمة خلق الإنسان المكلف المسؤول وحدد القرآن الكريم هذه المسؤولية في آيات كريمات قال الله تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٢) كما حدد القرآن الكريم أن الجزاء بقدر المسؤولية مع إثثار جانب الرحمة والعفو ومضاعة الحسنات كما قال تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٣) .

ومن هنا يجب على المسلم أن يعرف أنه مسؤول عن البشرية , لأنه فهم معنى الخلاقة والأمانة والعبادة . وقد كان هذا الشعور بالمسؤولية يملأ جوانح الصحابة والتابعين رضي الله عنهم , كان الواحد منهم ولو لم يبلغ مبلغا عظيما من الثقافة , كان يشعر بأنه مسؤول أمام الله تعالى عن مصير الإنسانية وعن الشعوب والأمم , وأن في يده أمانة ثمينة أمانة مستقبل المدينة والإنسانية .

لكن أدى الآن شيوع المذاهب المادية وسيطرتها على عقول الأفراد وهيمنتها على ثقافة المجتمعات إلى إصابة الإنسان بالقلق والاضطراب والضياع فوقف الناس وسط هذه المبادئ لا يعرفون أين يتجهون وأي طريق يسلكون وأي منهج ينتهجون . وكان سبب شيوع هذه المذاهب انقطاع الناس وبعدهم عن الوحي الإلهي وهداية الأنبياء والمرسلين الذين يرشدونهم إلى الطريق السوي , ويبينوا لهم طريق الخير والفلاح , ولن تسعد البشرية إلا إذا عرفت خالقها وطبقت النظم الإلهية التي وضعها بارئها لتسيرها البشرية .

فلذا هذا البحث محاولة متواضعة للخروج بدراسة قرآنية موضوعية عن هذا الجانب المهم من جوانب الحياة الإنسانية , التي تعرضت لها آيات الكتاب العزيز . فأردت أن أجمع هذه الآيات وأقوم بدراستها دراسة موضوعية بعنوان : " المسؤولية والجزاء في القرآن الكريم " .

(١) . سورة الأحزاب . آية ٧٢ .

(٢) . سورة الذاريات ٥٦ .

(٣) . سورة الأنعام . آية : ١٦٠ .

أسباب اختيار الموضوع :

١. إن المسؤولية والجزاء لب الحياة البشرية كلها.
 ٢. عناية القرآن الكريم الشديدة بالمسؤولية والجزاء في كثير من الآيات.
 ٣. الحاجة الملحة لضرورة قيام المجتمع الصالح .
 ٤. إن الوضع الحالي الراهن جعلني أن أفكر في مسؤولية الإنسان وجزائه.
- إن هذه الأسباب وغيرها جعلتني أن أختار هذا الموضوع .

منهج البحث :

وأما المنهج الذي سلكته في كتابة هذه الرسالة فيتخلص في النقاط التالية:

١. جعلت أساس بحثي القرآن الكريم ، فجمعت الآيات القرآنية التي تتعلق بموضوع واحد أستنبط منها ماتفيده الآيات ، ثم أذكر الأحاديث النبوية لتوضيح الإجمال .
٢. خرجت الآيات مع ذكر اسم السورة ورقم الآية في الهامش ، واستشهدت بالأحاديث النبوية من خلال التفسير الموضوعي لبعض الآيات . وخرجت الأحاديث مع ذكر الكتاب والباب والصفحة من مصادرها الأصلية .
٣. لم أذكر سند الأحاديث ، وإنما اكتفيت بذكر المتن فقط .
٤. ترجمت لأغلب الأعمال التي وردت أسماؤهم في متن الرسالة ، إلا بعض المعاصرين الذين لم أجد تراجمهم .
٥. وضعت الفهارس العلمية العامة ليصل القارئ إلى بغيته بيسر وسهولة . وهذه الفهارس هي :
 - أ . فهرس الآيات القرآنية مرتبا حسب السور .
 - ب . فهرس الأحاديث النبوية على حروف المعجم .
 - ج . فهرس الأعمال على ترتيب المعجم كذلك .
 - د . فهرس المصادر والمراجع على حروف المعجم .
 - هـ . فهرس الموضوعات .

خطة البحث:

وأما خطة البحث فهي تشتمل على المقدمة والباين والخاتمة .

أما المقدمة تبين :

- ◆ أهمية الموضوع .
- ◆ سبب إختيار الموضوع .
- ◆ منهج البحث .
- ◆ خطة البحث .

الباب الأول : المسؤولية

وهو يشتمل على على تمهيد وفصلين

والتمهيد تشتمل على :

- ◆ المسؤولية لغة واصطلاحا .
- ◆ معنى السؤال في القرآن الكريم .
- ◆ خصائص المسؤولية في القرآن الكريم .

الفصل الأول : شروط المسؤولية ومناظها في القرآن الكريم

وفيه مبحثان :

- ❖ المبحث الأول : شروط المسؤولية .
- ❖ المبحث الثاني : مناط المسؤولية .

الفصل الثاني : أنواع المسؤولية وأهدافها

وفيه مبحثان :

- ❖ المبحث الأول : أنواع المسؤولية .
- ❖ المبحث الثاني : أهداف المسؤولية .

الباب الثاني : الجزاء

وأما الباب الثاني فهو يشتمل على التمهيد وثلاثة فصول

والتمهيد تشتمل على :

- ◆ الجزاء لغة واصطلاحاً .
- ◆ معنى الجزاء في القرآن الكريم .
- ◆ خصائص الجزاء في القرآن الكريم .

الفصل الأول : الجزاء الإلهي في الدنيا

وفيه مبحثان :

- ❖ المبحث الأول : الجزاء الإلهي في الدنيا للصالحين .
- ❖ المبحث الثاني : الجزاء الإلهي في الدنيا للظالمين .

الفصل الثاني : الجزاء الإلهي في الآخرة

وفيه مبحثان :

- ❖ المبحث الأول : الجزاء الإلهي في الآخرة للصالحين .
- ❖ المبحث الثاني : الجزاء الإلهي في الآخرة للظالمين .

الفصل الثالث : الجزاء وأثره على الفرد والمجتمع.

وفيه مبحثان :

- ❖ المبحث الأول : أثر الجزاء الدنيوي على الفرد والمجتمع .
- ❖ المبحث الثاني : أثر الجزاء الأخروي على الفرد والمجتمع .

الخلاصة :

فتحتوي على أهم نتائج البحث التي توصلت إليها وبعدها فهرس الآيات القرآنية والأحاديث، فهرس الأعلام، فهرس المراجع والمصادر، وفهرس الموضوعات .
فهذا جهدي المتواضع ولا أدعي الكمال لأن العمل البشري عرضة للخطأ والنقص فما كان فيه من الصواب فمن الله وما كان فيه من الخطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريئان عنه , وأسأل الله تعالى أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه وأن يتقبل مني، وأن ينفع به المسلمين إنه ولي ذلك والقادر عليه وهو على كل شيء قدير .

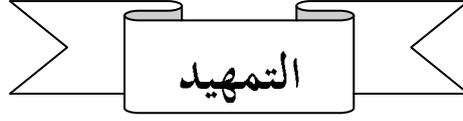
الباب الأول

التمهيد

* المسؤولية لغة واصطلاحاً

* خصائص المسؤولية في القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم



المسؤولية لغة و اصطلاحاً:

المسؤولية لغة :

المسؤولية كلمة حديثة الاستعمال ليس لها وجود في استعمالات فقهاءنا الأقدمين و إنما هي تعبير معاصر استعمله بعض الفقهاء المتأخرين .

ترجع مادة المسؤولية إلى (السين والهمزة و اللام ، كلمة واحدة ، يقال سأل ، يسأل ، سؤالا ومسألة) .^(١)

واسم الفاعل منه : السائل ، واسم المفعول : المسؤل ، والمصدر الصناعي : المسؤولية .

ويدور معنى سأل حول ما يأتي :

تقول : سأله بكذا وعن كذا : إستخبره عنه وطلب منه معرفته .

وسأله عن كذا : حاسبه عليه وآخذه به .

وسأله الشيء : طلبه منه .

وسأله الوعد : طلب وفاءه وإنجازه .

وسأله : طلب معرفته وإحسانه .

وسأله بالله أن يفعل كذا : أقسم عليه أن يفعل .^(٢)

ومما يفيدنا في بيان المعنى المراد من سأل ما قاله الراغب^(٣) في كتابه المفردات في غريب القرآن :

(١) . معجم مقاييس اللغة لابن فارس . بتحقيق وضبط : عبدالسلام محمد هارون . ص : ١٢٤ (باب السين

والهمزة وما يثلثهما) ط : دارالجيل بيروت لبنان .

(٢) . أنظر تاج العروس ، لمحمد مرتضى الزبيدي ، ٧ / ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، فصل السين المهملة مع اللام ، ط : دارالصادق بيروت .

(٣) . هو الحسين بن محمد بن المفضل أبو القاسم الأصفهاني المعروف بالراغب ، أديب من الحكماء والعلماء ، وله مؤلفات عديدة منها: المفردات في غريب القرآن ، محاضرات الأدباء، جامع التفاسير، توفي عام ٥٦٥ هـ أنظر روضات الجنات للخوانساري ١٩٧/٣ .

"السؤال في اللغة : هو استدعاء معرفة أو ما يؤدي إلى معرفة ، واستدعاء مال أو ما يؤدي إلى مال ، فاستدعاء المعرفة جوابه على اللسان ، واليد خليفة له بالكتابة أو الإشارة ، واستدعاء المال جوابه على اليد ، واللسان خليفة لها إما بوعده أو برد . إن قيل : كيف يصح أن يقال السؤال يكون للمعرفة ومعلوم أن الله تعالى : يسأل عباده نحو : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ (١) قيل : إن ذلك سؤال لتعريف القوم وتبكيته لا لتعريف الله تعالى فإنه علام الغيوب فليس يخرج عن كونه سؤالاً عن المعرفة .

والسؤال للمعرفة يكون تارة للاستعلام وتارة للتبكيك كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ ﴾ (٢) ولتعرف المسؤل .

والسؤال إذا كان للتعريف تعدى إلى المفعول الثاني تارة بنفسه وتارة بالجار تقول : سألته كذا وسألته عن كذا وبكذا) . (٣)

وقد أجاب لنا الراغب عن سؤال كثيراً ما يرد على خاطر إذا كان السؤال من معانيه الاستخيار وطلب المعرفة وطلب المعرفة لا يكون إلا لمن لا يعرف ولا يعلم ما يسأل عنه . فكيف يصح ذلك مع مقام رب العالمين الذي يعلم ما كان وما يكون وما هو كائن من عباده . وقد أجاب عن ذلك بأن السؤال من الله تعالى لعباده لتعريفهم وتبكيته لا لتعريف الله تعالى فإنه علام الغيوب .

كما قال ابن منظور (٤) أيضاً : وقوله تعالى : ﴿ وَسَوْفَ يُسْأَلُونَ ﴾ (٥) ، معناه سوف تسألون عن شكر ما خلقه الله لكم من الشرف والذكر . وقوله تعالى : ﴿ وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ (٦) وقيل : سؤلهم سؤال توبيخ وتقرير لا يجاب الحجة عليهم لأن الله تعالى عالم بأعمالهم . وقوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ ﴾ (٧) أي لا يسأل ليعلم ذلك منه لأن الله قد علم أعمالهم . (٨)

(١) . المائدة . آية ١١٦ .

(٢) . سورة التكويد . آية ٨ .

(٣) . مفردات في غريب القرآن . للراغب الأصبهاني ، ص : ٢٥٠ ، الناشر : أصح المطابع بكراتشي .

(٤) . هو أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن منظور الأنصاري الأفريقي المصري ولد عام ٦٣٠هـ وله مؤلفات كثيرة و من أشهرها لسان العرب توفي عام ٧١١هـ انظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ١/١٤٨ .

(٥) . سورة الزخرف . آية ٤٤ .

(٦) . سورة الصافات . آية ٢٤ .

(٧) . سورة الرحمن . آية ٣٩ .

(٨) . راجع لسان العرب ، لابن منظور ، ١١ / ٣٨٠-٣٨٢ ، بتحقيق : عامر أحمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م ، ٥١٤٢٤ .

ومن كل ما تقدم نعرف بأن معنى السؤال في اللغة هو : طلب المعرفة أو الاستعطاء أو الاستخبار . هذا ما أفصحت عنه المعاجم اللغوية في بيان معنى السؤال .

معنى السؤال في القرآن الكريم :

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم وتبعنا مادة سأل ومشتقاتها في آياته الكريمة لوجدنا أنها ذكرت في القرآن في أماكن كثيرة ، ويدور معناها حول ما يأتي :

- ١ . بمعنى الاستخبار كما في قوله تعالى : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقِيعٍ ﴾ . (١)
- ٢ . الاسترشاد وطلب المعرفة كما في قوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ . (٢)
- ٣ . سؤال الطلب وعرض الحاجة كقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ . (٣)
- ٤ . سؤال المخاصمة والمجادلة . كقوله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ . (٤)
- ٥ . سؤال الإجابة والاستجابة كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ . (٥)
- ٦ . سؤال المحاسبة والمناقشة كقوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ . (٦)
- ٧ . سؤال بمعنى المؤاخذة المجازاة كقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . (٧)

فهذه هي المعاني التي تدور حولها كلمة سأل ومشتقاتها في كتاب الله تعالى وبذلك يتضح ويظهر قصور نظرية ابن الأثير (٨) في كتابه النهاية في غريب الحديث بقوله :

إن السؤال في كتاب الله تعالى و حديث الرسول ﷺ نوعان :

- (١) أحدهما ما كان على وجه التبيين والتعلم لما تمس الحاجة إليه فهو مباح أو مندوب أو مأمور به .
- (٢) والآخر ما كان على طريق التعنت فهو مكروه ومنهى عنه ، فكل ما كان من هذا الوجه ووقع السكوت عن جوابه فانما هو ردع وزجر للسائل ، وان وقع الجواب عنه فهو عقوبة وتغليظ . (٩)

(١) . سورة المعارج . آية ١ .

(٢) . سورة النحل . آية ٤٣ .

(٣) . سورة الرحمن . آية ٢٩ .

(٤) . سورة النبأ . آية ١ .

(٥) . سورة البقرة ١٨٦ .

(٦) . سورة الحجر . آية ٩٢ .

(٧) . سورة البقرة . آية ١٣٤ .

(٨) . هو أبو الحسن علي ابن الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين . كان إماما في الحديث وحافظا للتواريخ صنف الكامل والأنساب . ولد عام ٥٥٥ هـ وتوفي عام ٦٣٠ هـ . انظر وفيات الأعيان لابن خلكان .

(٩) . النهاية في غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير ، بتحقيق : الشيخ خليل مأمون ، ١ / ٧٤٢ ، دارالمعرفة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ ، ٢٠٠١ م .

و بتطبيق معاني السؤال في كتاب الله تعالى على المعاني المستفادة من المعاجم اللغوية يتبين لنا أنها تنطبق معها تمام الانطباق وتتوافق الأمر ويقرر أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ . (١)

المسؤولية اصطلاحاً:

إن الباحث عن المراد بالمسؤولية في الكتب التي تعرضت للحديث عنها يجد تعريفات متعددة متباينة العبارات ، يقتصر كل تعريف منها على بيان زاوية خاصة من زوايا المسؤولية . وإليك بعضاً منها :

١. ومن التعريفات التي وردت لكلمة المسؤولية ما جاء في معجم المنجد في اللغة بأن المسؤولية : " ما يكون به الإنسان مسؤولاً و مطالباً عن أمور أو أفعال أتاها " . (٢)

٢. أو هي: " أن يتحمل الإنسان نتائج الأفعال المحرمة التي يأتيها مختاراً وهو مدرك لمعانيها ونتائجها " . (٣)

٣. وعرفتها المجمع اللغة العربية بالقاهرة بأن المسؤولية هي " هي شعور الإنسان بالتزامه أخلاقياً بنتائج أعماله الإدارية فيحاسب عليها إن خيراً وإن شراً " . (٤)

٤. وقال مقداد يالجن تعني المسؤولية " تحمل الشخص نتيجة التزاماته وقراراته واختياراته العلمية من الناحية الإيجابية والسلبية أمام الله في الدرجة الأولى ، وأمام ضميرة في الدرجة الثانية ، وأمام المجتمع في الدرجة الثالثة " . (٥)

٥. وجاء في موسوعة نضرة النعيم : " بأن المسؤولية حالة يكون فيها الإنسان صالحاً للمؤاخذة على أعماله وملزماً بتبعاتها المختلفة " . (٦)

٦. وقد عرفها الدكتور عبدالله دراز (٧) بقوله : " المسؤولية هي كون الفرد مكلفاً بأن يقوم ببعض الأشياء وبأن يقدم عنها حساباً إلى غيره " . (٨)

(١) . سورة يوسف . آية ٢ .

(٢) . المنجد في اللغة والأعلام ، ص : ٣١٦ ، دار المشرق ، بيروت . ط : الأربعون ٢٠٠٣ م .

(٣) . التشريع الجنائي مقارنة بالقانون الوضعي ، عبدالقادر عودة ، ١ / ٣٩٢ ، ط : دار العروبة .

(٤) . المعجم الفلسفي ، إعداد مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ط سنة ١٩٧٩م الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية .

(٥) . التربية الأخلاقية الإسلامية . لمقداد يالجن ، ص : ٣٣١ ، ط١ ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ١٩٧٧ م .

(٦) . موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول ﷺ بأشراف د.صالح بن عبدالله الحميد

٢٤٠٠١٨ دار الوسيلة للنشر والتوزيع . الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ .

(٧) . هو الدكتور محمد عبدالله دراز ولد سنة ١٨٩٤ الميلادي في قرية (محلة دياي) بمصر بمحافظة كفر الشيخ ،

كان يعرف اللغات المتعددة وحصل على الدكتوراة من جامعة السربون بفرنسا وله مؤلفات كثيرة منها :

الأخلاق في القرآن ، الدين ، النبا العظيم ، المسؤولية في الإسلام توفي سنة ١٩٥٨ . انظر كتاب الدين لعبدالله

دراز ص ٧-٨ .

(٨) . دستور الأخلاق . لدكتور عبدالله دراز . ص : ١٣٦ . تعريب و تحقيق و تعليق الدكتور عبدالصبور الشاهين

ط : الرابعة ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م ، مؤسسة الرسالة بيروت .

٧. وعرفها مصطفى الصبري بأنها " لياقة الإنسان لما يلقاه في الدنيا والآخرة من جزاء عمله " . (١)
 ٨. وعرفها الدكتور أحمد بن عبدالعزيز " بأنها أهلية الشخص أن يكون مطالباً شرعاً بامتنال
 المأمورات ، واجتناب المنهيات ، ومحاسباً عليها " . (٢)
 ٩. وجاء تعريفه في المعجم الوسيط بأنها : " حالة أو صفة من يسأل عن أمرٍ تقع عليه تبعته " . يقال :
 أنا بريء من مسؤولية هذا العمل أي من تبعته .
 وتطلق (أخلاقياً) على : الالتزام الشخص بما يصدر عنه قولاً أو عملاً .

وتطلق (قانونياً) على : الالتزام بإصلاح الخطأ الواقع على الغير طبقاً لقانون . (٣)
 وغير ذلك من التعريفات التي تتناول جهة خاصة أو طرف خاص من أطراف المسؤولية . ولذلك إذا
 أردنا أن نتعرف على المعنى الجامع للمسؤولية يجدرنا أن نضع بجوارها الكلمات القرآنية التي تتطابق
 معها ، وهذه الكلمات هي (الخلافة) و (التكليف) و (الأمانة) .
 فمن المشاهد أن هذه الألفاظ قد وردت في القرآن الكريم في ما يلزم الله تعالى به عباده ويلكفهم به
 من أوامر و نواهي ، فإذا انضمت هذه الألفاظ مع بعضها لأسفرت عن المعنى الجامع للمسؤولية .

ونورد الآن فيما يلي تفسير هذه الكلمات من كتب التفسير حتى يتضح لنا المعنى :
 ١. قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ
 فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) ، أي إني
 جاعل (أقواماً يخلف بعضهم بعضاً) (٥) في القيام بامضاء الأحكام والأوامر . (٦)
 ٢. وقال تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ (٧) ، في
 الآية نص على تكليف العباد بالأوامر والأعمال التي في وسع المكلف ، وفي مقتضى إدراكه ، فللنفس
 ما كسبت من خير ، وعليها ما اكتسبت من شر .

٣. وقال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ
 مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٨) .

(١) . موقف البشر تحت سلطان القدر للشيخ مصطفى صبري ، ص : ١٧١ ط : ١ سنة ١٣٥٢ هـ . المطبعة السلفية
 بالقاهرة .

(٢) . المسؤولية الخلقية والجزاء عليها . لدكتور أحمد بن عبدالعزيز الحليبي . ص : ٧١ . مكتبة الرشد بالرياض ،
 ط : الأولى ١٤١٧ هـ ١٩٩٤ م .

(٣) . المعجم الوسيط . ٤١١١ .

(٤) . سورة البقرة . آية ٣٠ .

(٥) . تفسير القرآن العظيم ، لإمام ابن كثير ، ص : ١٠٩ ، دار ابن حزم ، بيروت . الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ .

(٦) . الجامع لأحكام القرآن ، لإمام القرطبي ، ٢٦٣ / ١ ، دار احياء التراث العربي ، بيروت . ط : ١٤٠٥ هـ .

(٧) . سورة البقرة . آية ٢٨٦ .

(٨) . سورة الأحزاب . آية ٧٢ .

ذكر ابن كثير (١) في تفسير الأمانة عدة أقوال ، تدور كلها على الفرائض والطاعات ، ثم قال " وكل هذا الأقوال لا تنافي بينها ، بل هي راجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها ، وهو أنه إذا قام بذلك أثيب ، وإن تركها عوقب ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه إلا من وفقه الله " . (٢)

وهكذا قد تناول القرآن هذه الكلمات الثلاثة ، بحيث لا تقبل الانفصام ، وتدل على المسؤولية بطريق اللزوم .

ومما يساندنا في كون هذه الألفاظ تلتقي مع بعضها وتتنظم لتعطينا معنى واحد جامعاً للمسؤولية ، قول العقاد (٣) في بيان المراد بالأمانة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ ﴾ يقول : " وردت كلمة الأمانة والأمانات في خمسة مواضع من القرآن الكريم وكلها بالمعنى الذي يفيد التبعة والعهد والمسؤولية " . (٤)

وكل ما تقدم يوضح ويبين بأن معنى المسؤولية يلتقي مع معنى الخلافة والتكليف والأمانة ، ويبدو جلياً أن بين هذه القضايا قاسماً مشتركاً ، طرفاه الطلب والحساب : طلب أوامر الله تعالى والمحاسبة عليها ، فمن قام بها أثيب ، ومن تركها عوقب ، وهذا هو المعنى للمسؤولية كما تقدم .

وبعد هذا نستطيع الآن بأن نضع تعريفاً جامعاً لكل أطراف المسؤولية وأبعادها ، إذن المسؤولية في معناها الجامع الشامل تعني :

" الإستعداد الفطري الذي جبل الله تعالى عليه الإنسان ليصلح للقيام برعاية ما كلفه به من أمور تتعلق بدينه وديناه ، فإن وفى ما عليه من الرعاية حصل له الثواب ، وإن فرط فيها حصل له العقاب " .

(١) . هو عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ولد سنة ٧٠١ هـ حافظ مؤرخ فقيه مفسر وله مؤلفات كثيرة منها : البداية والنهاية ، تفسير القرآن العظيم ، توفي سنة ٧٧٤ هـ انظر طبقات الحفاظ ٥٣٣-٥٣٤ والنجوم الزاهرة ١١/١٢٣ .

(٢) . تفسير القرآن العظيم ، لإمام ابن كثير ، ص : ١٥٢٩ . (المرجع السابق) .

(٣) . هو عباس محمود العقاد شاعراً ، أديباً ونقاداً ، ولد سنة ١٨٨٩م في أسوان بمصر ، وله مؤلفات كثيرة منها : عبقرية محمد ﷺ ، عبقرية الصديق ﷺ ، الله ، الإنسان في القرآن وغير ذلك . توفي سنة ١٩٦٤هـ بالقاهرة ودفن في أسوان .

(٤) . الإنسان في القرآن ، لعباس محمود العقاد ، ص : ٣٤ ، ط : دار الهلال .

خصائص المسؤولية في القرآن :

إن المتفكر في حقيقة المسؤولية في القرآن وأبعادها ، تتجلى له خصائص عديدة لها ، ومن أبرز تلك الخصائص :

١. الثبوت :

إن المسؤولية في الاسلام ثابتة ثبوتاً قطعياً ، لأنها من مقتضيات صفة التكليف . فكل مكلف مسؤل عما فعل فيه لقوله تعالى : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ (١) أي : مسؤلون عن جميع أقوالهم وأفعالهم (٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَدِكُّرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ (٣) ، قال ابن كثير : أي : تسألون عن هذا القرآن وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له. (٤) ومن هنا سمي يوم القيامة بيوم الجزاء ، ويوم الحساب . وحاشا لله أن يترك عباده سدى ، قال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ . (٥)

٢. العموم :

المسؤولية في الاسلام تعم الخلق ، فلا يفلت منها أحد ، فكل إنسان سيحاسب حسب أعماله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، سواء أكان نبياً رسولا ، أو كان عبداً تقياً صالحاً ، أو ضعيفاً مقصراً ، أو فاجراً ظالماً لنفسه ، وسواء أكان حاكماً أو محكوماً ، رجلاً أو امرأة . فلو تتبعنا خطابات القرآن الكريم لوجدنا أنها موجهة إلى كل فرد مكلف من بني آدم على تفاوت مراتبهم و مراكزهم . فكل إنسان توفرت فيه شروط المسؤولية والتكليف فهو ملزم برعاية أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه وهذا ما قرره القرآن الكريم وأكدته في آياته البينات . كما قال تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٦) وقال أيضاً : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ . (٧)

(١) . سورة الصافات . آية ٢٤ .

(٢) . تفسير الجلالين ، لجلال الدين المحلى و جلال الدين السيوطي ، ص : ٤٤٦ ، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

(٣) . سورة الزخرف . آية ٤٤ .

(٤) . تفسير القرآن العظيم ، لإمام ابن كثير ، ص : ١٦٨١ ، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ، دار ابن حزم ، بيروت .

(٥) . سورة القيامة . آية ٣٦ .

(٦) . سورة الحجر . آية ٩٢ ، ٩٣ .

(٧) . سورة الاعراف . آية ٦ .

فالرب تبارك وتعالى يوم القيامة يسأل الأمم عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به ، ويسأل الرسل أيضاً عن إبلاغ رسالاتهم . (١)

وغير ذلك من الآيات التي توضح أن المسؤولية تقع على كل إنسان على حسب درجاتهم ، فكل إنسان سوف يسأل عما أنيط به من مسؤولية يقوم على رعايتها وحفظها ، فكل إنسان مسؤول أمام رب العالمين يوم الموقف العظيم . ويؤكد هذا قوله ﷺ " كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ... " (٢)

٣. الشمول :

المسؤولية في الاسلام شاملة شمولاً كاملاً ، حتى تشمل الشمول الزماني والمكاني والموضوعي .

أ . الشمول الزماني :

فالمسؤولية لا تنفك عن المكلف الذي تتوفر فيه شروط التكليف ، من أول يوم يبلغ فيه سن التكليف ، إلى أن يتوفاه الله تعالى ، فلا يملك العبد في حياته فترات حرة يخرج فيها عن دائرة المسؤولية إلا في الحالات الاستثنائية ، كما جاء في الحديث " رفع القلم عن ثلاثة : عن الصبي حتى يبلغ ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن المعتوه حتى يبرأ " . (٣)

ب . الشمول المكاني :

فالمسؤولية شاملة للخلق جميعاً أينما كانوا ، في دار حرب أو دار الاسلام ، وفي سفر أو حضر ، وفي قرب أو بعد ، فلا تغيب عن علم الله مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وإنما تحصى على صغر حجمها ، وأينما كان مكانها ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ . (٤)

ج . الشمول الموضوعي :

فالمسؤولية تشمل جميع أعمال الانسان وتصرفاته ، سواء المتعلقة منها بربه ، أو المتعلقة بنفسه ، أو المتعلقة بغيره ، وليس للانسان من علاقة سوى هذه العلاقات الانسانية الثلاث . ولا يغني المسلم إحسان علاقة واحدة من هذه العلاقات عن إحسان بقية العلاقات .

(١) . تفسير القرآن العظيم ، لإمام ابن كثير ، ص : ٧٤٥ .

(٢) . صحيح البخارى ، كتاب الجمعة ، باب الجمعة في القرى والمدن ، رقم الحديث : ٨٩٣ ، ص : ١٤٣ ، دارالسلام للنشر والتوزيع . الطبعة الثانية ١٩٤١ هـ .

(٣) . رواه أبو داؤد ، كتاب الحدود ، باب في المجنون يسرق أو يصيب حداً ، ٢ / ٥٤٤ ، رقم ٤٤٠٢ ، بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، الناشر : دار الفكر .

(٤) . سورة الأنبياء . آية ٤٧ .

وفي الحديث " قال رجل : يا رسول الله ﷺ ، إن فلانة تكثر من صلاتها وصيامها وصدقها ، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها ، قال ﷺ : هي في النار ، قال : يا رسول الله ﷺ ، فإن فلانة تذكر من قلة صيامها وصدقها وصلاتها ، وأنها تتصدق بالأتوار من الأقط ، ولا تؤذي جيرانها بلسانها ، قال ﷺ : هي في الجنة " (١) . وكما جاء في الحديث "عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت ، فدخلت في النار " . (٢)

ومن هنا جاءت وصية الرسول ﷺ بإحسان العلاقات الثلاث جميعها فقال : " اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن " . (٣)

(١) . رواه أحمد في مسنده عن أبي هريرة ؓ ص : ٦٩٨ ، حديث رقم : ٩٦٧٣ . ط : بيت الأفكار الدولية .
(٢) . رواه مسلم ، كتاب البر والصلة والأدب ، باب تحريم تعذيب الهرة ، رقم الحديث ٦٦٧٥ ، ص ١١٤٣ ، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ، دار السلام للنشر والتوزيع .
(٣) . رواه الترمذي ، أبواب البر والصلة ، باب ما جاء في معاشرته الناس ، رقم الحديث ١٩٨٧ ، ص ٤٦٠ ، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ، دار السلام للنشر والتوزيع بالرياض . و راجع أيضاً المقال بعنوان : " التفريط في المسؤولية خطر على المجتمع " ، محمد أبو الفتح البيانوني ، ص : ١٠ - ١٥ ، المنهل ، مجلة شهرية للأداب والعلوم والثقافة ، العدد ٤٨٧ المجلد ٥٢ رمضان وشوال ١٣١١ هـ / ١٩٩١ م .

الفصل الأول

شروط المسؤولية ومناطقها في القرآن الكريم

المبحث الأول : شروط المسؤولية

المبحث الثاني : مناط المسؤولية

المبحث الأول : شروط المسؤولية :

الإنسان كائن مكلف ، ولهذا شواهد كثيرة في القرآن الكريم والسنة المطهرة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ . (١)

قال النيسابوري (٢) في تفسير هذه الآية : " الأمانة هي الطاعة وهي التكليف ، ثم قال وسمي التكليف أمانة لأن من قصر فيه فعليه الغرامة ومن أداه فله الكرامة " . (٣)

ويقول أبي حيان (٤) : " بين الله تعالى أن ما كلفه الإنسان أمر عظيم فقال ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ ﴾ تعظماً لأمر التكليف ، والظاهر أن الأمانة هي كل ما يؤتمن عليه من أمر ونهي ، وشأن دين ودنيا ، والشرع كله أمانة " (٥) .

وجميع الأقوال في تفسير هذه الآية متفقة وراجعة إلى أن الأمانة هي التكليف وقبول الأوامر و النواهي وعلى هذا يمكن فهم هدف الإنسان في حياته ، فهو مبتلى بتبعة التكليف . والمسؤولية في الإسلام تقع في دائرة التكليف التي أوجبها الله تعالى على عباده في كل علاقات الحياة . والمسؤولية صفة لازمة للمخلوق المكلف تميزه عن صفات الخالق ، لأن التكليف من غير مسؤولية عبث وضياع . لذا المسؤولية لا تنفك عن المكلف الذي تتوفر فيه شروط التكليف .

وبعد أن عرفنا بأن المسؤولية تقوم على أساس من التكليف ، ولكي يكون مكلفاً لا بد وأن تتوفر فيه الشروط التالية . وهي شروط التكليف وتحقق المسؤولية . وفيما يلي أذكر هذه الشروط بعد تعريف التكليف لغة واصطلاحاً .

(١) . الأحزاب . آية ٧٢ .

(٢) . هو علي بن أحمد بن محمد بن علي الإمام أبو الحسن الواحدي أوجد عصره في التفسير وله مؤلفات كثيرة منها : أسباب النزول ، المغازي ، تفسير الوسيط والبسيط والوجيز ، توفي سنة ٤٦٨هـ انظر طبقات المفسرين لداودي ١/١٩٤-١٩٥ .

(٣) . تفسير النيسابوري (بهامش الطبري) مجلد ١٠ ، ص : ٣٤ ، ٣٥ ، مطبوع بهامش الطبري ، دارالريان للتراث ، ١٩٨٧ م .

(٤) . هو الإمام أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي ثم المصري شيخ النحاة والحاقد بالقراءات ، ولد سنة ٦٥٤هـ بقرنطة وله مؤلفات كثيرة ومن أشهرها تفسيره البحر المحيط ، توفي بالقاهرة سنة ٧٤٥هـ انظر : طبقات المفسرين للأرنؤوي ص ٢٧٨ ووفيات للسلامي ١/٤٨٢ .

(٥) . البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ٨/ ٥٠٩ طبعة جديدة بعناية الشيخ عرفات العشا ، دار الفكر للطباعة .

تعريف التكليف :

فالتكليف لغة : مصدر كَلَّفَ . يقال : كلفه تكليفاً أي أمره بما يشق عليه . (١)

قال تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ . (٢)

وفي الاصطلاح: "خطاب الله تعالى ، المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء أو التخيير أو الوضع " . (٣)

وفيما يلي نذكر شروط عامة للتكليف وتحقق المسؤولية :

١ . العقل والبلوغ :

إن الله تعالى قد وهب الإنسان عقلاً به يميز ويدرك ويقف على الأمر أمراً والنهي نهياً ، ويستطيع تطبيق أوامر الشرع ونواهيه تطبيقاً يقوم عليه نظام المجتمع وصلاح أحواله وإستقامة أموره ، والإنسان لا يعد مسؤولاً ومكلفاً في الإسلام إلا إذا بلغ وكمل عقله وأصبح رشيداً . والرشد يقصد به من بلغ سن الرشد وأصبح أهلاً لتحمل المسؤولية والتكليف ورعاية الأمانة .

ولقد جعل القرآن الكريم سن الرشد هو سن اكتمال العقل الانساني وقدرته على الإدراك والاختيار الذي به يتحمل تبعه أعماله ويدرك به معرفة النتائج المترتبة على الأفعال وهو الرشد المقترن بالتكليف وتحمل المسؤولية ، وهو أن يبلغ الصبي ويستقل بتصرفاته وهذا ما يستفاد من قوله تعالى : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ . (٤) فشرط إعطاء الولي المال لليتيم في الآية هو بلوغ النكاح وعلم الرشد .

إذاً فلا يتجه التكليف إلى الإنسان - رجلاً أو امرأة - إلا اذا بلغ . وللبلوغ تقدير شرعي محدد . فغير البالغ ليس بمكلف ، ونعني بذلك أن جانب الإلزام والمسؤولية من أحكام الله تعالى لا يثبت بشأن الإنسان غير البالغ .

وقد اختلف العلماء والأئمة في معرفة السن الذي يصل فيه الإنسان إلى الرشد . قال ابن حجر (٥) :

" أجمع العلماء على أن الاحتلام في الرجال والنساء يلزم به العبادات والحدود و سائر الأحكام (٦) .

(١) . الصحاح ، لابن حماد الجوهري ٣ / ١١٧٧ ، الطبعة الأولى ١٩٩٩ م ، دار إحياء التراث العربي . بيروت .

(٢) . البقرة . آية ٢٨٦ .

(٣) . الوجيز في أصول التشريع ، ص : ٩٩ ، ط ١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

(٤) . سورة النساء . آية ٦ .

(٥) . هو شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد الشهير بابن حجر الكنايني العسقلاني الشافعي الأصل المصري مولداً ونشأة ولد عام ٧٧٣ هـ تولى القضاء في مصر وله عدة مؤلفات منها: فتح الباري شرح صحيح البخاري ، تقريب التهذيب ، لسان الميزان الإصابة في تمييز الصحابة ، توفي عام ٨٥٢ هـ ، انظر: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع لمحمد بن علي الشوكاني ١ / ٧٨ وشذرات الذهب ٧ / ٢٧٣ .

(٦) . فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٥ / ٢٧٧ ، الناشر : دار المعرفة . بيروت ١٣٧٩ .

لذا ذهب الإمام أبو حنيفة (١) - رحمه الله - إلى أن سن البلوغ ثمان عشرة في الذكور ، وسبع عشرة سنة في الإناث ، وهو المروي عن ابن عباس رضي الله عنه (٢) ، وذهب جمهور الفقهاء وصاحباً أبي حنيفة - أبو يوسف (٣) ومحمد (٤) - على أنهما خمس عشرة سنة في الذكور والإناث جميعاً (٥) . ويستندون إلى حديث ابن عمر رضي الله عنه (٦) : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عرضه يوم أحد ، وهو أربع عشرة سنة فلم يجزه ، ثم عرضني يوم الخندق و أنا ابن عشرة فأجازني . قال نافع : تقدمت على عمر بن عبدالعزيز ، وهو خليفة فحدثته هذا الحديث ، فقال : إن هذا الحد بين الصغير والكبير ، و كتب إلى عماله أن يفرضوا لمن بلغ خمس عشرة سنة . (٧)

واتجه كثير من المفسرين إلى أن المراد بالرشد هو اكتمال العقل و اكتمال العقل يكون بحسن التصرف في الأموال . لأن كمال البلوغ لا يكفي كسبب لدفع أموال اليتيم إليه . يقول الزمخشري (٨) : " واختبروا عقولهم وذوقوا أحوالهم ومعرفتهم بالتصرف قبل البلوغ حتى إذا تبينهم منهم رشداً . أي هداية - دفعتم إليهم أموالهم من غير تأخير عن البلوغ " (٩) . فالرشد هو دليل كمال العقل وتظهر قدرات العقل بالتصرف الحسن فيما يزاول الإنسان من أعمال وبالأخص فيما يتعلق بالأموال .

- (١) . هو الإمام فقيه الملة عالم العراق أبوحنيفة النعمان بن الثابت بن ذوطي التيمي الكوفي مولى تيم الله بن ثعلبة ، ولد سنة ٨٠ هـ وأما الفقه والتدقيق فالإيه المنتهى قال عنه الإمام الشافعي : الناس في الفقه عيال لأبي حنيفة توفي سنة ١٥٠ هـ انظر سير أعلام النبلاء ٢٩٠/٦ والبداية والنهاية ١٠٧/١٠ وتذكرة الحفاظ ١٦٨/١ ووفيات الأعيان ٤١٥/٥ .
- (٢) . هو عبد الله ابن عباس بن عبد المطلب كنيته أبو العباس من كبار الفسرين في عهد الصحابة توفي عام ٦٨ هـ وقيل ٧٠ هـ انظر : الثقات ٣٠٨/٣ .
- (٣) . هو الإمام أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي الفقيه المجتهد قاضي القضاة ، ولد سنة ١١٣ هـ تلميذ أبي حنيفة وصاحبه يحفظ التفسير والمغازي توفي سنة ١٨٢ هـ انظر : سير أعلام النبلاء ٤٥٠/٨ والبداية والنهاية ١٨٠/١٠ ووفيات الأعيان ٢٧٨/٦ وشذرات الذهب ٢٩٨/١ .
- (٤) . هو محمد بن الحسن بن فرقد ولد بواسط ونشأ بالكوفة إمام في الفقه والأصول ثاني أصحاب أبي حنيفة بعد أبي يوسف وله مؤلفات كثيرة منها : الجامع الصغير ، الجامع الكبير ، المبسوط ، السير الكبير ، السير الصغير . انظر : البداية والنهاية ٢٠٢/١٠ والأعلام للزركلي ٣٠٩/٦ .
- (٥) . المدخل الفقهي العام ، للأستاذ مصطفى أحمد الزرقاء ، ط سنة ١٩٦٨ م ، مطابع ألف باء بدمشق .
- (٦) . هو عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي ، ولد سنة ثلاث بعد مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم وهاجر وهو ابن عشر سنين وكان شديد الاقتداء والمتابعة برسول الله صلى الله عليه وسلم - توفي سنة ٧٢ وقيل ٧٣ هـ انظر : الإصابة ٣٤٧/٢ - ٣٥٠ و الاستيعاب ٣٤١/٢ - ٣٤٦ وأسد الغابة ٢٢٧/٣ - ٢٣١ .
- (٧) . رواه مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما في الإمارة ، باب بيان سن البلوغ ١٣٩٠/٣ رقم ١٨٦٨ ، الناشر : دار إحياء التراث العربي ، بيروت بتحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .
- (٨) . هو الإمام محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري جار الله ولد سنة ٤٦٧ هـ بزمشتر قرية من قرى خوارزم وهو النحوي واللغوي والمفسر المعتزلي وله مؤلفات كثيرة منها : الكشاف في التفسير ، أساس البلاغة ، المفصل ، المقامات ، توفي في جرجانية بخوارزم . انظر : طبقات المفسرين للحافظ داودي ٣١٤/٢ - ٣١٦ .
- (٩) . الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل ، لإمام الزمخشري ، ٤٧٣ ، ٤٧٢ ، دار الكتاب العربي .

ويقول الإمام الغزالي (١) : " وشرط المكلف أن يكون عاقلاً يفهم الخطاب ، فلا يصح خطاب الجماد والبهيمة ، بل ولا خطاب الجنون والصبي الذي لا يميز ، لأن التكليف مقتضاه الطاعة والإمتثال ، ولا يمكن ذلك الا بقصد الإمتثال ، وشرط القصد العلم بالمقصد ، وهذا لا يتحقق في الجنون ولا المميز لأن الأول لا يفهم والثاني إن فهم فهماً ما لم يصدر منه قصد صحيح ، فلم يصح تكليفهما ولا سؤالهما " (٢) ، لقول الرسول ﷺ " رفع القلم عن ثلاثة : عن الصبي حتى يبلغ ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن المعتوه حتى يبرأ " (٣) .

ومن كل ما تقدم نخرج بأن الإنسان لا يكلف إلا إذا كمل عقله وبلغ رشده وتكاملت قواه الفكرية وظهر منه علامات تدل على ما أودع فيه من طاقات وما زود به من ملكات قادرة على الوصول إلى المعرفة الحقة والإدراك الصحيح .

وهذا هو العقل الذي جعله الله تعالى مناط التكليف وأساس تحمل الإنسان للمسؤولية ، لذلك نجد أن الإسلام يرفع عن الإنسان المسؤولية إذا طرأ على العقل أي اختلال في قدراته أو نقص ، فلا مسؤولية على صغير ولا مجنون ولا سكران .

٤. حرية الإرادة :

لم يشأ الله تعالى أن يكره الإنسان على الالتزام بالمنهج الذي كلفه به ، ولكن جعل له حرية الإرادة والاختيار في ذلك ، إن شاء التزم وتحمل أعباء التكليف ومشقته ، وإن شاء اتبع هواه . لذا إن حرية الإرادة تعد الدعامة الأساسية التي تعتمد عليها مسؤولية الإنسان عن أعماله ، فلا يمكن أن توجه المسؤولية إلى الكائن أو المخلوق الذي لديه إرادة حرة يختار ما يريد ، وهو الإنسان الذي منحه الله تعالى حرية الإرادة و ميزه بها . وهذه الإرادة التي منحها الله تعالى للإنسان واختصه بها تعد الأساس الأول للمسؤولية والتكليف ، ولذلك كانت حرية الإرادة بما اقتضته من المسؤولية والتكليف عبئاً ثقيلاً قدرت السموات والأرض خطورته ولم ترض لنفسها بتحملة قال تعالى :

(١) . هو محمد بن محمد الغزالي الطوسي أبو حامد حجة الإسلام فيلسوف متصوف وله حوالي مئتي كتاب ومن أشهر مؤلفاته: إحياء علوم الدين ولد عام ٥٤٠ هـ وتوفي بخراسان عام ٥٠٥ هـ انظر الأعلام للزركلي ٢٤٧/٧-٢٤٨.

(٢) . المستصفي في علم الأصول ، محمد بن محمد الغزالي أبو حامد ، ص : ٦٧ ، دار الكتب العلمية - بيروت بتحقيق : محمد عبد السلام عبد الشافي ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣ .

(٣) . رواه أبو داؤد ، كتاب الحدود ، باب في المجنون يسرق أو يصيب حداً ، ٢ / ٥٤٤ ، رقم ٤٤٠٢ ، بتحقيق محمد ميجي الدين عبد الحميد ، الناشر : دار الفكر .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (١) لأنه تحمل الأمانة وهي حرية الإرادة وتبعاتها من التكليف والمسؤولية . (٢)

لقد تقرر أن مسؤولية الإنسان تنبني و تؤسس على إرادته الحرة واختياره الهادف لما يقوم به ويفعله . فأساس المسؤولية وما يتبعها ويترتب عليها من جزاء هو ما يفعله الإنسان بمحض تصرفه وإرادته وهذا ما يقرره القرآن الكريم في خطاباته المتكررة المتوجهة إلى عقل الإنسان وإسناد كل ما يقوم به من أفعال إلى إرادته ، وتأكيد مسؤوليته وحسابه على ما يفعله من خير أو شر مما يبرز أن للإنسان إرادة حرة وأن له كسباً واكتساباً وأنه يهدي نفسه بنفسه ويضل نفسه بنفسه ، كما قال تعالى : ﴿ مَن اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ . (٣)

ولا نجعل قضاء الله وقدره حجة لنا في ترك أوامره واجتناب نواهيه بل يجب أن نؤمن ونعلم أن الله قد أقام علينا الحجة بإنزال الكتب وبعثة الرسل . قال الله تعالى : ﴿ لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (٤) ، ونعلم أن الله سبحانه ما أمر ونهى إلا المستطيع للفعل والترك ، وأنه لم يجبر أحداً على معصيته ولا اضطره إلى ترك طاعة قال الله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (٥) ، وقال الله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ (٦) ، وقال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ (٧) ، فدل على أن للعبد فعلاً وكسباً يجزى على حسنه بالثواب وعلى سيئه بالعقاب وهو واقع بقضاء الله وقدره . وهذه الإستطاعة التي منحها الله تعالى للإنسان ، بما يفعل وبما يترك وبما يطيع وبما يعصي .

وهذه الإرادة الحرة المختارة هي ميزة الإنسان التي امتازها عن جميع الكائنات وفاق بها كل المخلوقات وعلى أساسها أمر الله الإنسان ونهاه وكلفه برعاية ما استرعاه وجعله مسؤولاً عن جميع أعماله التي يكتسبها بحريته واختياره ، وصار الإنسان بهذه المنحة الربانية قابلاً للهبوط إلى أسفل سافلين ، وقابلاً للعودة إلى قمة الخلائق أجمعين . بينما غيره من المخلوقات مسلوب الإرادة والاختيار ولذلك لا

(١) . الأحزاب . آية ٧٢ .

(٢) . أنظر إلى المقال بعنوان " حرية الإنسان دعامة المسؤولية والجزاء " لدكتور عبد المقصود عبد الغني . قدم هذا المقال في المؤتمر الدولي الثالث للفلسفة الإسلامية ، جامعة القاهرة . كلية دار العلوم ، قسم الفلسفة مايو ١٩٩٨م .

(٣) . سورة الإسراء . آية ١٥ .

(٤) . سورة النساء . آية ١٦٥ .

(٥) . سورة البقرة . آية ٢٨٦ .

(٦) . سورة التغابن . آية ١٦ .

(٧) . سورة الغافر . آية ١٧ .

يستطيع الانفلات عن سنن الله الطبيعية ونواميسها التي أودعها الله فيها ، كما قال تعالى : ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (١) ، بخلاف الإنسان الذي يعمل بإرادته ويتصرف بحريته بقوة منحها الله تعالى إياه تمكنه من أن يطيع أوامر الله تعالى ويتبع طريقه كما تمكنه من أن يعصيه ويتجنب سبيله . ولهذا فوض الله تعالى للإنسان الأمر في تحصيل أعماله الاختيارية ليلوهم أيهم أحسن عملاً فيجزى المحسن على إحسانه ويجزي المسئى على قدر إساءته . ويظهر للمتدبر لنصوص القرآنية مدى الحرية التي منحها الله تعالى للإنسان وجعلها أساس أهليته للمسؤولية وقاعدة تحمله لتبعات هذه المسؤولية من جزاء ثواباً أو عقاباً . ومما يدل على ذلك ما يأتي :

١ . إن الله سبحانه وتعالى قد أعطى المشيئة وحرية الإرادة لأبي البشرية آدم عليه السلام عندما أسكنه جنته قال له عَلَيْكَ : ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢) ، فتوجيه الأمر إلى آدم وزوجته -عليهما السلام- ، وإسناد المشيئة إليهما ، ونهيهما عن قربان الشجرة ، وإسناد الظلم إليهما ، كل هذا يبرز للمتأمل مدى الحرية والاختيار التي منحها الله تعالى للإنسان من أول الخليقة ، وبها يستطيع أن يقوم بما أسند إليه من رعاية لأماناته ومسؤولياته .

٢ . إن القرآن الكريم يفيض بالآيات الكريمة التي توضح وتصرح بأن الإنسان يستطيع اختيار الهداية لنفسه ، كما يستطيع أن يختار الضلالة لنفسه . وتبين مدى ما هياه الله للإنسان من قدرات وإمكانات متكافئة لقبول الخير والشر . يقول تعالى : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا . إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (٣) ، فالله تعالى قد دل الإنسان على سبيل الشكر والكفر وعليه هو أن يختار سلوك هذا وذاك ، وهذه الآية من جملة الآيات الكثيرة الدالة على أن للإنسان إرادة و اختيار . وقال تعالى : ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ (٥) ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى﴾ (٦)

(١) . سورة يس . آية ٤٠ .

(٢) . سورة البقرة . آية ٣٥ .

(٣) . سورة الإنسان . آية ٢ ، ٣ .

(٤) . سورة الكهف . آية ٢٩ .

(٥) . سورة يونس . آية ١٠٨ .

(٦) . سورة النجم . آية ٣٠ .

وغير ذلك من الآيات الكثيرة التي تسند الهداية والضلال إلى الإنسان في كونه يستطيع أن يكتسبها لنفسه مما يؤكد أنه سبب وكائن مختار لما يقوم به من أعمال . كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (١) .

٣ . ومن الآيات التي تدل أكبر دلالة على أن اختيار الإنسان وحرية وجهده الذي يقوم به هو أساس مسؤوليته وما يترتب عليها من جزاء ، قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (٣) ، فواضح من هاتين الآيتين أن مشيئة الله في تغير حال قوم إنما تجرى وتنفذ من خلال حركة هؤلاء القوم وما يقومون به من أعمال تغير ما بأنفسهم اتجاهها وسلوكها شعوريا وعمليا ، فإذا حدث ذلك غير الله حالهم وشأنهم جزاء على ما غيروا هم من أنفسهم . يقول ابن كثير : " يخبر الله تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه " (٤) . كل هذه الحقائق التي قدمناها تقرر وتؤكد مدى الحرية والإرادة والاختيار الذي منحه الله للإنسان لكي يستطيع القيام برعاية ما استرعاه الله تعالى من أمانات ومسؤوليات .

٤ . العمل الإرادي :

الإنسان في الإسلام لا يعد مسؤولا ولا تتحقق مسؤولية الإنسان عما يقوم به من أفعال إلا إذا توفر فيه أمر ، وهو حدوث الفعل عن نية وقصد وإرادة . وهذا يعتبر من المبادئ الأساسية في الإسلام ، فإن الإسلام لا يقيم لعمل الإنسان أي وزن إلا إذا كان قاصدا إليه وناويا له بإرادة واختيار ، ولذلك لا يعاقب على هواجس القلب ووسوسة الضمير وحديث النفس إلا إذا كانت هذه الهواجس نزوع من الإنسان إلى الخير فإن الله تعالى يشبه عليها وإن لم يفعلها فضلا منه ورحمة . فلا بد لكل عمل يقوم به الإنسان من إرادة ونية وقصد . وهذا ما أشار إليه الرسول ﷺ بقوله : " إنما الأعمال بالنيات و إنما لكل امرئ من نوى ... " (٥) ، فالأعمال التي تصحبها الإرادة والنية والعزم على فعل طاعة أو اقتراف معصية ، هو العمل الذي يترتب عليه الجزاء بنوعيه : العقاب والثواب .

(١) . سورة الزلزلة . آية ٨، ٧ .

(٢) . سورة الرعد . آية ١١ .

(٣) . سورة الأنفال . آية ٥٣ .

(٤) . تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ص : ٨٤٩ .

(٥) . رواه البخاري ، كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي ، رقم الحديث : ١ ، ص : ١ .

لذلك نفى الله تعالى ما يترتب على المسؤولية من جزاء ، إذا كانت الأعمال بدون إرادة ونية وقصد . وهذا ما يفيدته قوله تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ . (١)

فالله تعالى لا يعاقب من صدر منه الإيمان اللاغية وهي التي لا يقصدها الخالف بل يجري على لسانه من غير قصد منه ، كما قال تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ . (٢)

يقول ابن كثير " قد تقدم في سورة البقرة الكلام على لغو اليمين وأنه قول الرجل في الكلام من غير قصد " (٣) . لذلك رفع الإسلام المسؤولية عن المكره والناس وغيرهم مما لا إعتبار لفعله الصادر منه وذلك للاجماع على أن التكليف ما لا يطاق غير واقع في الشريعة الإسلامية وتكليف من لا قصد له تكليف بما لا يطاق . وهذا ما يقرره القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ . (٤)

وقد رفع الله تعالى الإثم عن المضطر الذي أُلجأته الضرورة إلى أكل ميتة أو دم أو لحم حترير وغيرها مما حرمه الله تعالى ورسوله ﷺ لأنه في حكم المكره يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَالْحَمَّ الْخَتِيرَ وَمَا أُهْلٍ بِهِ لِيُغَيِّرَ اللَّهُ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . (٥)

إذا فكل ما لم يعتمد الإنسان ولم يقصده ، ولم يعقد عليه قلبه من الأقوال والأفعال لم تترتب عليه مسؤولية ، ولم ينله من جزائه جزاء ، ومن ذلك رفعت المسؤولية أيضاً عن المخطئ الناسي . لذلك إن القرآن الكريم قد صرح بالتجاوز عن المخطئ والناسي ورفع عنهما الإثم ، لأن الإثم مرتب على المقاصد والنيات والإرادات . ولذلك علم الله تعالى عباده الدعاء برفع الإثم عند الخطاء والنسيان بقوله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا

(١) . سورة البقرة . آية ٢٢٥ .

(٢) . سورة المائدة . آية ٨٩ .

(٣) . تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ص : ٦٤٥ .

(٤) . سورة النحل . آية ١٠٦ .

(٥) . سورة البقرة . آية ١٧٣ .

طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١﴾ ، ويقرر ذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ . (٢)

٥. بلوغ الدعوة :

كان من رحمة الله تعالى بعباده أنه كما جعل فيهم العقل والفهم الذي به يميزون ويدركون ، شاءت حكمته العظيمة ألا يجعل ذلك فقط مناط مسؤولية الإنسان ومطالبته بما كلف به ، بل أرسل لهم الرسل من حين إلى حين على مدى إمتداد التاريخ البشرى من أبي البشر آدم ﷺ إلى سيدنا محمد ﷺ ، وذلك ليزيلوا ما ران على فطرة الإنسان من شر وفساد ، وليقيموه إلى سواء الصراط ، وليرشدوه إلى كلا الطريقتين طريق الشر ومسائره ، وطريق الخير ومحاسنه وفضائله ، وصدق الله العظيم حيث قال : ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ . (٣)

لذلك يعتبر هذا الشرط من أهم شروط المسؤولية . وهو بلوغ دعوة الرسل إلى الإنسان العاقل البالغ القادر . فيجب أن تصل إليه الدعوة حتى تستيقظ الضمائر الغافلة ، ولأن المؤاخذة لا تكون إلا بعد إرسال الرسل وقيام الحجّة عليهم . قال تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (٤) ، وهذا لا يتم إلا بإعلام الإنسان بما هو مفروض وواجب عليه فعلاً أو تركاً ، بمعنى أن الإنسان لابد وأن يكون عالماً بما هو مكلف به .

يقول الشوكاني (٥) في تفسير هذه الآية : " ذكر أنه لا يعذب عباده إلا بعد الإعدار إليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه فبين سبحانه أنه لم يتركهم سدى ولا يؤاخذهم قبل إقامة الحجّة عليهم والظاهر أنه لا يعذبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا بعد الإعدار إليهم بإرسال الرسل وبه قالت طائفة من أهل العلم وذهب الجمهور إلى أن المنفي هنا هو عذاب الدنيا لا عذاب الآخرة " . (٦)

وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يعلم الإنسان وتعلم الأمم بواجباتها وحقوقها عن طريق الرسل الذين يذكروهم دائماً بالأوامر الشرعية من أجل تحقيق المسؤولية والالتزام ، وقد وردت الآيات القرآنية دالة على ذلك ، فما كان الله تعالى ليحاسب إلا بعد الإبلاغ والبيان والإعلام ، وما كان الله ليعذب أهل

(١) . سورة البقرة . آية ٢٨٦ .

(٢) . سورة الأحزاب . آية ٥ .

(٣) . سورة الإنسان . آية ٣ .

(٤) . سورة الإسراء . آية ١٥ .

(٥) . هو محمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني ولد بشوكان من بلاد اليمن عام ١١٧٣هـ ونشأ بصنعاء ، كان فقيهاً مجتهداً ولى القضاء بصنعاء عام ١٢٢٩هـ وله مؤلفات منها : نيل الأوطار ، فتح القدير ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع توفي عام ١٢٥٠هـ انظر : الأعلام للزركلي ١٩٠/٧ والبدر الطالع ٢١٤/٢ .

(٦) . فتح القدير ، لإمام الشوكاني ، ص : ٩٥٦ ، مكتبة الرشد ، الرياض . الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠١م .

القرى دون أن يرسل لهم الرسل والأنبياء لدعوتهم إلى التقوى والصلاح ، وحتى يكونوا شهداء عليهم ، يقول تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ رُسُلًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا مُنذِرُونَ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (٣) . إذا فلا تصح التبعة على أحد لم تصل إليه الدعوة . قال تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٤) .

وجملة القول أن سنة الله تعالى المبنية على الحكم العالية أنه لا يعذب أحداً بأى لون من ألوان العذاب الدنيوي أو الأخروي على فعل شيء أو تركه إلا إذا أرسل إليه رسولا يهديه إلى الحق ويبين له طريق الرشد من الغي ، وليبلغه الدعوة ويقيم عليه الحجة ، وتتضافر آيات القرآن الكريم على تأكيد أن الله تعالى لن يحاسب أحداً على أفعاله دون أن يكون قد علم قبل الحساب والجزاء أحكام ما كلفه وما أوجبه عليه معرفة واضحة بينة .

وهذه هي أهم الشروط التي تركز عليها المسؤولية ، لأنها تجعل الشخص أهلاً لتحمل نتائج أفعاله ، وإذا انتفى واحد منها انتفت أهلية الشخص وسقطت عنه المسؤولية .

(١) . سورة القصص . آية ٥٩ .

(٢) . سورة الشعراء . آية ٢٠٨ .

(٣) . سورة إبراهيم . آية ٤ .

(٤) . سورة يونس . آية ٤٧ .

المبحث الثاني: مناصب المسؤولية :

الإنسان مخلوق مسؤول وأن ما منحه الله تعالى إياه من نعم ومظاهر التكريم ، إنما هي مقتضى من مقتضيات المسؤولية و مناطها وليست ممنوحة لذاتها . والإنسان محور هذا الكون و مسؤول عن تنمية الحياة على الأرض ، ولأنه مخلوق حباه الله تعالى من الهبات ومظاهر التكريم لكي تتحرك همته نحو مسؤوليته في عمارة الأرض والقيام بمهام الخلافة والعبادة والأمانة ، وأن ما كرمه الله تعالى عون له عليها . وحين نقول أن القرآن عرف الإنسان بأنه الكائن المكلف أو الكائن المسؤول فإننا نستحضر آيات جاءت نصاً في المسؤولية في القرآن الكريم مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (٤) ، ومثل قوله : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (٥) وغير هذه الآيات مما هو في بابها كثير .

و كل هذه الآيات تنطق بتعريف الإنسان بدوره بأنه الكائن المكلف المسؤول ، لأن الخلافة فسرها العلماء بتمثل الدين والحفاظ عليه ونشره جيلا بعد جيل ، ولأن الأمانة هي في مجموع آراء المفسرين مع شمولها لكل أمانة تأتي نصاً في فروض الدين ، ولأن العبادة التي هي غاية خلق الإنس والجن هي معرفة الله تعالى وطاعته ، وطاعته التزام أوامره ونواهيه ، وهما جماع الدين ، وآية تحديد مهمة الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أوضح من أن يشار إليها أو يعلق عليها ، فهي التعبير الصريح فيما ذهبنا إليه . إذن هذه الآيات وما يدل على معناها هو الذي جعلنا نقول أن القرآن حدد الإنسان بدوره وهو المسؤولية . (٦)

(١) . سورة البقرة ، آية ٣٠ .

(٢) . سورة الأحزاب ، آية ٧٢ .

(٣) . سورة الذاريات ، آية ٥٦ .

(٤) . سورة آل عمران ، آية ١١٠ .

(٥) . سورة الاسراء ، آية ١٥ .

(٦) . حقيقة الإنسان بين المسؤولية والتكريم ، لدكتور أبوالبزید العجمي ، ص : ١٥ ، الناشر : المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ، القاهرة .

فالإنسان في الإسلام هو الكائن المكلف المسؤول الذي حمل الأمانة وخلق للخلافة والعبادة ثم هو مكرم من أجل مسؤوليته .

لذا أذكر فيما يلي أولاً بأن الإنسان مهمته في الأرض الخلافة والعبادة والأمانة في ضوء الآيات ثم أذكر بأن الله تعالى أعانه على هذه المسؤولية بالتكريم ، وهذه الأمور هي مناط المسؤولية .

١. مهمة الانسان في الكون :

أ. الخلافة :

" وردت آيات عدة في القرآن الكريم توضح مركز الإنسان في هذا الكون من قبل مسؤوليته ودوره . وهذه الآيات وإن اختلفت في ألفاظها ومناسباتها ، فإنها تلتقي جميعاً عند ربط دور الإنسان به وقياسه بمدى تحقيقه وفق منهج الله تعالى " (١) . قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . (٢)

قال البغوي (٣) : " والمراد بالخليفة هاهنا آدم سماه لأنه خلف الجن أي جاء بعدهم وقيل لأنه يخلفه غيره والصحيح أنه خليفة الله في أرضه لإقامة أحكامه وتنفيذ وصاياه . " (٤)

وقال ابن كثير : يخبر تعالى بامتنانه على بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم بقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ أي واذكر يا محمد ﷺ إذا قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ أي قوما يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل . كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾ (٥) وقال : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ (٦) وقال : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ (٧) ، وليس المراد ههنا بالخليفة آدم ﷺ فقط كما يقوله طائفة من المفسرين إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك

(١) . نفس المرجع ، ص : ١٠٣ .

(٢) . سورة البقرة ، آية ٣٠ .

(٣) . هو أبو محمد حسين ابن مسعود بن محمد المعروف بالفراء البغوي الفقيه الشافعي كان محدثاً ومفسراً الملقب بمحي الدين وركن الدين وظهير الدين ومؤلفات كثيرة منها: معالم التنزيل في التفسير وشرح السنة في الحديث . انظر: البديعة والنهاية لابن كثير ١٩٣/١٢ ووفيات الأعيان ١٣٦/١٢-١٣٧ .

(٤) . معالم التنزيل ، الحسين بن مسعود الفراء البغوي ، ١/ ٦٠ ، دار الكتب العلمية ، بيروت . الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ ، ١٩٩٥ م .

(٥) . سورة الأنعام ، آية ١٦٥ .

(٦) . سورة النمل . آية ٦٢ .

(٧) . سورة الزخرف . آية ٦٠ .

وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص أو بما فهموه من الطبيعة البشرية فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من ﴿ صَلِّصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ (١) أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم ويردعهم عن المحارم والمآثم .

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبني آدم كما قد يتوهمه بعض المفسرين وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول أي لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه وههنا لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقاً وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها فقالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ ، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك يقولون : يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء ؟ فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك أي نصلي لك ولا يصدر منا شيء من ذلك وهل وقع الاختصار علينا ؟ قال الله تعالى مجيباً لهم عن هذا السؤال : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم فإنني سأجعل فيهم الأنبياء وأرسل فيهم الرسل ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد والأولياء والأبرار والمقربون والعلماء العاملون والخاشعون والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم . (٢)

وقد ذكر الشيخ الشنقيطي (٣) في تفسير هذه الآية قولين :

القول الأول : أن المراد بالخليفة أبونا آدم عليه الصلاة والسلام ، لأنه خليفة الله في أرضه في تنفيذ أوامره . وقيل : لأنه صار خلفاً من الجن الذين كانوا يسكنون الأرض قبله ، وعليه فالخليفة : فعيلة بمعنى فاعل وقيل : لأنه إذا مات يخلفه من بعده ، وعليه فهو من فعيلة بمعنى مفعول . وكون الخليفة آدم الطيب هو الظاهر المتبادر من سياق الآية .

القول الثاني : أن قوله ﴿ خَلِيفَةً ﴾ مفرد أريد به الجمع ، أي خلائف ، وهو اختيار ابن كثير . وإذا كانت هذه الآية الكريمة تحتل الوجهين المذكورين فاعلم أنه قد دلت آيات أخر على الوجه الثاني ، وهو أن المراد بالخليفة : الخلائف من آدم وبنيه لا آدم نفسه وحده . كقوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ .

(١) . سورة الحجر . آية ٣٣ .

(٢) . تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ص : ١٠٩ ، ١١٠ .

(٣) . هو محمد الأمين بن المختار بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن محمد بن سيدي أحمد بن المختار الشنقيطي وينتهي نسبه إلى قبيلة حمير العربية ، ولد ١٣٢٥ هـ في شنقيط وهو العالم الفاضل من دولة موريتانيا وله مؤلفات كثيرة منها : آداب البحث والمناظرة ، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن . انظر : مقدمة الأضواء لعطية محمد سالم ١٩/١ - ٢٠ .

ومعلوم أن آدم عليه الصلاة والسلام ليس ممن يفسد فيها ، ولا ممن يسفك الدماء . وكقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ (١) وقوله : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ ﴾ (٢) ونحو ذلك من الآيات . (٣)

ومهما قيل عن معني الخلافة فهي تبعة ومسؤولية يورثها السلف للخلف ويتوقف على أدائها تحقيق مناط التكريم الذي هم فيه .

ب . العبادة :

قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٤)

قال القرطبي (٥) : إن هذا خاص فيمن سبق في علم الله أنه يعبد فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص والمعنى وما خلقت أهل السعادة من الجن والإنس إلا ليوحدون . (٦)

قال الإمام ابن كثير بعد أن ذكر جملة من الأقوال : " ومعنى الآية أنه تعالى خلق العباد ليعبده وحده لا شريك له ، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء ، ومن عصاه عذبه أشد العذاب . (٧) وسئل الشيخ ابن تيمية (٨) عن قوله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ (٩) ، فما العبادة وفروعها ؟ وهل مجموع الدين داخل في العبادة أم لا ؟ وما حقيقة العبودية وهل هي أعلى المقامات أم فوقها شيء من المقامات ؟

فأجاب : " العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة وكذلك

(١) . سورة الأنعام ، آية ١٦٥ .

(٢) . سورة النمل ٦٢ .

(٣) . أضواء البيان ، لمحمد الأمين الشنقيطي ، ١ / ١١٩ ، ١٢٠ ، طبع على نفقة السوالمكي الأمير أحمد بن عبدالعزيز ١٣٠٣ / ١٩٨٣ م .

(٤) . سورة الذاريات ، ٥٦ .

(٥) . هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي القرطبي ، وله مؤلفات كثيرة منها : التذكرة بأمر الأخرى ، الجامع لأحكام القرآن توفي بصعيد مصر عام ٦٧١ هـ انظر طبقات المفسرين لداودي ٦٩/٢ وشذرات الذهب ٣٣٥/٥ .

(٦) . الجامع لأحكام القرآن ، لإمام القرطبي ، ١٧ / ٥٥ ، دارالكتب العربي ، ط : ١٣٨٧ ، ١٩٦٧ م .

(٧) . تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ص : ١٧٦٨ .

(٨) . هو أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله تقي الدين أبو العباس ابن تيمية الحراني ثم الدمشقي الحنبلي ولد في حران عام ٦٦١ هـ كان عالماً فقيهاً مجتهداً قرأ في كثير من العلوم والفنون وله مؤلفات كثيرة منها : اقتضاء الصراط المستقيم ، فتاوى ابن تيمية ، الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمان وغيرها ، توفي عام ٧٢٨ هـ انظر شذرات الذهب ٨٠٨/٦ .

(٩) . سورة البقرة ، آية ٢١ .

حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف لعذابه وأمثال ذلك هي من العبادات لله " ثم قال وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة لله والمرضية له التي خلق الخلق لها وبها أرسل جميع الرسل كما قال نوح لقومه : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (١) كذلك وقول هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم وجعل ذلك لازماً لرسله إلى الموت كما قال : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ (٢) ، وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه فقال تعالى : ﴿ وَكَهْ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ (٣) ، وذم المستكبرين عنها بقوله : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (٤) .

ويقول الدكتور القرضاوي : " أن للعبادة أفقاً رحباً ودائرة واسعة ، وهي تشمل الفرائض والأركان الشعائرية من الصلاة والصيام والزكاة والحج . وهي تشمل ما زاد على الفرائض من ألوان التعبد التطوعي من ذكر وتلاوته ودعاء واستغفار و تسبيح وتكبير وتحميد . وهي تشمل حسن المعاملة والوفاء بحقوق العباد ، كبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والإحسان لليتيم والمسكين وابن السبيل ، والرحمة بالضعفاء والرفق بالحيوان وهي تشمل الأخلاق والفضائل الإنسانية كلها من صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، والوفاء بالعهد ، وغير ذلك من مكارم الأخلاق من حب الله تعالى ورسوله ﷺ وخشية الله تعالى ، والإنابة إليه وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر والرضا بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته والخوف من عذابه .

وأخيراً تشمل العبادة الفريضتين الكبيرتين اللتين هما سياح ذلك كله وملاكه وهما : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد الكفار والمنافقين في سبيل الله تعالى . وبهذا يفهم أن الدين كله داخل في العبادة " (٥) .

والتوجه إلى الله تعالى بالعبادة ومعرفة الله تعالى حق معرفته مسؤلية ليست هينة ، لأنها محاولة من الإنسان جادة للارتفاع إلى مقام العبودية لله وحده ، وهو مقام رفيع خوطب به رسولنا ﷺ ليلة

(١) . سورة الأعراف ، آية ٥٩ .

(٢) . سورة الحجر ، آية ٩٩ .

(٣) . سورة الأنبياء ، آية ١٩ ، ٢٠ .

(٤) . سورة غافر ، آية ٦٠ ، وانظر العبودية في الإسلام ، لابن تيمية ، ص : ٤ ، ٥ ط : الثانية ١٣٩ هـ ، المطبعة السلفية و مكتباتها . بالقاهرة .

(٥) . العبادة في الإسلام ، لدكتور يوسف القرضاوي ، ص : ٥٠ ، ٥١ الناشر : مكتبة وهبة ، القاهرة الطبعة الرابعة والعشرون ١٩٩٥ م .

الإسراء والمعراج : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ . (١)

ج . الأمانة :

قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٢) .

ولننظر بماذا فسرت الأمانة في هذه الآية ومدى ما تعنيه من مسؤولية : يقول أبي سعود (٣) :
بين الله تعالى عظمة التكليف الشرعية وأنها أمر صعب للغاية كما عبر عنها بالأمانة وأوجب عليهم حسن الطاعة والإنقياد ، والمحافظة عليها وأدائها من غير إخلال بشيء من حقوقها ، وعبر بالعرض عليهن " السموات والأرض " للاعتناء بأمرها والرغبة في قبولهن لها كما عبر عن عدم استعدادهن والإشفاق منها للتحويل والفخامة كما عبر عن قبولها بالعمل لتحقيق معنى الصعوبة حيث جعلها من قبيل الأجسام الثقيلة . والمعنى أن تلك الأمانة في عظمتها حيث لو كلفت هذه الأجرام العظام وكانت ذات شعور وإدراك لرفضن قبولها وأشفقن منه " . (٤)

قال الثعالبي (٥) : " ذهب الجمهور الى ان الأمانة كل شيء يؤتمن الانسان عليه من امر ونهي وشأن دين ودنيا فالشرع كله امانة ومعنى آية انا عرضنا على هذه المخلوقات العظام ان تحمل الأوامر والنواهي ولها الثواب ان احسنت والعقاب ان اساءت فابت هذه المخلوقات واشفقت فيحتمل ان يكون هذا بإدراك يخلقه الله لها ويحتمل ان يكون هذا العرض على من فيها من الملائكة وحمل الانسان الأمانة اى التزم القيام بحقها وهو في ذلك ظلوم لنفسه جهول بقدر ما دخل فيه " . (٦)

(١) . سورة الإسراء ، آية ١ .

(٢) . سورة الأحزاب ، آية ٧٢ .

(٣) . هو أبو سعود محمد بن محمد العمادي الحنفي مفتي الديار التركية صاحب التفسير (تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم المشهور بتفسير أبي سعود) ولد سنة ٨٩٣ هـ وتوفي بمدينة القسطنطينية سنة ٩٨٣ هـ انظر : البدر الطالع للشوكاني ٢٦١/١ .

(٤) . إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي سعود (بتصرف) ، الطبعة الرابعة ١٩٩٤ م ، دار احياء التراث العربي . بيروت .

(٥) . هو عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي أبو يزيد الجعفري المالكي الأشعري الجزائري صوفي من كبار المفسرين وأعيان الجزائر وعلماؤها ولد سنة ٧٨٦ هـ ، وله مؤلفات كثيرة منها : الجواهر الحسان في تفسير القرآن توفي سنة ٨٧٥ ، انظر : الأعلام للزركلي ١٠٧/٤ و معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر لعادل نويهض ص ٩٠ .

(٦) . الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، أبو زيد عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي ، ٣٦١ / ٤ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت . ط : الأولى ١٤١٨ هـ ، ١٩٩٧ م .

وقال القرطبي : " لما بين تعالى في هذه السورة من الأحكام ما بين أمر بالتزام أوامره والأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال . فالأمانة هي الفرائض التي ائتمن الله عليها العباد . (١) ويقول الشيخ السعدي (٢) في تفسير هذه الآية : " يعظم تعالى شأن الأمانة ، التي ائتمن الله عليها المكلفين ، التي هي امتثال الأوامر ، واجتناب المحارم ، في حال السر والخفية ، كحال العلانية ، وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة ، السماوات والأرض والجبال ، عرض تخيير لا تحتيم ، وأنتك إن قمت بها وأدبتهَا على وجهها ، فلك الثواب ، وإن لم تقومي بها ، ولم تؤديها فعليك العقاب . ﴿ فَأَيُّنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ أي : خوفاً أن لا يقمن بما حُمِّلْنَ ، لا عصياناً لربهن ، ولا زهداً في ثوابه ، وعرضها الله على الإنسان ، على ذلك الشرط المذكور ، فقبلها ، وحملها مع ظلمه وجهله ، وحمل هذا الحمل الثقيل . فانقسم الناس - بحسب قيامهم بها وعدمه - إلى ثلاثة أقسام : منافقون ، أظهروا أنهم قاموا بما ظاهراً لا باطناً ، ومشركون ، تركوها ظاهراً وباطناً ، ومؤمنون ، قائمون بما ظاهراً وباطناً . (٣)

وذكر ابن كثير في تفسير الأمانة عدة أقوال ، تدور كلها على الفرائض والطاعات ، ثم قال " وكل هذا الأقوال لا تنافي بينها ، بل هي راجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها ، وهو أنه إذا قام بذلك أثيب ، وإن تركها عوقب ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه إلا من وفقه الله " . (٤)

وفي كل المعاني التي ذكرت تبرز معنى المسؤولية ، وبخاصة إذا فسرت على أنها الدين . لذا الإنسان مخلوق مسؤل عن أعماله ، وقد حمّله الله تعالى أمانة التكليف ، فكانت هذه المسؤولية من أوجه تفضيله على كثير من مخلوقات الله تعالى ، وهي التي رفضت هذه الأمانة حينما عرضت عليها وطلب منها الالتزام بما فرضن حمل الأمانة وكرم الله تعالى الإنسان بتحميله لها ، وجعل جزاء هذه الأمانة والالتزام بكل توصيات تلك الأمانة ، رضوان الله والفوز بالجنة ومجاورة ورؤية رب العالمين ، كما جعل لمن تنكب ما حمّله وأعرض عن توصيات تلك الأمانة العذاب والحسرة والندم الشديد يوم يلقاه .

(١) . الجامع لأحكام القرآن ، لإمام القرطبي ، ٢٥٤ / ١٤ .

(٢) . هو الشيخ عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله بن ناصر بن حمد آل سعدي ولد سنة ١٣٠٧هـ في عنيزة بالمملكة العربية السعودية عام ١٣٠٧هـ . وله مؤلفات عديدة منها : تيسير الرحمن في تفسير كلام المنان ، المناظرات الفقهية ، منظومة في أحكام الفقه ، وغير ذلك . أنظر : رسالة ماجستير " منهج الشيخ السعدي في تفسيره " . للطالب : الضيف نظور ، عام ١٩٩٩م ، الجامعة الإسلامية بإسلام آباد . ص : ١٤-٣٤ .

(٣) . تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، الشيخ أبي عبدالله عبدالرحمن آل سعدي ، ص : ٨٠٧ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٩م .

(٤) . تفسير القرآن العظيم ، لإمام ابن كثير ، ص : ١٥٢٩ .

٢. الإنسان مخلوق مكرم :

وبعد أن عرفنا بأن مهمة الإنسان في الكون هي الخلافة والعبادة والأمانة ، وبعد أن وصفه الله تعالى بأنه المخلوق المكلف المسؤل ، وحددت هذه المسؤولية آيات كريمات كما ذكرنا آنفاً هي قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ . (١)

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . (٣)

" ويكاد يجمع المفسرون لهذه الآيات على أن المقصود منها هو فروض هذا الدين ، إقامته والمحافظة عليه ، وحمله خلفاً عن خلف ، وجيلاً بعد جيل . فاذا كانت هذه هي مسؤولية الإنسان فإنه ولاشك دور صعب يقتضي أن تساعد الحياة هذا المخلوق في مهمته حتى لا يجتمع عليه همان : صعوبة مسؤوليته ، ومعاكسة الحياة له ، فصعوبة هذه المهمة اقتضت وفق عدل الله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (٤) أن يعان عليها الإنسان . وقد أعانه الله تعالى عليها وأعد لها بما نفهمه على أنها مظاهر تكريم الله تعالى للإنسان ، وأنها إعداد وتهيئة للدور المنوط بهذا الكائن المسؤل " . (٥)

لذا الله تعالى جعله خليفة ، وفضله على سائر المخلوقات ، وسخر له السموات والأرض ، واختار منه الأنبياء والمرسلين واصطفاهم واجتباهم ، وأمر الملائكة بالسجود لآدم احتراماً وتقديراً واعترافاً بفضله وتحيته له ، وخلق في أحسن تقويم وسخر له كل شئ حتى الملائكة جعلهم لخدمته ، وكرمه في صور متعددة ومشاهد كثيرة .

وكل شئ مخلوق في هذا العالم إنما هو من أجل الإنسان ، وكل هذه المظاهر التكريم هي مناط المسؤولية ، ليقوم الإنسان برعاية ما نيظ به من تكليف ومسؤولية ، فالإنسان مسؤل أولاً ثم مكرم من أجل مسؤوليته . كما هو مفهوم القرآن الكريم من بدايته إلى نهايته فيجدر بنا أن نتعرف على بعض هذه المظاهر حتى يتبين لنا مدى الإستعدادات والخصائص التي منحها الله تعالى للإنسان حتى يصير أهلاً لتحمل هذه المسؤولية والقيام بها ، وقد تناول القرآن الكريم هذا التكريم في مناسبات عدة ، وبأساليب متنوعة ، وفيما يلي نذكر أهم مظاهر التكريم التي هي مناط المسؤولية .

(١) . الأحزاب . آية ٧٢ .

(٢) . سورة الذاريات . آية ٥٦ .

(٣) . سورة البقرة . آية ٣٠ .

(٤) . سورة البقرة . آية ٢٨٦ .

(٥) . حقيقة الإنسان بين المسؤولية والتكريم ، ص : ١٣٠ .

أ. تسخير ما في الكون للإنسان :

كرم الله تعالى الإنسان بتسخير الكون له ، وتسخير ما فيها لمنفعته وتمكينه من دوره الذي خلقه من أجله ، حيث سخر له ما هو أكبر منه خلقاً كالسماوات والأرضين ، وأعظم منه جسماً كالأنعام ، وغير هذا كثير ومختلف . وأن كل ما أوجد في هذا العالم فإنما أوجده لأجل الإنسان . كما قال تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ﴾ (١) يقول ابن كثير :

يعدد تعالى نعمه على خلقه بأن خلق لهم السماوات سقفا محفوظا والأرض فرشا ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ ثَبَاتٍ شَتَّى﴾ (٢) ، ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر تجري عليه بأمر الله تعالى وسخر البحر لحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر لجلب ما هنا إلى هناك وما هناك إلى هنا وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر رزقا للعباد من شرب وسقي وغير ذلك من أنواع المنافع ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ﴾ (٣) أي يسيران لا يفتران ليلا ولا نهارا . (٤)

وقال تعالى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ . (٥)

يقول الطبري (٦) في تفسير هذه الآية : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من شمس وقمر ونجوم ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من دابة وشجر وجبل وجماد وسفن لمنافعكم ومصالحكم ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ يقول تعالى ذكره : جميع ما ذكرت لكم أيها الناس من هذه النعم نعم عليكم من الله أنعم بها عليكم وفضل منه تفضل به عليكم وجميعها منه و من نعمه فلا تجعلوا له في شرككم له شريكا بل أفردوه بالشكر والعبادة وأخلصوا له الألوهة فإنه لا إله لكم سواه . (٧)

(١) . سورة ابراهيم . آية ٣٢ .

(٢) . سورة طه . آية ٥٣ .

(٣) . سورة ابراهيم . آية ٣٣ .

(٤) . تفسير القرآن العظيم ، لإمام ابن كثير ، ص : ١٠٣٦ .

(٥) . سورة الجاثية . آية ١٣ .

(٦) . هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ولد عام ٢٢٤ بطبرستان كان أعلم الناس في زمانه وكان مجتهدا لا يقلد أحد وله مؤلفات منها : جامع البيان عن تأويل أي القرآن ، تاريخ الأمم والملوك ، توفي عام ٣١٠ هـ انظر : الكامل في التاريخ لابن الأثير ١٣٤/٨ وطبقات المفسرين لداودي ١١٠/٢ .

(٧) . جامع البيان عن تأويل أي القرآن ، لابن جرير الطبري ، ١٣ / ١٤٣ ، ١٤٤ ، دار الفكر . ط : ٥١٤٠٥ ،

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ . (١)

وقال الإمام الرازي (٢) في تفسير هذه الآية : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي ذلل لكم ما فيها فلا أصلب من الحجر ولا أحد من الحديد ولا أكثر هيبه من النار ، وقد سخرها لكم وسخر الحيوانات أيضاً حتى ينتفع بها من حيث الأكل والركوب والحمل عليها والانتفاع بالنظر إليها . (٣)

وقال الشيخ السعدي في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ (٤) ، وهذا شامل لأجرام السماوات والأرض ولما أودع الله فيهما من الشمس والقمر والكواكب والثوابت والسيارات وأنواع الحيوانات وأصناف الأشجار والثمار وأجناس المعادن وغير ذلك مما هو معد لمصالح بني آدم ومصالح ما هو من ضروراته ، فهذا يوجب عليهم أن يبدلوا غاية جهدهم في شكر نعمته وأن تتغلغل أفكارهم في تدبر آياته وحكمه ، وكل ذلك دال على أنه وحده المألوه المعبود الذي لا تنبغي العبادة والذل والمحبة إلا له وأن رسله صادقون فيما جاءوا به ، فهذه أدلة عقلية واضحة لا تقبل ريباً ولا شكاً . (٥)

وكرم الله تعالى الإنسان حين مهد له الأرض ، وجعلها صالحة للحياة بما خصها الله تعالى بهم من هواء وماء وغير ذلك من أسباب الحياة . قال تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (٦) .

قال الإمام الشوكاني : " أي : سهلة لينة تستقرّون عليها ، ولم يجعلها خشنة بحيث يمتنع عليكم السكون فيها والمشي عليها . (٧)

وقال الشيخ السعدي في تفسير هذه الآية : هو الذي سخر لكم الأرض وذلّلها، لتدركوا منها كل ما تعلقت به حاجتكم ، من غرس وبناء وحرث ، وطرق يتوصل بها إلى الأقطار النائية والبلدان الشاسعة ، ﴿ فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ أي : لطلب الرزق والمكاسب . ﴿ وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾

(١) . سورة الحج . آية ٦٥ .

(٢) . هو أبو عبد الله بن محمد بن عمر الحسين بن الحسن بن علي التميمي الطبرستاني الرازي الملقب بفخر الدين والمعروف بابن الخطيب الشافعي، ولد عام ٥٤٤ هـ كان إماماً في التفسير والعلوم العقلية وعلوم اللغة لقب بشيخ الإسلام وله مؤلفات عديدة منها : التفسير الكبير المسمى بمفاتيح الغيب ، المطالب العالمة ، المحصول شرح الوجيز . توفي بهراة عام ٦٠٦ هـ . انظر وفيات الأعيان ٤/٢٤٨-٢٥٢ ، البداية والنهاية ١٣/٥٥ وطبقات المفسرين لداودي ٢/٢١٥-٢١٨ .

(٣) . التفسير الكبير ، لإمام فخر الدين الرازي ، ١٢/٥٥ ، دارالكتب العلمية . ط : الثانية ١٤٢٥ هـ ، ٢٠٠٤ م .

(٤) . سورة الجاثية . آية ١٣ .

(٥) . تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، الشيخ عبدالرحمن السعدي ، ص : ٩٣٦ .

(٦) . سورة الملك . آية ١٥ .

(٧) . فتح القدير ، لإمام الشوكاني ، ص : ١٧٧١ .

﴿ أي : بعد أن تتقلوا من هذه الدار التي جعلها الله امتحاناً ، وبلغت يتبلغ بها إلى الدار الآخرة ، تبعثون بعد موتكم ، وتحشرون إلى الله ، ليحازيكم بأعمالكم الحسنة والسيئة . (١) ﴾
 فآيات عديدة تتحدث عن الماء وكونه سبباً للحياة ، وجوده ضرورة ، توزيعه في الأرض بهذه الصورة رحمة من الله تعالى وفضل كبير ، يقول الله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴾ . (٢)

وارتباط الماء بالإنبات والإثمار الذي هو طعام الإنسان وما شئته ، ارتباط واضح ذكره القرآن في أكثر من آية ، نذكر منها قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعَيْنًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ . (٤)

وأما ما يتعلق بالليل والنهار ذكره القرآن إما بصيغة التسخير وإما بذكر الغاية من هذا التسخير ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِيَتَّبِعُوا فَضْلًا مِّنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلَنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾ (٥)

قال ابن كثير " يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار، ليسكنوا في الليل وينتشروا في النهار للمعاش والصناعات والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام ، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجازات وغير ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ لِيَتَّبِعُوا فَضْلًا مِّنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي : في معاشكم وأسفاركم ونحو ذلك ﴿ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً وأسلوباً متساوياً لما عرف شيء من ذلك . (٦)

هكذا سخره في السموات والأرض لخدمته . وأما ما ذكرناه هي مجرد أمثلة تؤكد ما ذهبنا إليه من أن الله تعالى يسر للإنسان سبيل حياته زماناً ومكاناً ، وإلا فآيات التسخير كثيرة وفوائدها حمة .

(١) . تفسير السعدي ، ص : ١٠٥٤ .

(٢) . سورة الواقعة . آية ٦٨ ، ٦٩ .

(٣) . سورة النحل . آية ١٠ ، ١١ .

(٤) . سورة عبس . من آية ٢٤ إلى ٣٢ .

(٥) . سورة الإسراء . آية ١٢ .

(٦) . تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ص : ١١٠٦ .

ب : تكريم الإنسان بالجوارح و الحواس :

لقد وضع لنا القرآن الكريم بأن الله تعالى خلق الإنسان على هذه الصورة البديعة و زوده بما ركب فيه من حواس وجوارح وغرائز و غير ذلك ليتمكن بكل هذه القوى من القيام بما وكل إليه من رعاية مسؤولياته وتكاليفه . كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (١) ، قال الإمام النسفي (٢) : " في أحسن تعديل لشكله وصورته وتسوية أعضائه . (٣)

قال سيد قطب (٤) في تفسير هذه الآية : ومنها تبدو عناية الله بخلق هذا الإنسان ابتداء في أحسن تقويم . والله سبحانه أحسن كل شيء خلقه . فتخصيص الإنسان هنا وفي مواضع قرآنية أخرى بحسن التركيب ، وحسن التقويم ، وحسن التعديل . . فيه فضل عناية بهذا المخلوق . (٥)

لذلك أبين فيما يلي حديث القرآن الكريم عن الحواس والجوارح التي وهبها الله تعالى للإنسان و زوده بها وكونها سبباً من أسباب المسؤولية .

وهذه الجوارح والحواس هي الألسن والشفاة والأفواه والعيون والآذان والوجه والأيدي والبطن والأرجل والرأس والفروج وغير ذلك مما كمل الله به تعالى الإنسان وأعدّه لتحمل المسؤولية . فكل جارحة وحاسة في الإنسان تتعلق بها أمور كثيرة من الواجبات والمندوبات والمكروهات والمحرمات وغير ذلك ، فاللسان مثلاً يتعلق به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والقراءة في الصلاة وذكر الله تعالى وغير ذلك مما هو واجب أو مندوب ، وكما يتعلق به من المحرمات والمكروهات فالقذف وشهادة الزور والكذب والغيبة والنميمة وغير ذلك .

ولذلك نجد القرآن الكريم في مقام التذكير الإنسان بنعم الله تعالى عليه يقول : ﴿ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ (٦) وأمرنا بالصدق في القول بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ (٧) وتوعد من يقول الكذب بلسانه ونهى عن ذلك فقال : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ (٨) ويقول مهددا أصحاب الإفك الذين افتروا الكذب على أم المؤمنين

(١) . سورة التين . آية ٤ .

(٢) . هو أبو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي الحنفي الفقيه الأصولي المفسر المتكلم صاحب كتاب (تفسير مدارك التنزيل) توفي سنة ٧١٠ هـ انظر: الدرر الكامنة لابن حجر ٢/٢٤٧ وتاج التراجم ص ١١١ .

(٣) . مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، لإمام أبي البركات النسفي ، ٢/٣٦٧ ، دار الفكر للطباعة والنشر .

(٤) . هو سيد ابن الحاج بن قطب ولد في قرية صعيد بمصر عام ١٩٠٦ الميلادي التحق بدعوة الإخوان المسلمين بعد وفاة حسن البناء عام ١٩٥١ اعتقل في زمن جمال عبد الناصر مرتين وحكم عليه بالإعدام عام ١٩٦٦ وله مؤلفات عديدة ومن أشهرها تفسيره في ظلال القرآن ، انظر: عملاق الفكر الإسلامي الشهيد سيد قطب للشيخ عبدالله عزام ص : ٣٢-٩ .

(٥) . في ظلال القرآن ، لسيد قطب ، ٦ / ٣٩٣٣ ، دار الشروق . ط : العاشرة ١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢ م .

(٦) . سورة البلد . آية ٩ .

(٧) . سورة الأحزاب . آية ٧٠ .

(٨) . سورة النحل . آية ١١٦ .

عائشة رضي الله عنها (١) : ﴿ إِذِ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ (٢) . وغير ذلك من الآيات التي تتحدث عن اللسان وما يتعلق به من أحكام بل جعل الله تعالى الألسن شاهدة على أصحابها يوم القيامة يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

كما يتعلق بالأفواه والبطون كثير من الأحكام فكل أمر من الله تعالى بالأكل من الطيبات الحلال ، وكل نهي يتعلق بالأكل من الخبيث الحرام ، إنما يقصد به الفم والبطن يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (٤) ويقول ناهيا عن أكل الحرام : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٥) .

كما يذكر القرآن الكريم في كثير من الآيات السمع والبصر أو الآذان والعيون ويبين أن الإنسان بهاتين الجارحتين يتوصل إلى الإعتبار بما في الكون من علامات ودلائل على وحدانية الله تعالى ، كما جعل الله تعالى السمع والبصر والقواد سبباً مؤدياً إلى شكر الله تعالى يقول الله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٦) . كما أعلن القرآن الكريم عن ندامة الكفار وحسرتهم يوم القيامة بسبب عدم إستعمالهم جوارحهم في طاعة الله تعالى في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٧) .

وكذلك نعى الله تعالى على من لا ينتفعون بهذا الحواس والجوارح في الهداية إلى ربهم ومثلهم بالأنعام في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٨) ، كما وصف الله تعالى المنافقين والكفار بالصم والبكم والعمى لأنهم لم يستعملوا حواسهم في عبادة الله والإيمان به يقول تعالى : ﴿ صُمُّ بَكْمٌ عُمِّيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٩) .

(١) . هي أم المؤمنين عائشة بنت الصديق - رضي الله عنها - ولدت بمكة بعد المبعث بأربع أو خمس سنوات تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم وهي بنت ست كانت بليغة أدبية عالمة توفيت سنة ٥٨ هـ انظر: الإصابة ٤/٣٥٩-٣٦١ و الاستيعاب ٤/٣٥٦-٣٦١ و أسد الغابة في معرفة الصحابة ٥/٥٠١ .

(٢) . سورة النور . آية ١٥ .

(٣) . سورة النور . آية ٢٤ .

(٤) . سورة البقرة . آية ١٧٢ .

(٥) . سورة البقرة . آية ١٨٨ .

(٦) . سورة النحل . آية ٧٨ .

(٧) . سورة الملك . آية ١٠ .

(٨) . سورة الأعراف . آية ١٧٩ .

(٩) . سورة البقرة . آية ١٧١ .

وقد جعل الله تعالى الإنسان مسؤولاً عن هذه الجوارح يوم القيامة وعن إستعمالها فيما شرع الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (١) . فالله تعالى خلق هذه الجوارح في الإنسان ليقوى بها على القيام برعاية مسؤولياته وتحقيق مكانته في الحياة الدنيا ، فكلما تكاملت في الإنسان هذه الجوارح أصبح متحملاً لجميع التكاليف وإذا سلبت منه إحدى هذه الجوارح والحواس خفف عنه ما يتعلق بها من أحكام و

تكاليف ، وذلك من فضل الله تعالى ورحمته بعباد حيث لم يكلفهم إلا على قدر طاقتهم كما بين ذلك في قوله : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُم فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (٤) .

ومن مظاهر اليسر أن الله تعالى رخص للمريض والمسافر الفطر في رمضان ، واكتفى منهما بالقضاة في أيام الصحة والإقامة بل أسقط فريضة الصوم على من لا يطيقه في قوله تعالى : ﴿ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٥) ، كما أباح للحاج المريض أو من به أذى من رأسه أن يحلق ويفدي بصيام أو صدقة أو نسك يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أذى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ (٦) .

كما رفع الله تعالى الحرج والإثم عن ترك الجهاد لعماه أو عرجه أو مرضه يقول تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٧) .

فتبين من كل ما سبق أن الحواس والجوارح التي زود الله تعالى في الإنسان من أسباب تكليفه ومن عوامل قيامه بتبعاته ومسؤولياته ، فإنها القوى التي يتمكن بها من أداء التكاليف التي كلفها الله تعالى وحملها للإنسان ، وبذلك يظهر رحمة الله تعالى بالإنسان حيث لم يحمله عسرا بل جعل الأمانة والمسؤولية التي حمله إياها وأناط به رعايتها والقيام بها وفق طبيعته ومطابقة لتكوينه وخلقته .

(١) . سورة الإسراء . آية ٣٦ .

(٢) . سورة البقرة . آية ٢٨٦ .

(٣) . سورة البقرة . آية ١٨٥ .

(٤) . سورة الحج . آية ٧٨ .

(٥) . سورة البقرة . آية ١٨٤ .

(٦) . سورة البقرة . آية ١٩٦ .

(٧) . سورة التوبة . آية ٩١ .

ج. تمييز الإنسان بالوحي :

بعد أن كرم الله الإنسان في تكوينه جسماً و عقلاً و إرادة ، وهياً له الكون للحياة تسخيراً و انقياداً ، ما كان لرحمته و فضله أن يترك الإنسان يتعامل مع هذا الكون وحده ، بل كرمه بإرسال الرسل إليه ، وإنزال الكتب السماوية عليه ، إذ تعامل الإنسان المكرم في ذاته ، مع الكون المسخر له ، يحدث فيه اضطراب لو أنه اعتمد على العقل وحده ، لذا زاد الله تعالى من تكريمه للإنسان ، فأرسل له الرسل ليسدده و يوفقه على الطريق الصحيح .

فبعث فيهم من أنفسهم برسل يتلون عليهم آياته و يزكّوهم و يعلمونهم الكتاب و الحكمة ، لكى إذا تمسكوا به صلح معادهم و معاشهم و سهل عليهم إدراكهم ، ولهذا أزال علتهم ببعثة الأنبياء ، فقال تعالى : ﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ . (١)

ويقول سيد قطب : " على أن هذا التكريم بالوحي و الرسل لا ينقص من قيمة العقل ، ولا يجعله مهملاً في مجال التلقى عن الوحي و فهم ما يتلقى و إدراك ما من شأنه أن يدركه ، بل للعقل في حدود هذا الإطار مهمة ورسالة ، لكنه ليس حكماً أخيراً على النص ، بل ما دام النص محكماً فالمدلول الصريح له الحكم . وعلى العقل أن يتلقى مقرراته هو من مدلول هذا النص الصريح و يقيم منهجه على أساسه " . (٢)

وقد بسط القرآن القول في تكريم الله للإنسان بالرسل ، رحمة به ، وفضلاً من الله تعالى . يقول سبحانه و تعالى : ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُم فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُم عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ . (٥) ذكر الإمام القرطبي حين فسر قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ . (٦)

(١) . سورة الإسراء . آية ١٥ .

(٢) . انظر خصائص التصور الإسلامي ، سيد قطب ، ص : ٣٠ ، طبعة المنظمات الطلابية ، ١٩٧٨ .

(٣) . سورة النساء . آية ١٦٥ .

(٤) . سورة إبراهيم . آية ٤ .

(٥) . سورة الحشر ، آية ٧ .

(٦) . سورة الإسراء . آية ٧٠ .

بأن العقل لما لم ينهض بكل المراد من العبد بعثت الرسل وأنزلت الكتب (١) ، ومعناه أن ترك الأمر للعقل في كل شئ قد يقلب النعم نقماً ، ويحيل اليسر حرجاً ، ومما يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ . (٢)

يقول ابن كثير : " أي اعلموا أن بين أظهركم رسول الله ﷺ فعظموه ووقروه وتأدبوا معه وانقادوا لأمره ، فإنه أعلم بمصالحكم و أشفق عليكم منكم ، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم ، وبين أن رأيهم سخيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم ، فقال تعالى : ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ أي لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحرجمكم . (٣)

هكذا أرسل الله تعالى الرسل وأنزل الكتب لإصلاح الخلق وإقامة الحججة عليهم ، وفي كل هذه المظاهر التي ذكرنا تتجلى صورة الإنسان المكرم بين مخلوقات الله جميعاً ، كما توضح مركز هذا الإنسان في هذا الكون من قبل مسؤوليته و دوره وهذه هي مناط التكليف و المسؤولية .

(١) . الجامع الأحكام . لقرطبي ، ١٠ / ٢٩٤ .

(٢) . سورة الحجرات . آية ٧ .

(٣) . تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ص : ١٧٤٥ .

الفصل الثاني

أنواع المسؤولية وأهدافها

المبحث الأول : أنواع المسؤولية

المبحث الثاني : أهداف المسؤولية

المبحث الأول : أنواع المسؤولية :

وبعد أن عرفنا المسؤولية لغةً و اصطلاحاً ، وبعد أن عرفنا أهم خصائصها وبعد أن وقفنا على شروط المسؤولية ومناطقها يمكننا الآن التعرف على أنواع المسؤولية وأهدافها . ويمكن إجمال هذه الأنواع المسؤولية في المجالات الثلاثة وهي :

١. المسؤولية تجاه الخالق .

٢. المسؤولية تجاه الاسرة .

٣. المسؤولية تجاه المجتمع .

١. المسؤولية تجاه الخالق :

إن الله عزوجل لا تنفعه عبادة العابدين ، ولا يضره صدود المعرضين والكافرين ، ولا يزيد في ملكه حمدالحامدين ، ولا ينقصه جحود الجاحدين ، ولو كانوا على أفجر قلب واحد ما نقص ذلك من ملكه شيئاً ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل واحد لم يزد ذلك في ملكه شيئاً ، ولم يبلغوا ضره فيضروه ، ولم يبلغوا نفعه فينفعوه ، فهو الغني والكل فقراء إليه ، هو الغني عن الوسطاء والحجاب والأنداد . كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (١) .

فهم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات ، وهو الغني عنهم بالذات ، هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له ، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله ويقدره ويشعره .

إذاً علاقة الإنسان مع ربه أسمى العلاقات وميدان المسؤولية فيها أقدس الميادين وذلك ؛ لأنها علاقة العبد مع ربه ، والمخلوق مع خالقه . وتشمل المسؤولية في هذا الجانب إلى ناحيتين : جانب الاعتقاد وجانب السلوك .

أما المسؤولية في جانب الاعتقاد : فتشمل في المحافظة على أركان الإيمان الستة التي وردت في حديث جبريل عليه السلام " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره " وفي المحافظة على ما يتعلق بهذه الأركان من مسائل فرعية عقديّة .

(١) . سورة فاطر . آية ١٥ .

أما المسؤولية في جانب السلوك : فتشمل في المحافظة على أركان الإسلام الخمسة ، وما يلحق بها من عبادات فرعية .

وفيما يلي أذكرهذين الجانبين بنوع من التفصيل :

١. جانب الاعتقاد :

تعريف العقيدة :

مأخوذ من العقد بمعنى الربط ، والتوثيق ، والإثبات ، ومنه اليقين والحزم . وتطلق كذلك على الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده . (١) ، ويمكن أن نقول بأن هذه المعاني تدور في جملتها على معاني الشدة والقوة والثبات والصلابة والثوق . وفي ذلك يقول ابن فارس (٢) : " العين والقاف والدادل " أصل واحد يدل على شدّ وشدة وثوق ، وإليه ترجع فروع الباب كلها . (٣)

ولم ترد كلمة العقيدة في القرآن الكريم ولا في السنة ولا في أمهات المعاجم ولا في الصدر الأول وإنما وردت مادتها في صيغ مختلفة في القرآن الكريم مثل قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيحَتَهُمْ ﴾ (٤) ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعَزِّمُوا عُقَدَةَ النَّكَاحِ ﴾ (٥) ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي ﴾ (٦) ، وغير ذلك . وكلها تدور حول معنى التوثيق والربط والالتزام .

والعقيدة في الدين : ما يُفصِّدُ به الاعتقاد دون العمل ؛ كعقيدة وجود الله وبعثة الرسل (٧) ، والجمع : عقائد . وخلاصته : ما عقد الإنسان عليه قلبه جازماً به فهو عقيدة سواء كانت حقاً ، أو باطلاً .

وفي الإصطلاح : هي الأمور التي يجب أن يصدّق بها القلب ، وتطمئن إليها النفس ؛ حتى تكون يقيناً ثابتاً لا يمازجها ريب ، ولا يخالطها شك . وسميت العقيدة عقيدة ؛ لأن الإنسان يعقد عليه قلبه والعقيدة الإسلامية : هي الإيمان الجازم بالله تعالى ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، وسائر ما ثبت من أمور الغيب ، وأصول الدين ، وما أجمع عليه السلف الصالح ، والتسليم التام لله تعالى في الأمر ، والحكم ، والطاعة ، والاتباع لرسوله ﷺ .

(١) . المعجم الوسيط ، قام بإخراجه ابراهيم مصطفى وغيره ، ص : ٦١٤ . مجمع اللغة العربية .

(٢) . هو الشيخ أبوالحسين أحمد بن فارس بن ذكرى الرازي اختلف الرواة في نسبه وموطنه وتاريخ ولادته ، كان ادبياً ونحوياً على طريقة الكوفيين وله مؤلفات كثيرة منها: المجمل في اللغة ، فقه اللغة ، اختلاف النحويين ، توفي سنة ٣٩٥ هـ انظر : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة لجلال الدين السيوطي ١/٣٥٢ .

(٣) . معجم مقاييس اللغة لابن فارس . بتحقيق وضبط : عبدالسلام محمد هارون . ص : ٨٦ / ٤ ، ط : دارالجيل

بيروت لبنان .

(٤) . سورة النساء . آية ٣٣ .

(٥) . سورة البقرة . آية ٢٣٥ .

(٦) . سورة طه . آية ٢٧ .

(٧) . المعجم الوسيط ، ص : ٦١٤ .

أهمية العقيدة :

ومعلوم بالأدلة الشرعية من الكتاب والسنة أن الأعمال والأقوال إنما تصح وتقبل إذا صدرت عن عقيدة صحيحة ، فإن كانت العقيدة غير صحيحة بطل ما يتفرع عنها من أعمال وأقوال ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢)

والآيات في هذا المعنى كثيرة ، وقد دلّ كتاب الله المبين وسنة رسوله الأمين ﷺ على أن العقيدة الصحيحة تلخص في : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره ، فهذه الأمور الستة هي أصول العقيدة الصحيحة التي نزل بها كتاب الله العزيز ، وبعث الله بها رسوله محمداً ﷺ ، ويتفرع عن هذه الأصول كل ما يجب الإيمان به من أمور الغيب ، وجميع ما أخبر الله به ورسوله ﷺ . وأدلة هذه الأصول الستة في الكتاب والسنة كثيرة جداً ، فمن ذلك قول الله سبحانه : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ (٣) ، وقوله سبحانه : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ (٤) ، وقوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيَّ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (٥) ، وقوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ . (٦)

وأما الأحاديث الصحيحة الدالة على هذه الأصول فكثيرة جداً ، منها الحديث المشهور عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٧) أن جبريل عليه السلام سأل النبي ﷺ عن الإيمان ، فقال له : " الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ... " . (٨)

(١) . سورة المائدة . آية ٥ .

(٢) . سورة الزمر . آية ٦٥ .

(٣) . سورة البقرة . آية ١٧٧ .

(٤) . سورة البقرة . آية ٢٨٥ .

(٥) . سورة النساء . آية ١٣٦ .

(٦) . سورة الحج . آية ٧٠ .

(٧) . هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي أحفص الفاروق كان إسلامه فتحاً عظيماً للمسلمين وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأول من لقب بأمير المؤمنين ولد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة وتوفي سنة ٢٣هـ انظر : الاصابة لابن حجر العسقلاني ٥١٨/٢-٥١٩ وأسد الغابة لابن الأثير ٤/١٤٥-١٨١ .

(٨) . صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، حديث رقم : ١ ، ص : ٢٥ ، ط : الثانية ٢٠٠٠م ، دار السلام للنشر والتوزيع

وهذه الأصول الستة يتفرع عنها جميع ما يجب على المسلم اعتقاده في حق الله سبحانه تعالى ، وفي أمر المعاد وغير ذلك من أمور الغيب.

أركان العقيدة :

أولاً : الإيمان بالله :

ومن الإيمان بالله سبحانه ، الإيمان بأنه الإله الحق المستحق للعبادة دون كل ما سواه لكونه خالق العباد والمحسن إليهم والقائم بأرزاقهم والعالم بسرهم وعلانيتهم، والقادر على إثابة مطيعهم وعقاب عاصيهم، ولهذا العبادة خلق الله الثقلين وأمرهم بها، كما قال تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ إِنْ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) . وقد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب لبيان هذا الحق والدعوة إليه والتحذير مما يضاده ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٤) . وقال ﷺ : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمُ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ (٥) .

وحقيقة هذه العبادة : هي أفراد الله سبحانه بجميع ما يعبد العباد به من دعاء ، وخوف ، ورجاء ، وصلاة ، وصوم ، وذبح ، ونذر ، وغير ذلك من أنواع العبادة ، على وجه الخضوع له والرغبة ، والرغبة مع كمال الحب له سبحانه والذل لعظمته ، وغالب القرآن الكريم نزل في هذا الأصل العظيم ، كقوله سبحانه : ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ (٦) ، وقوله سبحانه : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ (٧) ، وقوله ﷺ : ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾

(١) . سورة الذاريات . آية ٥٦، ٥٧ .

(٢) . سورة البقرة . آية ٢٢ .

(٣) . سورة النحل . آية ٣٦ .

(٤) . سورة الأنبياء . آية ٢٥ .

(٥) . سورة هود . آية ١ ، ٢ .

(٦) . سورة الزمر . آية ٢ ، ٣ .

(٧) . سورة الإسراء . آية ٢٣ .

وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ ، وفي الحديث عن النبي ﷺ قال : " حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً " . (٢)

ومن الإيمان بالله أيضا الإيمان بجميع ما أوجبه على عباده وفرضه عليهم من أركان الإسلام الخمسة الظاهرة وهي : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلا، وغير ذلك من الفرائض التي جاء بها الشرع المطهر ، وأهم هذه الأركان وأعظمها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فشهادة أن لا إله إلا الله تقتضي إخلاص العبادة لله وحده ونفيها عما سواه ، وهذا هو معنى لا إله إلا الله ، فإن معناها : لا معبود بحق إلا الله ، فكل ما عبد من دون الله من بشر أو ملك أو جني أو غير ذلك ، فكله معبود بالباطل ، والمعبود بالحق هو الله وحده ، كما قال سبحانه : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ (٣) . وقد سبق بيان أن الله سبحانه خلق الثقيلين لهذا الأصل الأصيل وأمرهم به ، وأرسل به رسله وأنزل به كتبه ، فتأمل ذلك جيدا وتدبره كثيرا ليتضح لك ما وقع فيه أكثر المسلمين من الجهل العظيم بهذا الأصل الأصيل حتى عبدوا مع الله غيره ، وصرفوا خالص حقه لسواه .

ومن الإيمان بالله سبحانه ، الإيمان بأنه خالق العالم ومدبر شؤونهم والمتصرف فيهم بعلمه وقدرته كما يشاء سبحانه وأنه مالك الدنيا والآخرة ورب العالمين جميعا لا خالق غيره، ولا رب سواه، وأنه أرسل الرسل وأنزل الكتب لإصلاح العباد ودعوتهم إلى ما فيه نجاتهم وصلاحهم في العاجل والآجل، وأنه سبحانه لا شريك له في جميع ذلك، قال تعالى :

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ شَاءَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٥)

ومن الإيمان بالله أيضا : الإيمان بأسمائه الحسنی وصفاته العلی الواردة في كتابه العزيز، والثابتة عن رسوله الأمين من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، بل يجب أن تمر كما جاءت بلا كيف ، مع الإيمان بما دلت عليه من المعاني العظيمة التي هي أوصاف لله ﷻ يجب وصفه بها على الوجه اللائق به من غير أن يشابه خلقه في شيء من صفاته ، كما قال تعالى :

(١) . سورة الزمر . آية ١٤ .

(٢) . صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ، حديث رقم : ٤٩ ص : ٣٦ ، المرجع السابق .

(٣) . سورة الحج . آية ٦٢ .

(٤) . سورة الزمر . آية ٦٢ .

(٥) . سورة الأعراف . آية ٦٤ .

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢)

ثانياً: الإيمان بالملائكة :

وأما الإيمان بالملائكة فيتضمن الإيمان بهم إجمالاً وتفصيلاً، فيؤمن المسلم بأن الله ملائكة خلقهم لطاعته، ووصفهم بأنهم : ﴿ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ (٣) ، وهم أصناف كثيرة منهم الموكلون بحمل العرش ، ومنهم خزنة الجنة والنار ، ومنهم الموكلون بحفظ أعمال العباد ، ونؤمن على سبيل التفصيل بمن سمي الله ورسوله منهم، كجبريل وميكائيل ومالك (خازن النار) وإسرافيل الموكل بالنفخ في الصور ، وقد جاء ذكرهم في أحاديث صحيحة ، وقد ثبت في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم " . (٤)

ثالثاً : الإيمان بالكتب :

يجب الإيمان إجمالاً بأن الله سبحانه أنزل كتباً على أنبيائه ورسوله ، لبيان حقه والدعوة إليه ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (٥) ، وقال تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ (٦) .

ونؤمن على سبيل التفصيل بما سمي الله منها كالتوراة والإنجيل والزرور (وأنها تمت تحريفها ثم نسخت بحجىء القرآن الكريم) والقرآن ، والقرآن هو أفضلها وخاتمها، وهو المهيمن والمصدق لها، وهو الذي يجب على جميع الأمة اتباعه، وتحكيمه مع ما صحت به السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله سبحانه بعث رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم رسولاً إلى جميع الثقليين ، وأنزل عليه هذا القرآن ليحكم به بينهم ، وجعله شفاءً لما في الصدور ، وتبيناً لكل شيء وهدى ورحمةً للمؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ وَهَذَا

(١) . سورة الأعراف . آية ١١ .

(٢) . سورة النحل . آية ٧٤ .

(٣) . سورة الأنبياء . آية ٢٧ ، ٢٨ .

(٤) . صحيح مسلم ، كتاب الزهد والرفائق ، باب في أحاديث متفرقة ، حديث رقم : ٦٠ ، ص : ١٢٩٥ ، المرجع السابق .

(٥) . سورة الحديد . آية ٢٥ .

(٦) . سورة البقرة . آية ٢١٣ .

كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكًا فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (٣) ، والآيات في هذا المعنى كثيرة .

رابعاً: الإيمان بالرسول :

وهكذا الرسل يجب الإيمان بهم إجمالاً وتفصيلاً فنؤمن أن الله سبحانه أرسل إلى عباده رسلاً منهم مبشرين ومنذرين ودعاة إلى الحق ، فمن أجابهم فاز بالسعادة ، ومن خالفهم باء بالخيبة والندامة ، وخاتمهم وأفضلهم نبينا محمد بن عبد الله ﷺ ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (٥) ، وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (٦) . ومن سَمَّى الله منهم أو ثبت عن رسول الله ﷺ تسميته آمناً به على سبيل التفصيل والتعيين ، كنوح وهود وصالح وإبراهيم وغيرهم صلى الله وسلم عليهم وعلى آلهم وأتباعهم .

الإيمان باليوم الآخر : خامساً :

وأما الإيمان باليوم الآخر فيدخل فيه الإيمان بكل ما أخبر الله به ورسوله ﷺ مما يكون بعد الموت كفتنة القبر وعذابه ونعيمه ، وما يكون يوم القيامة من الأهوال، والشدائد ، والصراط ، والميزان ، والحساب ، والجزاء ، ونشر الصحف بين الناس ، فأخذ كتابه بيمينه ، وأخذ كتابه بشماله ، أو من وراء ظهره ، ويدخل في ذلك أيضاً الإيمان بالحوض المورود لنبينا محمد ﷺ ، والإيمان بالجنة والنار، ورؤية المؤمنين لربهم سبحانه وتكليمه إياهم ، وغير ذلك مما جاء في القرآن الكريم والسنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ ، فيجب الإيمان بذلك كله وتصديقه على الوجه الذي بينه الله ورسوله ﷺ .

-
- (١) . سورة الأنعام . آية ١٥٥ .
 - (٢) . سورة النحل . آية ٨٩ .
 - (٣) . سورة الأعراف . آية ١٥٨ .
 - (٤) . سورة النحل . آية ٣٦ .
 - (٥) . سورة النساء . آية ١٦٥ .
 - (٦) . سورة الأحزاب . آية ٤٠ .

سادساً : الإيمان بالقدر:

وأما الإيمان بالقدر فيتضمن الإيمان بأمر أربعة :

أولها : أن الله سبحانه قد علم ما كان وما يكون ، وعلم أحوال عباده ، وعلم أرزاقهم وآجالهم وأعمالهم وغير ذلك من شؤونهم، لا يخفى عليه من ذلك شيء سبحانه وتعالى، كما قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) وقال ﷻ : ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ . (٢)

ثانيها : الإيمان بكل ما قدره وقضاه كما قال سبحانه: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ . (٣)

وقال تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ . (٥)

ثالثها: الإيمان بمشيئته النافذة فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٦) وقال ﷻ : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٧) وقال سبحانه : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ . (٨)

رابعها : الإيمان بخلقه سبحانه حيث لا خالق غيره ولا رب سواه ، كما قال سبحانه: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (٩) وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٠) . فالإيمان بالقدر يشمل الإيمان بهذه الأمور الأربعة عند أهل السنة والجماعة .

٢. جانب السلوك :

إن من أهم آثار الإيمان القلبي ، والتصديق اليقيني بوحداية الله تعالى ووجوده ، أن ينعكس ذلك على سلوك الفرد ونتاج عمله .

(١) . سورة البقرة . آية ٢٩ .

(٢) . سورة الطلاق . آية ١٢ .

(٣) . سورة ق . آية ٤ .

(٤) . سورة يس . آية ١٢ .

(٥) . سورة الحج . آية ٧٠ .

(٦) . سورة الحج . آية ١٨ .

(٧) . سورة يس . آية ٨٢ .

(٨) . سورة التكويد . آية ٢٩ .

(٩) . سورة الزمر . آية ٦٢ .

(١٠) . سورة فاطر . آية ٣ .

كما أن الإنسان إذا إعتقد شيئا يجد في نفسه التوقان إلى تطبيق ذلك في حياته العملية ، وبهذا التطبيق الذى هو أثر من آثار الاعتقاد القلبي يرسخ هذا الاعتقاد حتى يغلب على مشاعر الإنسان .

فشرع الله تعالى على الناس عبادات سلوكية عملية فيها صلاح لنفوسهم ، واستقامة قلوبهم ، مما يؤدي إلى سلوك الطريق الصحيح لشكر ربهم والقيام بما يبلغهم رضا ربهم ويكسبهم سعادة الآخرة .

وفيها أيضا صلاح لأمرهم في اجتماعهم في هذه الحياة الدنيا مما يعينهم على إقامة دينهم ونشره بين الناس ، ومما يكفل لهم العيش الحسن والسعادة الاجتماعية في هذه الدنيا .

فشرع الله تعالى الصلاة سلوكا عمليا معبرا عن صدق الاعتقاد ، والزكاة سلوكا عمليا لإصلاح الوضع الاجتماعى والاقتصادى والصوم لتربية النفس البشرية ، والحج مؤتمرا جعلها لصلاح حال المسلمين . وجعلها الله تعالى فروضا و واجبات من أقامها فقد أقام الدين ومن تركها فقد ضل واتبع الهوى . وفيما يلي سأضرب بعض الأمثلة لهذه العبادات السلوكية بنوع من التفصيل .

أولاً : الصلاة :

الصلاة هى الركن الثانى بعد الشهادتين التين هما عنوان الإيمان القلبي ، وإلقرار به من أركان الإسلام معبرا عن صدق الاعتقاد ، وسلوكا عمليا لمحبة الله تعالى ، يتجه الانسان الى خالقه يناجيه في خضوع وخشوع ومحبة وخوف ورجاء ، يلقي عن كاهله أدران الدنيا وحطامها ويسمو بروحه إلى عالم الخلود ، فتصفو روحه وتسمو عن أزمات هذه الدنيا فينتهي من الصلاة وكأما اغتسل من جميع أدرانه النفسية والروحية ، فيقبل على الحياة العملية بقلب مطمئن ، ونفس منشرحة متصل بالله تعالى في كل اموره ، فتعكس آثارها على سلوكه في الحياة اليومية فيتعد عن فواحش الأمور، وتستقيم سريرته وعلايته . وصدق الله تعالى حيث قال : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (١) . وبتلك السعادة الروحية التى يجنيها الإنسان من صلاته ، من استغفاره وطلبه ودعائه ومناجاته يبدأ عمله فى جماعته فيكون عضوا صالحا فى مجتمعه ولبنة من لبنات تقدمه وحضارته المستقيمة .

فالصلاة الحقيقية فى الإسلام تمد المؤمن بقوة روحية نفسية تعينه على متاعب الحياة ومصائب الدنيا ، قال تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ (٢) .

(١) . سورة العنكبوت . آية ٤٥ .

(٢) . سورة البقرة . آية ٤٥ .

ثانيا: الزكاة :

والزكاة هي العبادة المالية الاجتماعية معروفة إجماليا لكافة المسلمين ، فهي تؤخذ من أغنيائهم لترد على فقرائهم ، فلا تجب إلا على من يملك النصاب بشروطه ، وهي طهارة للنفس والمال . يزكى بها الإنسان ماله وروحه ، ويشكر بها نعمة ربه عليه ، وفي هذا يقول القرآن ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) . ولهذا سميت " زكاة " لما توحى به هذه الكلمة من معاني الطهارة والنماء والبركة . ولهذا يطلب من المسلم أن يؤديها طيبة بما نفسه ، داعيا ربه أن يتقبلها منه قائلا : " اللهم اجعلها مغنما ، ولا تجعلها مغرما " .

ثالثا : الصوم :

وصيام رمضان وهو الفريضة السنوية الدورية معلوم لكل الأمة الإسلامية ، زمنه معلوم ، فهو شهر قمري محدود البداية والنهاية ، ووقته معلوم ، من تبين الفجر إلى غروب الشمس . ونوع الصيام معلوم ، فهو إمساك عن الأكل والشرب ، ومباشرة النساء . وآداب الصيام ومكملاته معلومة : من تعجيل الفطور وتأخير السحور ، والكف عن اللغو والرفث ، والحرص على قيام الليل ، والإكثار من الطاعات ، والإحسان إلى الناس .

رابعا : الحج :

والحج هي الشعيرة الرابعة وفريضة العمر واضحة معلومة إجمالاً لجماهير المسلمين ، لا يجهل أحد فيهم ركنية هذه الفريضة للدين ، وأن مكاتها مكة المكرمة . وأن الحاج لا بد له من الإحرام والطواف ببيت الله الحرام ، والسعي بين الصفا والمروة . والوقوف بعرفات ، والمبيت بمزدلفة ومنى ، ورمي الجمار والحلق أو التقصير . فهذه الفرائض الدينية ، والشعائر التعبدية ، واضحة تمام الوضوح في ذهن المسلم بتركيز وإجمال . (٢) وكتب الفروع قد تكفلت ببيان أحكام العبادات ووقت مشروعيتهما وأسباب الرخص فيها ومفسداتها .

فالإنسان مسؤول عن كل هذه العبادات ، وعليه تأديتها كما أمر الله تعالى في كتابه الكريم وكما بينها رسوله ﷺ في سنته المطهرة .

والأصل في كل هذه العبادات والطاعات الإخلاص لله تعالى وحده ، لا يرد بها تعظيما من الناس ولا توقيرا ، لا رياء فيها ولا سمعة ولا مصلحة دنيوية . وهو في إخلاصه في العبادات والطاعات ، اما يفعلها خوفا من عذاب الله تعالى واما أن يفعلها تعظيما لله ومهابة ، وانقيادا وإجابة ، ولا يخطر له عرض من الأعراض ، بل يعبد الله تعالى كأنه يراه ، فقد أمر العابد أن يعبد الله كأنه يراه فإن لم يقدر

(١) . سورة التوبة ١٠٣ .

(٢) . الخصائص العامة للإسلام ، لدكتور يوسف القرضاوي . ص : ١٩١ ، ١٩٢ ، ط : ٧ ، ١٩٨٩ م ، مؤسسة الرسالة، بيروت .

على تقدير نظره إلى الله فليقدر أن الله ينظر إليه ومطلع عليه فإن ذلك يحمله على الاستحياء والخوف والمهابة منه . والمقصود أن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، ولا يقبل من العمل والكلام إلا الطيب (١) وفي النهاية أقول بالاختصار تتلخص المسؤولية في جانب العلاقة مع الله تعالى في تحقيق أمرين هما :

١. إخلاص الإعتقاد والعبادة له سبحانه وتعالى ، وأن لا يشرك معه فيها أحد .
٢. صحة أدائهما على الوجه الذى شرعه الله وتعالى ورسوله ﷺ .

(١) . أنظر العقيدة الصحيحة وما يضادها ، لشيخ عبدالله بن باز ، ط : دار ابن رجب للنشر والتوزيع .

٢. المسؤولية تجاه الأسرة :

اهتم القرآن الكريم بالأسرة اهتماما بالغاً ؛ وذلك لأنها أساس بناء المجتمع ، لأن من مجموعها يتكون المجتمع فهي بالنسبة له كاخلية لبدن الإنسان ، ويترتب على ذلك أن الأسرة إذا صلحت صلح المجتمع وإذا فسدت فسدت فسد المجتمع ولهذا اعتنى النظام الاجتماعي الإسلامي بالأسرة عناية كبيرة تظهر في الأحكام الكثيرة بشأنها ، وأكثر هذه الأحكام وردت بها آيات في القرآن الكريم يتعبد المسلمون بتلاوتها في صلاتهم وفي خارج صلاتهم ، فضلاً عن الأحاديث النبوية الكريمة الواردة في هذا المجال (١) وأول العلاقات تتكون بين أفراد الأسرة الواحدة داخل البيت ، ثم تتطور تلك العلاقات إلى التعامل مع الأقارب والجيران ، ثم مع المجتمع كله وذلك خارج البيت .

فالمسؤولية داخل البيت تتكون من :

١. المسؤولية تجاه الوالدين .

٢. المسؤولية تجاه الزوجة .

٣. مسؤولية الزوجة تجاه الزوج .

٤. المسؤولية تجاه الأبناء .

أولاً: المسؤولية تجاه الوالدين :

لقد حرض القرآن على بر الوالدين والإحسان إليهما والطاعة لهما في أماكن كثيرة . قال تعالى :

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ . (٢)

يبدأ البيان بالأمر الملزم والحكم الصادر من الله تعالى بتوحيده وإفراده بالعبادة فقال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ أي أمر وألزم وأوجب ، وقيل أوصى . (٣) ، فهو أمر بتوحيد الله والإخلاص له في صورة قضاء ، فتوحيد الله والإخلاص له هو القاعدة في كل المعاملات الجارية بين بني آدم ، والقاعدة في كل التكليف الفردية والاجتماعية ، فبعد أن وضعت القاعدة ، وأقيم الأساس جاء التفصيل في أول مكان تبدأ فيه المسؤولية فقال تعالى : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ . فبدأ الكلام عن جوانب المعاملة الإسلامية بالأسرة وخص منها الوالدين ؛ وذلك لأنهما سبب في مجئ الفرد إلى هذه الدنيا ، فهم أولى الناس بالبر والإحسان إليهما .

(١) . أصول الدعوة . تأليف : د/ عبدالكريم زيدان ، ص : ١١٢ ، ط : الثالثة ١٩٨٧م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت

(٢) . سورة الإسراء . آية ٢٣ .

(٣) . أنظر الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي ، ١٠ / ٢٣٧ ، ط : دار إحياء التراث العربي . بيروت ١٩٨٥م .

يقول أبو حيان : " ومناسبة اقتران بر الوالدين بإفراد الله بالعبادة من حيث أنه تعالى هو الموجد حقيقة ، والوالدان واسطة في إنشائه وهو تعالى المنعم بإيجاده ورزقه فهما ساعيان في مصالحه " (١) ، فهما أولى الناس بالبر والإحسان .

فعلى الفرد أن يتحرى في بره لوالديه ، حتى ما يختلج في نفسه يجب أن يكون نقياً تجاههما لأن ما انطوت عليه النفس يظهر في سلوك الفرد ولو قصد ، فمن تمام برهما أن يكون نابعا من النفس حبا وكرامة وعرفانا . فهو أيضا من طاعة الله عزوجل حيث قرن برهما بطاعته وإفراده بالعبادة فهو سبحانه أعلم بما انطوت عليه الضمائر من قصد عبادة الله والبر بالوالدين .

فمن حق الآباء على الأبناء ما يلي :

١ . طاعتها في غير معصية والإنفاق عليهما .

٣ . خدمتهما وإحسان صحبتتهما حتى يبلغ في ذلك رضاها ولو كانا مشركين .

٤ . أن لا يرفع صوته فوق صوتهما ، ولا يجهر لهما بالكلام ولا يفعل أي شئ يؤذيها ، وأن يجترمهما . (٢)

والنصوص في بر الوالدين ولاسيما الأم كثيرة وكلها تدعو الى الإحسان اليهما وإكramهما والقيام بحقوقهما ورعاية شيخوختهما . إذا فالمسؤولية تجاه الوالدين عظيمة ، وحققهما كبير ، ولقد حكم على العاق المسيء إلى والديه بأنه مرتكب الكبيرة من أكبر الكبائر ، كما جاء في الحديث ، قال النبي ﷺ " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر " ، ثلاثا قالوا بلى يا رسول الله قال " الإشراف بالله وعقوق الوالدين .. " (٣)

فالتبعية تجاه الوالدين كبيرة وعظيمة ، فالله الله في بر الوالدين وطاعتها ، فهما باب الجنة ، وهما السبيل إلى دخولها فياحسرتا على من أدرك والديه أو أحدهما ولم يدخلا الجنة ببرهما والإحسان إليهما .

ثانياً : المسؤولية تجاه الزوجة :

أحاط الإسلام العلاقة الزوجية برباط مقدس ، حفظ فيها حقوق الزوجة وحقوق الزوج و بين أن العلاقة الزوجية ليست علاقة شهوانية يقضى كل منها وطره ويشبع غريزته ، بل ارتقى بها في مدارج الفضيلة ، وجعل الأساس في اجتماع الزوجين والعشرة الزوجية المودة والرحمة والألفة . قال تعالى :

(١) . البحر المحيط ، لأبي حيان ، ٦ / ٢٦ ، ط : الثانية ١٩٨٣ م ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

(٢) . المجتمع المتكافل في الإسلام ، لدكتور عبدالله الخياط ، ص : ١٥٢ ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٢ م ، بيروت .

(٣) . صحيح البخاري ، كتاب الشهادات ، باب ما قيل في شهادة الزور ، حديث رقم : ٢٦٥٤ ، ص : ٤٣٠ ،

ط : الثانية ١٩٩٩ م ، دار السلام للنشر والتوزيع . الرياض .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١)

فعلى الزوج أن يستوصى بزوجه وأهله خيرا ، فقد قال النبي ﷺ : " ألا واستوصوا بالنساء خيرا فإنما هن عوان عندكم " (٢) وقال ﷺ : " أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائهم خلقا " (٣) . فمسئولية الزوج نحو زوجته نلخصها فيما يلي :

١. أن من أول مسؤوليات الزوج على زوجته حسن الخلق معها وحسن المعاشرة لها واحتمال أذاها لقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (٤)

٢. المسكن الشرعى بحسب حالة الزوج المادية ، يجب أن يكون مجهزا بما تحتاجه الزوجة لقوله تعالى ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ (٥) .
٣. النفقة عليها لقوله تعالى : ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (٦)

٦. وأن يقوم بحمايتها وحفظ عفافها ، ذلك بأن يمنعها من التبرج والاختلاط بالرجال الأجانب ، ويلزمها بالحجاب الشرعى الذي يسترها من أنظار الفسقة ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٧) وقال ﷺ " لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم " ، وغير ذلك من الحقوق . (٨)

وقد كان من أخلاق النبي ﷺ أنه جميل العشرة دائم البشر يداعب أهله ، ويتطلف بهم ويوسعهم نفقته، ويضاحك نسائه ، ويسامر أهله قبل أن ينام ، وقد قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٩)
وأحكام عشرة النساء والواجبات نحوهن وما يتعلق بتفصيل ذلك مبسوط في كتب السنة والفروع .

(١) . سورة الروم . آية ٢١ .

(٢) . سنن الترمذى ، في الرضاع ، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها ، حديث رقم : ١١٦٣ ، ص : ٢٨٢ ، ط : الأولى ١٩٩٩م ، دارالسلام للنشر والتوزيع . الرياض .

(٣) . سنن الترمذى ، في الرضاع ، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها ، حديث رقم : ١١٦٢ ، ص : ٢٨٢

(٤) . سورة النساء . آية ١٩ .

(٥) . سورة الطلاق . آية ٦ .

(٦) . سورة الطلاق . آية ٧ .

(٧) . سورة الأحزاب . آية ٥٩ .

(٨) . صحيح البخارى ، كتاب النكاح ، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم ، رقم الحديث : ٥٢٣٣ ، ص : ٩٣٥ .

(٩) . سورة الأحزاب . آية ٢١ .

ثالثاً: مسؤولية الزوجة تجاه الزوج :

وإذا كان ما تقدم كله متعلقاً أصالة بمسؤوليات الزوج تجاه زوجته فإن الزوجة كذلك عليها مسؤوليات ضخمة وهامة تجاه زوجها وبيتها ومال زوجها وبنيتها ، حيث يقول الرسول ﷺ : " والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها " . (١)

إن المرأة لها خصائصها ومميزاتها الجسمية والنفسية التي تنفرد بها عن الرجل ، وكذلك الرجل لم يغفله الإسلام ، بل وضع لكل منهما منهاجاً يسير عليه بحيث لا يخرجها عما فطره الله تعالى عليه ، وبحيث يؤدي فرائضه وواجباته كاملة كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝ ﴾ . (٢)

ولم يخرج الإسلام المرأة عن مكانها الواجب لها من التكرم ، وحفظ الحقوق ، بل جعلها مساوية للرجل ، إلا ما اقتضته الحاجة بالنسبة لنوعها وحفظ لها حقوقها كاملة من غير حيف ولا ظلم عليها والمرأة مساوية للرجل في العبادات والتكاليف الشرعية إلا ما رخص لها فيه الشارع الحكيم مراعاة لطبيعتها الخلقية ، نجد أن مسؤولياتها في بيتها تدور حول محور هو زوجها. ومن أهم مسؤولياتها التي يلزمها ما يلي :

١. طاعة زوجها وموافقته وإجابة رغبته في كل ما يجب وما لا معصية فيه .
٢. المحافظة على بيتها ومال زوجها .
٣. مساعدته على البر وإعانتته على الخير وعدم الجأته إلى تكلف ما لا يطيق .
٤. التهيئة لزوجها بما يعفه ويدعوه الى محبتها ، وأن تقوم بخدمة التي تصلح بها شأنه وتعينه على قيامه بواجبه تجاه نفسه وأهله والجماعة كلها فتكون قد أعانتته على امر الدنيا والآخرة ولهذا يقول النبي ﷺ " إنما الدنيا متاع وليس من متاع الدنيا شيء أفضل من المرأة الصالحة " . (٣)
- ٥ . أن تحسن من هيئتها ومنظرها لزوجها . فتدخل السرور إلى نفسه وتعصمه من الزلل الذي قد يواجهه خارج البيت .
٦. أن تطيعه فيما أمر . حتى في تطوع العبادات ونوافل الخيرات لا يحل لها ان تفعل ذلك إلا بإذن زوجها . ومن اطاعته له في أمره أن تجيبه إذا دعاها إلى الفراش . فعليها الإجابة والطاعة مهما كانت الظروف والمشاكل ما لم يكن لها عذر شرعي .
- ٧ . أن تحفظه إذا غاب عنها في نفسها وماله .

(١) . صحيح البخارى ، كتاب الجمعة ، باب الجمعة في القرى والمدن ، رقم الحديث : ٨٩٣ ، ص : ١٤٤ .

(٢) . سورة النساء . آية ٣٢ .

(٣) . سنن ابن ماجه ، كتاب النكاح ، باب أفضل النساء ، حديث رقم : ٨٥٥ ، ص : ٢٦٦ .

هذه هي المسؤولية التي يجب على المرأة المسلمة ان تلتزم بها تجاه زوجها ، ورسالة المرأة في الإسلام لا تقتصر على البيت والأسرة ، بل تتعدى إلى المجتمع من حولها فهي عضو فيه ، فيجب أن تأخذ حظها من المسؤولية فيه ، ولكن في نطاق الحشمة والحجاب والاختلاط الذي أباحه الإسلام .

رابعاً : المسؤولية تجاه الأبناء :

لقد مر بنا في العرض السابق بعض جوانب مسؤولية الأسرة التي بدأت خطواتها بفردين هما الزوج والزوجة لا بد أن يكون لتلاقيهما نتيجة وهذه النتيجة طبيعة وحتمية غالباً هي النسل الناشئ من هذا الرباط فلا بد أن تكون هناك أبوة ولا بد أن تكون بنوة ثم لا بد أن تمتد جذور الرباط الى ذوي الأرحام .

هنا نجد أن المسؤولية غير مقصورة على ما سبق ولكنها تمتد بامتداد الأسرة وتنمو بنموها. لذلك عنى الإسلام بالأسرة عناية كبيرة تلك الخلية الأولى التي يولد وينشأ فيها الأبناء . وعناية الإسلام بالأطفال لا تقل عن عنايته بالأسرة ، إن لم تكن الأسرة تابعة لهم في ذلك .

أولاً : اختيار البيئة الصالحة :

فأول ما تتجه المسؤولية نحو الأبناء أن يختار لهم البيئة الصالحة في الأسرة ، وذلك باختيار الزوجة الصالحة التقية التي ستكون معدن هؤلاء الأطفال والتي لها الحظ الأكبر في العناية بهم والإشراف على تربيتهم ، فقد قال النبي ﷺ : " تخيروا لنطفكم وأنكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم " . (١)

ثانياً : وبعد اختيار البيئة الصالحة نجد أن المسؤولية نحو الاطفال تبدأ من أول يوم يتنفس فيه الوليد نسيم الحياة خارج الرحم واما يحتاجه من مطالب وما يستتبع ذلك من الأعباء . ومن أول ما يلزم الآباء حينئذ إحاطة الطفل بسياج من التعويد باسم الله حتى لا يقربه شيطان . وقد كان من هدى النبي ﷺ أن يؤذن للطفل في أذنه عند ولادته دفعا للشيطان . ثم يستتبع ذلك حق آخر هو العقيقة عن الولد وقد فعلها النبي صلى الله عليه ودعا إليها .

ثالثاً : ثم تتجه المسؤولية إلى الرعاية التامة والتربية الحسنة ، فتبدأ من أول الأشياء تعلقا بالطفل وهو الاسم . فعلى الوالدين اختيار الاسم الحسن لابنهما ، فقد أمر الرسول ﷺ باختيار الأسماء الحسنة لهم

رابعاً : وعلى الوالدين أن يشعروا أولادهم الحنان والرحمة ، كما نجد أن الشارع أمر بالعدل بين الأبناء في المعاملة.

خامساً : العناية بتربيتهم و أمرهم بكل ما هو من صالح الأمور والعبادات ، إقتضاء بقوله تعالى :

(١) . سنن ابن ماجه ، كتاب النكاح ، باب الأكفاء ، حديث رقم : ١٩٦٨ ، ص : ٢٨٢ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ . (١)

وقال الرسول ﷺ : " مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين " . (٢) وقال ﷺ : " مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين وفرقوا بينهم في المضاجع " . (٣)

ففي هذا السن وما بعده إلى سن البلوغ على الوالدين ترسيخ معنى العقيدة السليمة في نفس ابنهما وتوثيق صلته بالله . ومن أعظم ما يدل عليه ما وصى به النبي ﷺ عبدالله ابن عباس رضي الله عنهما حيث قال له : " يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف " . (٤)

فهذا الحديث الشريف يظهر لنا نموذجاً لتعليم أبنائنا في مثل هذه المرحلة ، فإن أهم شيء فيها تثبيت العقيدة السليمة في قلوبهم .

إذاً فالمسؤولية تجاه الأبناء عظيمة وكبيرة ذات أثر كبير على الأبناء في مستقبل حياتهم فقد قال ﷺ :
" كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه " (٥) . فإذا فرط فيها الأب أو الأم فلا يلومان إلا نفسيهما ، فكيف يضعانه صغيراً ثم يرجوان بره كبيراً . (٦)

٣ . المسؤولية تجاه المجتمع :

" لقد أوضح القرآن الكريم دور الفرد في النظام الاجتماعي ، فهو لا يستطيع أن يعيش منفرداً ، بل لا بد أن يكون فرداً في أسرة وفرداً في أمة ، ثم فرداً في المجتمع البشري ، ثم هو العنصر الأول الذي على عاتقه مسؤولية تكوين وتشكيل الظاهرة الاجتماعية .

ودور الفرد الاجتماعي ، يتمثل في أداء الواجبات التي فرضها القرآن الكريم ، والتي لا تقل أهمية عن الحقوق التي كفلها له القرآن الكريم ، والأفراد في ذلك متساوون ، لا فرق بين رجل وامرأة " . (٧)

(١) . سورة التحريم . آية ٦ .

(٢) . سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة ، حديث رقم : ٤٩٥ ، ص : ٨٢ .

(٣) . نفس الحديث السابق .

(٤) . سنن الترمذي ، صفة القيامة والرقائق ، باب ٥٩ ، حديث رقم : ٢٥١٦ ، ص : ٥٧٢ .

(٥) . صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المشركين ، حديث رقم : ١٣٨٥ ، ص : ٢٢٢ .

(٦) . أنظر المجتمع المتكافل في الإسلام ، لدكتور عبدالله الخياط ، ص : ١٥٣ . والمسؤولية الخلقية ، ص : ٢٥٥ .

(٧) . فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم ، تأليف : علي خليل ابو العيين ، ص : ١١٢ ط : الثانية ١٩٨٥ م

دار الفكر العربي .

وكما تحدثنا آنفاً بأن أول العلاقات تتكون بين أفراد الأسرة الواحدة داخل البيت ، ثم تتطور تلك العلاقات إلى التعامل مع الأقارب والجيران ، ثم مع المجتمع كله وذلك خارج البيت .
فالمسئولية خارج البيت تتكون من :

١. المسئولية تجاه الجار .
٢. المسئولية تجاه الاقارب .
٣. المسئولية تجاه المجتمع بأسره .

أولاً : المسئولية تجاه الجار :

يهدف الإسلام الى تكوين المجتمع الصالح . وإن أقرب الناس بعضهم ببعض في المجتمع الواحد هم الجيران . قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ . (١)

قرن الله تعالى في هذه الآية الإحسان إلى الوالدين والأقارب واليتامى والمساكين ، بالإحسان إلى الجار ، سواء كان جاراً ذا قربي في النسب أم جاراً في الجنب . فهذه الآية تدل على عظم المسئولية تجاه الجار .

فالجيران على ثلاثة أنواع :

١. جار ذو قربي : فهذا له ثلاثة حقوق : حق القرابة ، وحق الإسلام وحق الجوار .
٢. الجار الجنب المسلم غير قريب : فهذا له حقان : حق الإسلام وحق الجوار .
٣. جار على غير الإسلام : فهذا له حق واحد هو حق الجوار .

ولقد أعظم الإسلام حق الجوار ، وأكثر الوحي من الوصاية بالجار حتى ظن الرسول ﷺ أنه سيجعله وارثاً . ومما يدل على هذا قوله ﷺ " ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه " . (٢)
بل نفى الشارع الحكيم صفة الايمان عن الشخص الذى لا يأمن جاره بغيه وظلمه وتعديه . قال النبي ﷺ " والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن " قيل من يا رسول الله ﷺ ؟ قال ﷺ " الذى لا يؤمن جاره بوائقه " (٣) وقال ﷺ أيضاً " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذى جاره " . (٤)

(١) . سورة النساء . آية ٣٦ .

(٢) . صحيح البخارى ، كتاب الأدب ، باب الوصاية بالجار ، حديث رقم : ٧٠١٥ ، ص : ١٠٥٢ .

(٣) . صحيح البخارى ، كتاب الأدب ، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه ، حديث رقم : ٦٠١٦ ، ص : ١٠٥٢ .

(٤) . صحيح البخارى ، كتاب النكاح ، باب الوصاية بالنساء ، حديث رقم : ٥١٨٥ ، ص : ٩٢٦ .

ومما يؤكد عظم المؤاخذة على الإضرار بالجار أن الشارع جعله ذنباً عظيماً يمحط الأعمال الصالحة ، ويجازي عليه بالنار ، فقد قال النبي ﷺ لأصحابه : " ما تقولون في الزنا ؟ قالوا : حرام ، حرم الله ورسوله ، فهو حرام إلى يوم القيامة ، فقال ﷺ " لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره . ثم قال النبي ﷺ : ما تقولون في السرقة ؟ قالوا : حرمها الله ورسوله ، فهي حرام فقال ﷺ : لأن يسرق الرجل من عشرة آيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره " . (١)

وفي حديث آخر " قال رجل : يا رسول الله ﷺ ، إن فلانة تكثرت من صلاتها وصيامها وصدققتها ، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها ، قال ﷺ : هي في النار ، قال : يا رسول الله ﷺ ، فإن فلانة تذكر من قلة صيامها وصدققتها وصلاتها ، وأنها تتصدق بالأتوار من الأقط ، ولا تؤذي جيرانها بلسانها ، قال ﷺ : هي في الجنة " . (٢)

فعلى المسلم أن يتعد عن كل ما فيه أذى لجاره من قول أو فعل أو عمل . فحق الجار عظيم ، والمسئولية تجاهه أعظم ، فعلى المؤمن أن يتفقد أحوال جاره وأن يصله ويتصدق عليه ، ويعينه ويكرمه وأن يحسن إليه بإرادة الخير له ، وحسن العشرة معه ، وتفقد أحواله ، ونصحه ومعاونته فيما يحتاج إليه

ثانياً : المسئولية تجاه الأقارب :

إن المسئولية تجاه الأقارب تتمثل في صلة الأرحام ، والتودد لهم والإحسان إليهم ، والبر بهم وتحمل إسائتهم والصفح والعفو عن مسيئتهم وغير ذلك .

ومما يدل على هذا قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ . (٣)

ولقد أعظم الشارع من حق الرحم وصلتها ، ومما يدل على هذا قوله ﷺ : " إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرحم هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت بلى يا رب قال فهو لك " . (٤) ثم قال النبي ﷺ : " فاقروا إن شئتم : " فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ " . (٥)

(١) . رواه أحمد في مسنده عن المقداد بن الأسود ؓ ص : ١٧٨٧ ، مسند الأنصار ، حديث رقم : ٢٤٣٥٥ ، ط : بيت الأفكار الدولية .

(٢) . رواه أحمد في مسنده عن أبي هريرة ؓ ص : ٦٩٨ ، حديث رقم : ٩٦٧٣ .

(٣) . سورة الأنفال . آية ٧٥ .

(٤) . صحيح البخارى ، كتاب الأدب ، باب من وصل وصله الله ، حديث رقم : ٥٩٨٧ ، ص : ١٠٤٨ .

(٥) . سورة محمد . آية ٢٢ .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عموماً وعن قطع الأرحام خصوصاً بل وقد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال .

بل جعل الشارع صلة الرحم سبباً من أسباب سعة الرزق وطول العمر وهما من أحسن ما يتمنى المرء في هذه الحياة . ومنه قوله ﷺ : " من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره ، فليصل رحمه " (١) وليست من صلة الرحم بأن تحسن إليهم إذا أحسنوا إليك وأن تصلهم إذا وصلوك ، بل إن صلة الرحم المشروعة هي أن تصلهم حتى ولو قطعوك وتحسن إليهم حتى ولو منعوك ولم يكافئوك . ومما يدل على هذا قوله ﷺ : " ليس الواصل بالكافي ولكن الواصل إذا قطعت رحمه وصلها " . (٢)

بل نجد أن صلة الرحم تتعدى إلى أكثر من هذا ، وذلك أن يصلهم حتى ولو كانوا يسيئون إليه ويتعرضون لقطيعته .

وقد جاء في الحديث ان رجلاً قال : يا رسول الله ﷺ أن لي قرابة ، أصلهم ويقطعون ، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ ، وأحلم عنهم ويجهلون عليّ ، فقال النبي ﷺ : " لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك " . (٣)

فالأقرباء لهم حق زائد بسبب الرحم ، فهم أولى الناس بالمعروف وبذل الفضيلة قال تعالى : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ (٤) . فهذه الآية تدل بأن إنفاق المرء على الأقرباء ليس تفضلاً لأحد على أحد ، وإنما هو حق فرضه الله تعالى على المكلف ، الذي من أدائه يرى الإنسان بذمته ، ويصل المودة بينه وبين من يعطيه .

ولعل من أظهر المسؤوليات تجاه الأقرباء هي صلتهم بالعطف على محتاجهم ، والرحمة بضعيفهم ، والإحسان في معاملتهم ، وتألف قلوبهم ، وإصلاح شأنهم ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وغير ذلك من الحقوق .

(١) . صحيح البخارى ، كتاب الأدب ، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم ، حديث رقم : ٥٩٨٦ ، ص : ١٠٤٨ .

(٢) . صحيح البخارى ، كتاب الأدب ، باب ليس الواصل بالمكافئ ، حديث رقم : ٥٩٩١ ، ص : ١٠٤٩ .

(٣) . صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والأدب ، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها ، حديث رقم : ٢٢ ، ص : ١١٢٢ .

(٤) . سورة الإسراء . ٢٦ .

ثالثاً : المسؤولية تجاه المجتمع بأسره :

فالمجتمع الإسلامى بنعمة الإسلام كتلة واحدة ، وأعماله في سبيل الله تعالى وأغراضه في هذه الحياة متحدة ، فكانه كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا . كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ قال : " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وشبك بين أصابعه " . (١)

فهذا التمثيل يفيد أن المؤمن لا غنى له عن أخيه المؤمن ، كما قال النبي ﷺ : " مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " . (٢)

وفي الحديث تعظيم حقوق المسلمين والحض على تعاونهم ، وملاحظة بعضهم بعضا ، وإظهار التراحم بينهم مما يؤدي إلى اجتماع كلمتهم وقوة شوكتهم ، وإظهار دينهم .

وأظهر المسؤوليات التي تجب على الأفراد تجاه المجتمع في ضوء القرآن الكريم نلخصها فيما يلي :

١. وجوب التعامل مع الآخرين بالعدل والإحسان وحسن الخلق : قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُفَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٥) وأمر النبي ﷺ لأبي ذر رضى الله عنه بقوله : " خالق الناس بخلق حسن " . (٦)

٢. وجوب إصلاح المجتمع :

ومن خصائص النظام الاجتماعي في الإسلام تحميل الفرد مسؤولية إصلاح المجتمع ، بمعنى أن كل فرد فيه مطالب بالعمل على إصلاح المجتمع وإزالة الفساد منه على قدر طاقته ووسعه ، والتعاون مع غيره لتحقيق هذا المطلوب ، قال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٧) .

ومن أعظم التعاون التعاون على إصلاح المجتمع ، وإذا كان الفرد مطالباً بإصلاح المجتمع ، فمن البديهي أنه مطالب بعدم إفساده ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ

(١) . صحيح البخارى ، كتاب المظالم ، باب نصر المظلوم ، حديث رقم : ٢٤٤٥ ، ص : ٣٩٤ .

(٢) . صحيح مسلم ، كتاب البر والصلوة والآداب ، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ، حديث رقم : ٦٥ ، ص : ١١٣١ .

(٣) . سورة النحل . آية ٩٠ .

(٤) . سورة المائدة . آية ٨ .

(٥) . سورة الممتحنة . آية ٨ .

(٦) . سنن الترمذى ، كتاب البر والصلوة ، باب ما جاء في معاشرته الناس ، حديث رقم : ١٩٨٧ ، ص : ٤٦٠ .

(٧) . سورة المائدة . آية ٢ .

خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١﴾ (ومن القواعد الفقهية (ما حرم أخذه حرم إعطاؤه) لأن إعطاء الحرام للغير من الفساد والإفساد ، وأن المسلم إذا عجز عن الإصلاح فعلى الأقل عليه أن يمتنع من الإفساد وتكثير الفساد . (٢) كما يجب عليه الإصلاح بين أفراد المجتمع ودفع الضرر والإضرار بالآخرين في كراماتهم وحريةهم وحقوقهم ، قال تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ . (٤) وقال النبي ﷺ : " لا ضرر ولا ضرار " (٥) .

٣. وجوب التساند والتعاون :

التساند والتعاون من أوجب واجبات المسؤولية ، فهو واجب أوجبه نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية وهذا التعاون مسؤولية أخلاقية وجب على المسلمين لأن المجتمع الإسلامي مجتمع متكافل متراحم متماسك متكافئ . قال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ . (٦)

قال القرطبي في تفسير هذه الآية : " هو أمر لجميع الخلق ، بالتعاون على البر والتقوى ، أي ليعين بعضكم بعضا ، وتحاثوا على ما أمر الله تعالى واعملوا به ، وانتهوا عما نهى الله عنه ، وامتنعوا منه ، وهذا موافق لما روي عن النبي ﷺ أنه قال : " الدال على الخير كفاعله " . (٧)

وقد مثل النبي ﷺ ذلك بقوله : " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه " . (٨) والتعاون على البر والتقوى يكون بوجوه كثيرة ، فواجب العالم أن يعين الناس بعلمه فيعلمهم ، ويعينهم الغني بماله ، والشجاع بشجاعته في سبيل الله ، وأن يكون المسلمون متظاهرين كالكيد الواحدة . (٩)

وفي التعاون على البر والتقوى دعم للاتحاد والتناصر والتكافل والتواد والتراحم ، وكل هذه صفات الأمة الإسلامية ، كما في التعاون على البر والتقوى وفي الأمر به تجاوب مع واجبات المسؤولية في الإسلام . (١٠)

(١) . سورة الأعراف . آية ٥٦ .
(٢) . أنظر أصول الدعوة ، لدكتور عبد الكريم زيدان ، ص : ١٣٢ ، ط : ٣ ، ١٩٨٧م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .
(٣) . سورة الأنفال . آية ١ .
(٤) . سورة الحجرات . آية ١٠ .
(٥) . سنن ابن ماجه ، كتاب الأحكام ، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره ، حديث رقم : ٢٣٤١ ، ص : ٣٣٥ .
(٦) . سورة المائدة . آية ٢ .
(٧) . سنن الترمذى ، كتاب العلم ، ماجاء الدال على الخير كفاعله ، حديث رقم : ٢٦٧٠ ، ص : ٦٠٦ .
(٨) . صحيح البخارى ، سبق تخريجه . أنظر ص : ٥٦ .
(٩) . الجامع لأحكام القرآن ، ٦ / ٤٦-٤٧ .
(١٠) . فقه المسؤولية ، ص : ١٢١ ، المرجع السابق .

٤. الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

ومن الآيات التي ذكرت مسؤولية الإنسان عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة ، نذكر منها قوله تعالى : ﴿ وَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ . (١) وقوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ . (٣)

فقد عرفها ابن تيمية بقوله : " يدخل في المعروف كل واجب ، وفي المنكر كل قبيح ، والقبائح هي السيئات ، وهي المحظورات كالشرك والكذب والظلم الفواحش " . (٤)

وهذه الآيات تنطق عن المسؤولية التي يجب أن يتحملها كل إنسان في نشر الحق والخير في المجتمع ، لذلك امتدح الله من قام بهذه المسؤولية من أهل الكتاب كما جاء في الآية الثالثة ، واعتبرهم من الصالحين .

ولعل لصوق هذه المسؤولية بالإنسان المكلف هو الذي جعل الدم يتوجه إلى بني إسرائيل على تركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واستوى في ذلك الدم العلماء والعامة ، كما قال تعالى : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنِ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ . (٥)

إن القيام بهذه المسؤولية يدعم الفضيلة ، ويقضي على الرذيلة ، ويبني المجتمع على الخير ومدافعة الشر ، وينشئ أفراداً على مكارم الأخلاق ومحاربة الفساد ، ويحيطهم بالقوة والتمكين ، ويسعدهم بالأمن من عوامل الاضطراب وأسباب الهلاك ، لقد صور النبي صلى الله عليه وسلم أثر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع في صورة نجاة سفينة أو أوشكت على الهلاك الحتم بسبب أخذ بعض ركابها العاملين على أيدي بعض العابثين بالحدود العامة من أجل مصلحة ذاتية ، قال النبي ﷺ : " مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا

(١) . سورة آل عمران ، آية ١٠٤ .

(٢) . سورة آل عمران . آية ١١٠ .

(٣) . سورة آل عمران . آية ١١٤ .

(٤) . شرح العقيدة الأصفهانية ، لابن تيمية ، بتحقيق : إبراهيم سعيداي ، ط : الأولى ، ١٤١٥ ، مكتبة الرشد ، الرياض .

(٥) . سورة المائدة . آية ٧٨-٧٩ .

حرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا " . (١)

إن هذه الصورة توحى بأن القيام بهذا الواجب لجميع أفراد المجتمع ، وأن كل مسلم مسؤول عن حوله من أبناء المجتمع .

٥ . الإخاء والمحبة :

إن الإخاء والمحبة من دعائم أساسية في المجتمع الإسلامي ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ وقد أثبت التاريخ والواقع أن الإيمان من أقوى الروابط وأن لا عقيدة أقوى من الإسلام ، وهذه الأخوة الإيمانية رابطة عامة تربط المسلم بأخيه المسلم ، وأنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى وأدنى مراتب هذا الإخاء سلامة الصدر من الحسد والبغضاء ، كما قال تعالى في محكم تنزيله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢) . وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣) .

وقال النبي ﷺ " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا " . (٤) وكذلك مما يجب علينا تجاه المجتمع الوفاء بالعهود ، وأداء الأمانات ، وتنظيم العقود وكتابتها ، والادلاء بالشهادة الصادقة، والإصلاح بين المتخاصمين ، والشفاعة الحسنة ، والتراحم والإحسان واستثمار الأموال في سبيل الخير والعفو وغير ذلك من المسؤوليات ، ولا يستقيم أمر المجتمع ، ولا تتسق شؤونه إلا إذا قام كل فرد من الأفراد بهذه المسؤوليات تجاه المجتمع . (٥)

(١) . صحيح البخارى ، كتاب الشركة ، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه ، حديث رقم : ٢٤٩٣ ، ص : ٤٠٣

(٢) . سورة الحشر . آية ١٠ .

(٣) . سورة الحجرات . آية ١٢ .

(٤) . صحيح البخارى ، كتاب الأدب ، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابير ، حديث رقم : ٦٠٦٤ ، ص : ١٠٥٩ .

(٥) . أنظر موسوعة نضرة النعيم ، ص : ٣٤٠٦ .

المبحث الثاني : أهداف المسؤولية :

إن المسؤولية التي كلفها الله تعالى عباده ، لها أهداف عظيمة وغايات شريفة ، وأقصد بأهداف المسؤولية هنا هي الأعراض أو الغايات التي تسعى المسؤولية إلى تحقيقها والوصول إليها ، قريبة كانت أم بعيدة ، وهذه الغايات منها ما يتعلق بذات الله تعالى و منها ما يتعلق بالإنسان فرداً و جماعة . لذلك كان لزاماً عليّ أن أبين هذه الأهداف في ضوء القرآن الكريم حتى تتضح الصورة أمام الجميع ونعلم جميعاً الصراط المستقيم الذي يجب علينا إتباعه ، وحتى نتحرك جميعاً تجاه هذه الأهداف بقوة و فعالية ، فالإنسان عندما يسعى لتحقيق هدف محدد ، ينشط كلما اقترب منه خطوة ، وكلمة حقق جزء منه ازداد فرحاً و سروراً و تصميماً على مواصلة العمل في سبيل تحقيق باقي الأهداف . وقد قسمت فيما يلي هذه الأهداف إلى قسمين ، الأهداف العامة والأهداف الخاصة . والآن اذكر كل من هذه الأهداف بالتفصيل .

١ . الأهداف العامة :

١ . تحقيق العبودية :

ويتمثل هذا الهدف العام للمسؤولية في تحقيق معنى العبودية لله تعالى ؛ انطلاقاً من قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (١) . فالهدف الأساسي لوجود الإنسان في الكون هو عبادة الله ، والخضوع له ، وتعمير الكون ؛ بوصفه خليفة الله في أرضه .

وحقيقة العبودية هي التوحيد ، بأن يكون العمل خالصاً لله تعالى دون سواه ، فقد دعا كل رسول أمته إلى عبادة الله وحده ، واجتناب ما سواه ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ ﴾ (٢) .

والعبودية لله تعالى لا تقتصر على مجرد أداء شعائر ومناسك معينة : كالصلاة ، والصيام ، والحج - مثلاً - وإنما هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة .

فالإنسان الذي يريد أن يتحقق معنى العبودية ، هو الذي يخضع لأوامره سبحانه تعالى ورضائه ، سواء ذلك يتعلق بالإعتقادات ، أو الأقوال ، أو الأفعال ؛ فهو يخضع حياته وسلوكه جميعاً لهداية الله وشرعه و يلتزم بأوامره سبحانه وتعالى ، فيأتي منها ما استطاع ، ويتزجر عن نواهيه سبحانه فلا

(١) . سورة الذاريات . آية ٥٦ .

(٢) . سورة النحل . آية ٣٦ .

يقربها ؛ تصديقاً لقوله ﷺ : " إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن أمر فاجتنبوه " . (١)

فالمسلم دائماً إذا أمره الله تعالى أو نهاه ، أو أحل له ، أو حرم عليه كان موقفه في ذلك كله : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (٢) . وهذا هو الهدف العام الذي يسعى وراءه الإنسان من خلال تحمل المسؤوليات المختلفة .

٢. مرضاة الله تعالى :

ومن أهم الأهداف المسؤلية نيل مرضاة الله تعالى ، ويتخذ المسلم في قيام المسؤوليات المختلفة مرضاة الله تعالى هدفاً له مقتدياً بنبي الله سليمان عليه السلام حين دعا ربه أن ينال على عمله الصالح رضاه ، كما حكى القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأُدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٣) ، ويستنهض هذا الهدف في المسؤلية همة الإنسان لإتباع منهج الله في الحياة الدنيا ، والتنعم بهدايته الذين لا سبيل إليهما إلا بالتزام أمر الله ، قال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٤) .

وينال المسلم بتحقيق هذا الهدف في عمله الأجر العظيم الذي هو دليل على أنه مقياس في خيرية الأعمال ، قال تعالى : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٥) . ويحصل به العامل على درجة عالية عند الله تعالى ، لا يصل إليها من بآء بسخطه سبحانه وتعالى ، قال تعالى : ﴿ أَفَمَن اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (٦) .

وهكذا يسهم هذا الهدف في توحيد غاية الناس في أعمالهم وحملهم على اتباع شرعه سبحانه وتعالى ، ويؤمله للجزاء الأوفى في الآخرة ، و إذا جعل الإنسان نيل مرضاة الله هدفاً له في الحياة فقد نال بغاية

(١) . أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة ، باب الإقتداء بسنن رسول الله ﷺ ، رقم الحديث : ٧٢٨٨ ص : ١٢٥٣ .

(٢) . سورة البقرة . آية ٢٨٥ .

(٣) . سورة النمل . آية ١٩ .

(٤) . سورة المائدة ، آية ١٥ ، ١٦ .

(٥) . سورة النساء . آية ١١٤ .

(٦) . سورة آل عمران . آية ١٦٢ ، ١٦٣ .

سامية تمكنه من الإرتقاء ما لا نهاية ، فيبقى رضا الله تعالى وحده الهدف الأعلى المعبر في المسؤولية عن أي عمل يفعله الإنسان ، لأن الله تعالى عاب المنافقين بجانبهم لهذا الهدف ، فقال تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾ . (١)

٣. السعادة :

السعادة مقصد الإنسان في عمله ، وهدف له في تحمل المسؤوليات المختلفة . والسعادة في القرآن كما دلت عليها آيات كثيرة لا تتحقق إلا بالإيمان الصحيح والعمل الصالح ، كما قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . (٢) . ويدخل في الإيمان بالله تعالى كل ما يتعلق بالمسؤولية الإعتقادية ، ويدخل في العمل الصالح كل ما يتعلق بالمسؤولية السلوكية والأسرية والاجتماعية كما ذكرنا سابقا .

والمؤمن الذي يحقق بعمله الصالح سعادتي الدنيا والآخرة يبقى هدفه الأساسى هي السعادة الأخروية ، لأن سعادة الدنيا محدودة وقليلة ، وسعادة الآخرة دائمة ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ . (٣)

ثم إن سعادة الآخرة هي غاية قصوى من تحمل المسؤولية في الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٤) ، قال القرطبي : " الذي عليه أكثر أهل العلم أن المراد بالحسنتين نعم الدنيا والآخرة " (٥) . وكان أكثر دعوة يدعو بها النبي ﷺ " اللهم آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار " (٦) ، إلى غير ذلك من نصوص القرآن والسنة .

والطريق إلى السعادة يتطلب الإلتزام بعقائد الإسلام الصحيحة وأحكامه وتحمل المسؤولية سواء هي متعلقة بجانب الإعتقاد ، أو بجانب السلوك من الصلاة والصوم والزكاة والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك ، أو سواء متعلقة بأداء حقوق الأسرة والمجتمع كما ذكرنا في أنواع المسؤولية . وهذه هي الأسباب الرئيسية لنيل السعادة .

(١) . سورة التوبة . آية ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) . سورة النحل . آية ٩٧ .

(٣) . سورة النساء . آية ٧٧ .

(٤) . سورة البقرة . آية ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(٥) . الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي ، ٢ / ٤٣٢ ، ط : دار إحياء التراث ، بيروت . ١٩٨٥م - ١٤٠٥هـ .

(٦) . أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والإستغفار ، باب فضل الدعاء باللهم آتنا في الدنيا

حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، رقم الحديث : ٢٦ ، ص : ١١٧١ .

والأدلة من القرآن والسنة تؤيد هذه الحقيقة بصورة واضحة . كما قال تعالى : ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١) ، وكان الرسول ﷺ يجد راحته ولذته في الصلاة والطاعة ، كان يقول : " أقم الصلاة يا بلال ، أرحنا بالصلاة " . (٢)

و كما قال ابن القيم : (٣) : " أنه امتثال لأمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاذة فليس للعبد في دنياه وأخرته أنفع من إمتثال أوامر ربه تبارك وتعالى وما سعد من سعد في الدنيا والآخرة إلا بإمتثال أوامره وما شقى في الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره " . (٤)

٤ . هيمنة المعروف :

يعد هذا الهدف من أهم أهداف المسؤولية ، إذ تتعلق به حياة الإنسان وأخرته ، وتتوقف عليه سعادة الفرد والمجتمع . والإسلام يتجه في تشريعاته كلها إلى ما يصلح الجماعة ويسعدها ، ويكلف أتباعه بأحكام تربي قلوبهم وترشد عقولهم ، لذا فإن المتأمل في أركان الإسلام التعبدية يجدها قاصدة هذه الغاية .

فالصلاة عبادة تمذب النفوس ، وتربي روح المساواة والأخوة بين المسلمين ، وتنهاي عن الفحشاء والمنكر ، كما قال تعالى : ﴿ ائْتِ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ . (٥)

والزكاة فريضة تغرس في نفوس أفراد المجتمع مشاعر العطف والحنان ، وتقيم علاقاتهم على التعاون بينهم ، وتعمل على كفاية محتاجهم ، وتجرد نفوسهم من الشح والبخل كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ . (٦)

(١) . سورة المائدة . آية ٦٩ .

(٢) . أخرجه أبوداؤد في سننه ، في كتابات الأدب ، باب في صلاة العتمة ، رقم الحديث : ٤٩٨٧ ، ص : ٧٠٢ .

(٣) . هو الإمام شمس الدين أبوعبد الرحمن بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي الفقيه الحنبلي الشهير بابن القيم الجوزية ولد عام ٦٩١ هـ كان بارعا في عدة علوم ما تفسير وفقه وعربية وحديث وله مؤلفات كثيرة منها : مدارج السالكين ، زاد المعاد في هدي خير العباد ، إعلام الموقعين عن رب العالمين ، توفي عام ٧٥١ هـ انظر : النجوم الزاهرة ١٠/٢٤٩ وشذرات الذهب ٦/١٦٨ .

(٤) . كتاب الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، لابن القيم ، تقديم : الدكتور محمد جميل غازي ، فصل : دواء اللواط ، ص : ٢١٩ ، ط : الثانية . مطبعة المدني ، بمصر .

(٥) . سورة العنكبوت . آية ٤٥ .

(٦) . سورة البقرة . آية ٢٦٢ .

والصوم عبادة تسمو بروح المسلم ، وتزيده إيمانا ، وتملأ قلبه رحمة ومواساة على من دونه من المحتاجين ، والحج عبادة تحقق مظهر الأخوة والوحدة والاجتماع على الخير ، وهكذا كل العبادات تسهم في تحقق هذه الغاية .

وتجري المسؤولية في استهداف هيمنة المعروف في المجتمع ، وفشو الفضيلة فيه ، بإلزام الناس بقيام المسؤوليات المختلفة مثل الأمر بالمعروف ، والدعوة إلى الفضيلة ، وإصلاح المجتمع بأداء حقوقه كالصدق والبر والعدل والتواضع والرحمة والوفاء والعفة وصلة الرحم ورعاية الجار وإصلاح ذات البين ، وغير ذلك من الحقوق ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٢) ، وقال تعالى ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٣) .

كما تستهدف المسؤولية لهيمنة المعروف ، إقامة الروابط الاجتماعية بين أفراد المجتمع على العدل والمودة والرحمة ، لذلك جاء التشريع ناهياً عن كل ما يؤدي إلى تقطيع الروابط مثل سخرية ، وتنازير بالألقاب ، وسوء ظن ، وتجسس وغيبة وتنازع وتباغض وتحاسد وتدابر وغيرها من الأسباب ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءِ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٤) .

إن جميع المسؤوليات ذات الصفة الاجتماعية من محبة الآخرين والإحسان إليهم ومناصرة المظلوم وحماية الضعفاء ورعاية مصالحهم والسعى إلى طهارة المجتمع من الفساد ، مستهدف فيها تحقيق التعاون على البر ، كما قال تعالى ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ (٥) .

(١) . سورة آل عمران . آية ١٠٤ .

(٢) . سورة الحجرات . آية ١٠ .

(٣) . سورة الحج . آية ٧٧ .

(٤) . سورة الحجرات . آية ١١ .

(٥) . سورة النساء . آية ٣٦ .

٥. النجاة من العقاب الالهي :

لقد جرت سنة الله عز وجل في عباده أن يعاملهم بحسب أعمالهم ، فإذا اتقى الناس ربهم عز وجل ، أنزل الله عز وجل عليهم البركات من السماء ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ . (١)

وإذا تمردوا عن أمر ربهم ، وأهملوا مسؤولياتهم ، أتاهم العذاب كما قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ . (٢)

والقرآن الكريم ، حين يعرض لنا مآل تلك القرى الظالمة ، ويقرر أن ما أصابهم ، هو بسبب ما اقترفته أيديهم ، من التمرد والجحود ، وعدم تحمل المسؤولية ، حين يعرض القرآن ذلك كله ، فهو إنما يخاطبنا نحن الحاضرين ، و يحذرنا بأن لا نقع في ذات الخطأ ، الذي وقعوا فيه ، حتى لا نتعرض لعذاب الله الشديد .

فقيام الأفراد بمسؤولياتهم ، ينجيهم وينجي المجتمع من الهلاك الجماعي . لذا نرى أن المجتمع الذي يشيع فيه المنكر ، وتنتهك فيه حرمة الله ، وينتشر فيه الفساد ، ولا يقوم فيه أحد بمسؤوليته ، فإن الله تعالى يعمهم بمحن غلاظ ، تعم الجميع ، وتصيب الصالح والطالح ، وهذه السنة تدفع مباشرة من كان عنده علم أو فقه إلى المسارعة فوراً لتحمل مسؤولية إنكار المنكر دفعاً للعذاب و العقاب عن نفسه وعن مجتمعه ، كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ . (٣) قال القرطبي : المقصود من الآية ، واتقوا فتنة تتعدى الظالم فتصيب الصالح والطالح . (٤)

وقال ابن كثير : يحذر الله تعالى عباده المؤمنين فتنة أي اختباراً ومحنة يعم بها المسيئ وغيره لا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب بل يعمها . (٥)

وهذه هي الأهداف العامة التي يدعوا إليها القرآن الكريم المؤمن ، ويأمره إلى الترفع في سيره إلى مستوى هذه الأهداف ، وعلى المؤمن أن يتحرك في مجالات حياة المختلفة حريصاً على تحقيقها ، مهما كلف من جهد ، شاعراً بعظم المسؤولية .

(١) . سورة الأعراف . آية ٩٦ .

(٢) . سورة النحل . آية ١١٢ .

(٣) . سورة الأنفال . آية ٢٥ .

(٤) . الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي ، ٧ / ٣٩٣ .

(٥) . تفسر القرآن العظيم ، لابن كثير ، ص : ٨٣١ ، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م ، دار ابن حزم ، بيروت .

٢. الأهداف الخاصة :

١. بناء الإنسان الصالح :

إن من أهم أهداف المسؤولية الخاصة هو بناء الإنسان الصالح ، والإنسان الصالح هو المسلم الصالح ، والمؤمن التقى ، وإذا استقرأنا نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة في هذا الصدد ، تحصل لنا مواصفات هذا الإنسان وأنه العليم بالله ، الخائف من ربه ، العارف بمسئليته ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٢) . فالذين وصفتهم هذه الآيات هم المؤمنون الذين أنزلت الشريعة من أجل بنائهم وإنشائهم ، وأرسل الرسول من أجل تربيتهم وتزكيتهم ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣) .

وللوصول إلى الكمال الإنساني ، وتكوين الإنسان الصالح تفتح المسؤولية للإنسان ميادين مختلفة ، وكل ذلك لأن يشغل الإنسان الطاقة في البر ، ولأن يصل إلى منتهى الكمال المقدر له . وفرضت للقيام بحق الله تعالى عبادات مختلفة على كل مكلف كالصلوات الخمس في اليوم واللييلة ، وصيام شهر في العام ، وزكاة واجبة للأموال ، وحج واحد في العمر ، كما فرضت في التعامل وجوب رد الجميل ، ومقابلة الإحسان بالإحسان ، و معاملة الناس على النحو الذي يجب الإنسان أن يعامل به هو . وكل ذلك لتحقيق الهدف والغاية التي نحن بصدددها ، الإنسان الصالح . ولا يكون هذا الفرد صالحاً إلا إذا اتصف بما يأتي :

١ - صدق الإيمان بالله سبحانه وتعالى وبرسالته وتكريس النفس لعبادته وتوحيده عملاً بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤) . وقوله جل وعلا : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٥) . وهذه التشنئة العقدية الصحيحة تعين أبناء المجتمع المسلم ؛ لإعداد الإنسان الصالح الذي يعبد الله تعالى على هدى وبصيرة .

٢ - صدق الإنتماء إلى أمة الإسلام الذي يحمل الفرد على الاعتزاز بهذه التسمية والجهربها ، والعمل

(١) . سورة الحج . آية ٣٥ .

(٢) . سورة الأنفال . آية ٢ .

(٣) . سورة الجمعة . آية ٢ .

(٤) . سورة الأنعام . آية ١٦٢ .

(٥) . سورة الذاريات . آية ٥٦ .

والجهاد لتكون أمتة أعز الأمم ، عملاً بقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . (١)
 ٣- صدق الموالاتة في الله والمعاداة فيه بأن يكون المسلم أخاً للمسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ،
 ولا يسلمه . عملاً بقوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ . (٢)
 ٤ - أن يتخلق الفرد في المجتمع المسلم بالأخلاق الحميدة مقتدياً في ذلك برسول الله ﷺ ، الذي شهد
 له ربه سبحانه بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ . (٣)
 ٥ - الشعور بالانتماء إلى مجتمعه ؛ فيهتم بقضاياهم وهمومهم ، ويرتبط بإخوانه ؛ عملاً بقوله تعالى :
 ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٤) ، وقوله ﷺ : " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً " (٥) ،
 وقوله ﷺ : " ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه
 عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " . (٦)

٢. بناء الأسرة الصالحة :

وتستهدف المسؤولية بعد بناء الإنسان الصالح ببناء الأسرة الصالحة . لتحقيق هذه الغاية جاءت أحكام
 وتشريعات حاسمة لا يجوز التفريط فيها ، بل إن في التفريط فيها اختلالاً في حياة الأسرة والمجتمع
 كله ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ . (٧)
 ولهذا نجد في القرآن الكريم سورا تكثر فيها أحكام الأسرة وآدابها ، كما في سورة البقرة ، والنساء ،
 والنور ، والأحزاب ، والمجادلة ، والطلاق ، وغيرها من السور التي يذكر فيها شيء مما يتعلق
 بالأسرة ، من ذكر أب ، وأم ، وأخ ، وزوج ، وامرأة وغير ذلك . وفي العناية الربانية بنظام الأسرة
 في سور شتى من القرآن العظيم ، الدلالة الواضحة على أن الأسرة في الإسلام ، هي أصل المجتمع
 الإسلامي وجذره ، وأنه لا يقوم هذا المجتمع بدونها .
 وتستهدف المسؤولية الأسرية لبناء الأسرة الصالحة على الدعائم الآتية :

-
- (١) . سورة المنافقون . آية ٨ .
 (٢) . سورة التوبة . آية ٧١ .
 (٣) . سورة القلم . آية ٤ .
 (٤) . سورة الحجرات . آية ١٠ .
 (٥) . أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الصلاة ، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره ، رقم الحديث : ٤٨١
 ص : ٨٣ .
 (٦) . أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأدب ، باب رحمة الناس والبهائم ، رقم الحديث : ٦٠١١ ،
 ص : ١٠٥١ .
 (٧) . سورة التحريم . آية ٦ .

١. حسن العشرة بين الزوجين ، وتبادل الحقوق والواجبات بين الزوجين بالمعروف ، كما قال تعالى ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (١) ، والقيام بالواجبات وأداء الحقوق والتعاهد على التربية.

٢. تكليف الزوج القوامة والإشراف والمسؤولية عن الأسرة : قال تعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ . (٢)

٤. تكليف الزوجة الإشراف والمسؤولية عن البيت من الداخل : " كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، والإمام راع ومسؤول عن رعيته والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيته والحادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته " . (٣)

٥. وجوب رعاية الأولاد من الأبوين ، بأن يبني الأبوان شخصية أبنائهم على أساس العقيدة الصحيحة والإعتزاز بمبادئهم و تراث أمتهم ، محاطين بالإيمان والهدى والخير والفضيلة ، أقوياء في مواجهة المؤثرات المحيطة بهم ، لا ينهزمون أمام الباطل ، ولا يضعفون أمام التيارات الفكرية الزائفة . قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنِيَّتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَعَلِمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ . (٤)

هذا هو الهدف الثاني من المسؤولية لكي لا تفسد بنية الأسرة ، ويتخلخل بناءها ، وتتقطع أواصر القرابة، وينشأ الأبناء نشأة فاسدة ، بذلك يتحقق الأمل المنشود ، ويتجدد المجد المفقود ، وما ذلك على الله بعزيز .

٣. بناء المجتمع الصالح :

والغاية الثالثة من المسؤولية هي إقامة المجتمع الصالح ، والمجتمع الذي نعينه هنا هو المجتمع القائم بأمر الله تعالى ، المقيم لحدوده ، الذي جعل الدنيا مزرعة الآخرة ، والذي يتراحم أفراده ويتعاطفون ، وتتألف قلوبهم وتجتمع جهودهم على محبة الله ورضوانه ، ويكون دين الله ظاهراً فيه ، و يكون فيه كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

وقد وعد الله تعالى عباده المؤمنين الذين يقومون بمسئولياتهم ، أن يستخلفهم في الأرض ، ويمكن لهم دينهم ، ويبدلهم من بعد خوفهم أمنا ، قال تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

(١) . سورة البقرة . آية ٢٢٨ .

(٢) . سورة النساء . آية ٣٤ .

(٣) . أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الجمعة ، باب الجمعة في القرى والمدن ، رقم الحديث : ٨٩٣ ، ص : ١٤٤ .

(٤) . سورة الأنفال . آية ٢٧ ، ٢٨ .

لَيْسَتْخَلِفَتْهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمْكِنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ
وَلَيَكِيدَنَّ لَهُمْ مَنْ بَعْدَ خَوْفِهِمْ أَمَّا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴿١﴾ . (١)

وقد دل كتاب الله وسنة الرسول ﷺ على وجوب إقامة هذا المجتمع الصالح ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ
الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (٢) . وقال
تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ
أَمَّنْ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٣) ، أي فكأن الله تعالى لم
يخرج هذه الأمة إلا لتؤمن بالله وتدعوا إليه وتأمر بالخير وتنهى عن الفحشاء .

ومما سبق يمكننا أن نبرز هنا سمات هذا المجتمع المثالي الذي أشار إليه القرآن والسنة مما يأتي :

١. صحة العقيدة : وهذا عن طريق الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء
والقدر .. وما يستلزمه من عبادات ومعاملات . كما قال تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ
قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ (٤) .
٢. التعاون والتكافل الاجتماعي ، وتثبيت الفضائل الخلقية كلها في شتى جوانب الحياة ، ونشرها
وحمايتها ، من العدل ، والإحسان ، والبر والصلة ، والتعاون على البر والتقوى ، ورعاية الأمانة
والوفاء بالعهد ، وطهارة القلب من الغل والحسد ، والرياء والنفاق وغير ذلك ، وكلها من الركائز
المعنوية التي لا يقوم مجتمع مسلم إلا عليها .
٣. تهذيب النفس الإنسانية وترويضها ، وفتح سبل الخير والحق له . وهذا عن طريق الصلاة ،
والزكاة ، والصوم ، والحج للمستطيع ، والصبر في جميع الأحوال .
٤. إيجاد الأمة الصالحة القائمة بأمر الله سبحانه وتعالى والمستخلفة لهداية الناس وقيادة الدنيا عملاً
بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٥) .
٥. الموالاتة في الله والتآخي والتعاطف والتراحم حتى تكون الأمة كالجسد الواحد إذا اشتكى منه
عضو تداعى له سائر الجسد بالحمل والسهر . والتخلص من العصبية الجاهلية ، والطائفية والمذهبية ،
وكل ما من شأنه أن يمزق الأمة ويضعف بناءها ، إقتضاء بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ

(١) . سورة النور . آية ٥٥ .

(٢) . سورة الصف . آية ٩ .

(٣) . سورة آل عمران . آية ١١٠ .

(٤) . سورة البقرة . آية ١٧٧ .

(٥) . سورة آل عمران . آية ١٠٤ .

فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٢﴾ .

وهذا هو المجتمع الصالح الذي تربط أفرادَه وأسرَه بقيم الإسلام العليا ، ومبادئه المثلى ، ويجعلها رسالة حية، وهذا هو الهدف الثالث من المسؤولية . وهذا هو الهدف الذي يجب علينا أن نسعى لتحقيقه ، فإذا فرطنا فيه تشيع المنكرات ، وتبرز الخصومات ، وتفقد الأمانة وينتشر الظلم ، ويختل الأمن ، ويحل غضب الله على العباد ، فيمنعوا البركة من السماء ، ويعيش الناس أزمات يأخذ بعضها برقاب بعض ، فمن أزمات اجتماعية إلى الإقتصادية ، أو سياسية أو صحية وما إلى ذلك - والعياذ بالله - .

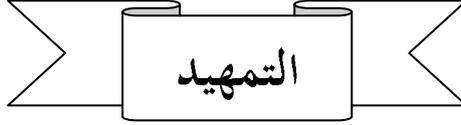
(١) . سورة الحجرات . آية ١٠ .

(٢) . سورة الحجرات . آية ١٣ .

الباب الثاني

التمهيد

- * ربط الجزاء بالمسؤولية
- * الجزاء لغة واصطلاحاً
- * خصائص الجزاء في القرآن الكريم



علاقة الجزاء بالمسؤولية :

يعد الجزاء هو النتيجة المترتبة على قيام الإنسان بمسؤولياته أو مخالفته لها . وحدد القرآن الجزاء بقدر المسؤولية مع إيثار جانب الرحمة والعفو ومضاعفة الحسنة . قال تعالى : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ . (١)

فعندما يوجه الله تعالى إلينا أمره فهو يلزمنا ، فإن استجبنا وخضعنا لأمره ولبينا نداءه ، نكون قد تحملنا مسؤوليتنا التي يترتب عليها الجزاء الحسن . وإن كان موقفنا أمام نداء الله تعالى وأمره ومخاطباته لنا التمرد والعصيان والمخالفة ، ترتب على ذلك الجزاء السيئ ، فالمطيع لأمر الله تعالى والقائم برعايته يجزيه الله تعالى ثوابا حسنا ، والعاصي لأمر الله تعالى المخالف لطاعته يعاقبه الله بالعقاب الأليم .

وبذلك يتبين أن الجزاء أمر مرتب على المسؤولية وسبب ناشئ منها . فالمسؤولية والجزاء معناهما متلازمان تتداخل حقائقهما وتتألف معالمهما لما بينهما من علاقة وثيقة ، الأمر الذي يجعل كل من يتناول موضوع المسؤولية بالحديث لا بد أن يتناول الجزاء المرتب عليها ، لأن التلازم بينهما ثابت لا يفصل .

وهكذا فإن الله تعالى قد ربط المسببات بالأسباب ربطاً محكماً ، ومنها الجزاءات على اختلاف أنواعها، لتكون عاقبة للأعمال ، لا تغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلا بثواب أو عقاب ، وذلك ليقوم الناس بالعدل ، وتتهياً نفوسهم للتكليف والسؤال ، وتحقق العبودية لله تعالى ، ويوفى كل نصيبه غير منقوص .

لذلك لا بد الآن تحديد معنى الجزاء وحقيقته وأنواعه والآثار المترتبة للجزاء في حياة الفرد والجماعة . وإليك تفصيل هذا الموضوع في الفصول القادمة .

(١) . سورة الأنعام . آية ١٦٠ .

الجزء لغة واصطلاحاً :

الجزء لغة :

الجزء مصدر ، ترجع مادته إلى الجيم والزاي والياء : جزى (١) ، ويدور استعماله على معان ، هي :
١. المكافأة على الشيء ، يقال : جزاه به ، وعليه جزاء ، وجزاه مجازة وجزاء . ومنه قول الحطيئة :
" من يفعل الخير لا يعدم جوازيه " إذ جوازيه جمع جاز ، أي لا يعدم جزاء عليه ، ويستعمل هذا المعنى في الثواب والعقاب .

٢. الكفاية ، يقال : جزى الشيء يجزي ، بمعنى كفى .

٢. القضاء ، يقال ك جزى عنك الشيء ، بمعنى قضى .

٣. الغناء ، جزيت فلاناً بما صنع جزاء أي أغنيته . (٢)

وهي معان متقاربة في المدلول ، كل منها يعني مقابلة لشيء سابق ، إما على سبيل الإحسان والثواب أو على الإساءة والعقاب .

معاني الجزء في القرآن الكريم :

ورد الجزء في القرآن الكريم على ستة أوجه على جميع المعاني اللغوية المتقدمة :

الأول : بمعنى المكافأة والمقابلة ، قال تعالى : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴾ . (٣)
أي تقابل .

الثاني : بمعنى الأداء والقضاء : يقول الله تعالى : ﴿ وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ (٤)
أي لا تقضى ولا تؤدى .

الثالث : بمعنى الكفاية ، قال تعالى : ﴿ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ
وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ . (٥)

الرابع : بمعنى العوض والبدل ، قال تعالى : ﴿ فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ﴾ . (٦)

(١) . معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس ، بتحقيق و ضبط عبدالسلام هارون ، ١ / ٤٥٥ .

(٢) . لسان العرب ، لابن منظور ١ / ٤٣ - ١٤٦ . وأنظر أيضاً القاموس المحيط ، للفيروزآبادي ، ص : ١١٦٨ بإعداد وتقديم : محمد عبدالرحمن المرشلي ، ط : الثانية ، ١٤٢٤هـ ، دار إحياء التراث العربي . بيروت .

(٣) . سورة الليل . آية ١٩ .

(٤) . سورة البقرة . آية ٤٨ .

(٥) . سورة لقمان . آية ٣٣ .

(٦) . سورة المائدة . آية ٩٥ .

الخامس : بمعنى ثواب الخير والشر . قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ . (١)

السادس : بمعنى الجزية وهي الخراج الذي يؤخذ من أهل الذمة وتسميتها بذلك للاحتزاء بها في حقن دمهم ، قال تعالى : ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ . (٢)
ومما يلاحظ أنه لم يرد في القرآن الكريم إلا جزى دون جازى وذلك أن المجازاة هي المكافأة وهي المقابلة من كل واحد من الرجلين والمكافأة هي مقابلة نعمة بنعمة هي كفؤها ونعمة الله تعالى ليست من ذلك ولهذا لا يستعمل لفظ المكافأة في الله ﷻ . (٣)

الجزاء اصطلاحاً :

ومن كل ما تقدم نعلم أن الجزاء يندرج تحته أمران : الثواب والعقاب ، ويقصد بالثواب : ما يرجع إلى الإنسان من خير أو شر جزاء على عمله ، ويكثر استعماله فيما يرجع من خير ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابٌ ﴾ . (٤)
ويقصد بالعقاب : ما يجازى به الإنسان من عذاب على فعل السوء ، ويختص بالعذاب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ ﴾ . (٥)

التعريف المختار :

إذاً الجزاء ينقسم بحسب النوع إلى ثواب وعقاب ، وأن الثواب هو الجزاء الحسن على فعل الحسنات وترك السيئات . وأن العقاب هو الجزاء السيئ على التفريط في فعل الحسنات واقتراف السيئات والجزاء بنوعيه ثواباً وعقاباً يشمل كل جزاء يترتب على فعل الإنسان في كل وقت .

(١) . سورة غافر . ١٧ .

(٢) . سورة التوبة . آية ٢٩ .

(٣) . بصائر ذوي التمييز ، للفيروزآبادي ، ٢ / ٣٨٠ - ٣٨٢ ، ط : المكتبة العلمية ، بيروت ، لبنان . والمفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصبهاني ، ص : ٩٣ ، الناشر : أصح المطابع بكراتشي .

(٤) . سورة آل عمران . آية ١٤٨ .

(٥) . سورة ص . آية ١٤ .

خصائص الجزاء في القرآن الكريم :

كل من أمعن النظر في الجزاء الذي أعده الله تعالى لكل ما يصدر من الإنسان المكلف المسؤل وما يترتب على عمله من ثواب أو عقاب يتضح له بأنه يمتاز بعدة خصائص تتميز عن كل الجزاءات التي كانت من نتاج العقول البشرية على وجه الأرض ، و من أبرزها :

١. العدل والرحمة :

فهما أساس الجزاء الالهي كما يظهر من نصوص القرآن والسنة . وسوف أقوم فيما يلي بعرض الأدلة القرآنية التي تقرر وتؤكد كلا منهما على حدة .

أ . العدل :

إن الله تعالى هو العدل . فلما كان هو العدل و أقام نظام الكون على العدل ، كما قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ (١) ، وجعل شريعته عدلا ، فلا غرو أن جعل العدل شأنه في جزاء عباده على أعمالهم في الدنيا والآخرة . فالعدل وما يشتق منه العدالة والمعادلة يفيد معنى المساواة أي المساواة في المكافأة إن خيرا فخير وإن شرا فشر . ولقد جاءت الآيات البيّنات في كتاب الله تعالى تؤكد ذلك تأكيدا صريحا يقول تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٢) ، يخبر الله تعالى أنه لا يظلم أحداً من عباده يوم القيامة مثقال حبة من خردل ولا مثقال ذرة بل يوفيهما له و يضاعفها أن كانت حسنة اضعافاً كثيرة ، ففاعل الخير يوفيه الله تعالى ثواب أعماله لا ينقصه منها شئ أبداً تحقيقاً لوعده تفضلاً منه وإحساناً وكرماً سبحانه وتعالى : قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ (٣) ، يذكر الله عزوجل أنه يتقبل الأعمال الصالحة من عباده وأنه سيدخلهم الجنة ولا يظلمهم ولا ينقصهم من حسناتهم ولا مقدار النقيير ، وهو النقرة في ظهر النواة . كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزُكُّونَ مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (٤) .

(١) . سورة الرحمن . آية ٧ .

(٢) . سورة النساء . آية ٤٠ .

(٣) . سورة النساء . آية ١٢٤ .

(٤) . سورة النساء . آية ٤٩ .

ب . الرحمة :

إن الله سبحانه وتعالى سمي نفسه رحمان ووصف نفسه بالرحيم والإسمان الجليلان مأخوذان من الرحمة . يقول الراغب : " والرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة نحو : رحم الله فلانا . وإذا وصف به الباري فليس يراد به إلا الإحسان المجرد دون الرقة وعلى هذا روي أن الرحمة من الله إنعام وإفضال ومن الآدميين رقة وتعطف . (١)

وقد وصف الله نفسه بالرحمن الرحيم وجمع بينهما في آية البسملة التي جعلها سبحانه مفتوح كل سورة من سور القرآن الكريم . وذكر القرآن الكريم في أماكن كثيرة بأن الله أرحم الراحمين على لسان كثير من الأنبياء عليهم السلام ، كما قال على لسان موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ لِّمَنْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) ، يخبر الله تعالى أنه مالك السموات والأرض ومن فيها وأنه قد كتب على نفسه المقدسة الرحمة كما ثبت في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن الله لما خلق الخلق كتب كتابا عنده فوق العرش أن رحمتي تغلب غضبي " . (٤)

ويقول الطبري : وقوله كتب على نفسه الرحمة يقول : إخبار منه سبحانه بأنه رحيم بعباده لا يعجل عليهم بالعقوبة . ويقبل منهم الأنابة والتوبة وهذا من الله تعالى ذكره استعطاف للمعرضين عنه إلى الإقبال إليه بالتوبة . (٥)

وكثيرا ما يقرن الله تعالى في القرآن بين كونه شديد العقاب وبين كونه غفور الرحيم مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٦) ، وإذا تدبرنا في الجزاء الإلهي نجد أن رحمة الله تعالى تحيطه وتطبعه في كل جانب من جوانبه وتمثل جوانب الرحمة في الجزاء الذي رتبته الله تعالى لعباده على أعمالهم فيما يأتي :

أولاً : أن الله يجزي المحسن على إحسانه والمسيئ على إساءته وأعد ذلك ترغيباً في الخير وترهيباً من الشر حتى يندفع الفساد ويعم الخير والصلاح .

(١) . المفردات في غريب القرآن ، ص : ١٠٠ .

(٢) . سورة الأعراف . آية ١٥١ .

(٣) . سورة الأنعام . آية ١٢ .

(٤) . صحيح مسلم ، كتاب التوبة ، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه ، رقم الحديث : ١٤ ، ص : ١١٩٢ .

(٥) . الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي ، ٦ / ٣٩٥ .

(٦) . سورة الرعد . آية ٦ .

ثانياً : أن الله تعالى لا يوأخذ عباده بمجرد الهم بالمعصية ، بل إذا هم بدون عزم وتصميم ثم ترك لوجه الله تعالى وخوفاً من عقابه كتبت له حسنة . كما قال تعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (١) .

ثالثاً : من رحمة الله تعالى في الجزاء أن جعل التوبة فرضاً وواجباً وسبباً يمحو الله به الذنوب ويغفرها . كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

رابعاً : ومن آثار رحمة الله تعالى وسعة فضله في الجزاء أن جعل الله العقوبات والحدود كفارات ما دام يتلقاها المخطئ ويتقبلها برضى وتسليم واقتناع بحكم الله تعالى .

٢. الجزاء شامل لكل الأعمال :

فقد بين القرآن بأن الله تعالى أحاط بجميع أعمال خلقه ، ما كان كبيراً منها أو صغيراً ، وجهرياً أو سرياً ، في كل لحظة وأوان ، لا يغيب عن علمه منها شئ ، ولا يغادر كتابه شيئاً منها إلا أحصاه ، وأنه أعقبها بملائكة كرام يحفظون خيرها وشرها ، فقال تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم وأمه وجميع الخلائق : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣) .

٣. العمل سبب لحصول الجزاء :

قال تعالى : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) ، أي بسبب الذي كنتم تعملونه ، كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٥) . قال القرطبي " في هذه الآية نص على أن الثواب والعقاب متعلق بكسب الأعمال ، وأن ما عدا العمل يتلاشى ، فكل أمان مجردة في نيل ثواب كريم تزول ، وكل سبب من حسب ونسب وشفاعة ومال وبنين مما لها تأثير في الحياة الدنيا ينقطع ، ليبقى العمل وحده سبباً للجزاء (٦) ، قال تعالى :

(١) . سورة الأنعام . آية ١٦٠ .

(٢) . سورة الأنعام . آية ٥٤ .

(٣) . سورة يونس . آية ٦١ .

(٤) . سورة النحل . آية ٣٢ .

(٥) . سورة البقرة . آية ٢٨١ .

(٦) . الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي ، ٣ / ٣٧٦ .

﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ (٢) . قال ابن كثير : ليس لأحد نجاة بمجرد التمني ، بل العبرة بطاعة الله سبحانه ، واتباع شرعه . (٣)

٤ . الجزاء دنيوي وأخروي :

فقد بين القرآن جزاء الله تعالى في الدنيا إجمالاً وجزاءه في الآخرة تفصيلاً ، فقال تعالى واعدأ من عمل صالحاً بالحياة الطيبة . قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٤) ، وقال تعالى متوعداً من حارب رسوله ﷺ وسعى في الأرض فساداً بعقوبة زاجرة في الدنيا كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ حِزْبِي فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٥) .

(١) . سورة النجم . آية ٣٩ - ٤١ .

(٢) . سورة النساء . آية ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٣) . تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ص : ٥٣٥ .

(٤) . سورة النحل . آية ٩٧ .

(٥) . سورة المائدة . آية ٣٣ . راجع أيضاً " كتاب المسؤولية الخلقية والجزاء عليها " ، ص : ٣٥٨ - ٣٦١ .

الباب الثاني

الفصل الأول : الجزء الإلهي في الدنيا

الفصل الثاني : الجزء الإلهي في الآخرة

الفصل الثالث : الجزء وأثره على الفرد والمجتمع

الفصل الأول : الجزء الإلهي في الدنيا

المبحث الأول : الجزء الإلهي في الدنيا للصالحين :

التمهيد :

إن الله ﷻ لم يخلق هذا الخلق عبثاً وهواً ، ولم يأمر خلقه ولم يحملهم مسؤولياتهم التي طالبهم بها وأوصاهم برعايتها إلا ليعرضهم للثواب الذي وعدهم وبشرهم به ، وللعقاب الذي أوعدهم وحذرهم منه . فكان من سنته سبحانه وتعالى في خلقه جميعاً أن يجزيهم على أعمالهم في الدنيا والآخرة إن خيراً فخير وإن شراً فشر . وكان من حكيمه سبحانه وتعالى أن شرع الجزاء بنوعيه الثواب والعقاب ليحثهم إلى فعل ما أمرهم به ويمنعهم من اقتراف ما نهاهم عنه .

وهذا هو المبدأ العام في الجزاء الدنيوي على الأعمال الخيرة تؤكد كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . قال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوفًا لِيَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُنْحَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) ، وقال قتادة (٢) : من كان الدنيا همه ونيته وطلبه جازاه الله بحسابه في الدنيا ثم يفضى إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء . وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويشاب عليها في الآخرة . (٣)

لذا المؤمن بالله تعالى المبتغى بعمله ثواب الله تعالى ومرضاته ونعيم الآخرة ، فإن الله تعالى يشبهه في الدنيا ويشبهه في الآخرة مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ * جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٤) . والآن اذكر فيما يلي أهم مظاهر الثواب في الدنيا للصالحين .

(١) . سورة هود . آية ١٥ ، ١٦ .

(٢) . هو قتادة بن دعامة بن عزيز أبو الخطاب السدوسي ، كان مفسراً وحافظاً توفي ١١٨هـ انظر : تذكرة

الحفاظ / ١١٥ .

(٣) . تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ص : ٩٥١ ، المرجع السابق .

(٤) . سورة النحل . آية ٣٠ ، ٣١ .

مظاهر الثواب :

إن الناظر في القرآن الكريم والسنة النبوية يقف على مظاهر جمّة للثواب الجزيل الذي وعد الله تعالى به وبشر بعطاءه وإفاضته على فاعل للخير والقائم على رعاية مسؤولياته التي أوصاه الله تعالى برعايتها وحفظها وتتجلى مظاهر هذا الثواب الدنيوي فيما يأتي :

١. الطمأنينة والراحة :

يظهر هذا الثواب فيما يشعر به الإنسان من طمأنينة قلبية وراحة نفسية ، وسرور يغمر الفؤاد ، وما يمتلئ به الشعور والوجدان من معاني الخير والبر والإحسان وغير ذلك من القيم السامية التي تنشأ في النفس عقب فعل الخير والقيام بالواجب والوقوف عند حدود الله وعدم معصيته ﷻ . ويعبر عنه الرسول ﷺ بقوله : " البر حسن الخلق " (١) . فالبر هو المعنى الجامع لكل خير وأمور الخير ، وإذا اكتسبها الإنسان انعكست أثارها الطيبة على نفسه وقلبه ووجدانه ، لأن فعل الخير ينير نفس الإنسان ويزكي قلبه ، ويقوى عزيمته ويدفعها إلى المسابقة والمسارة إلى فعل الخير والإمساك عن أقتراف الشر .

وكل عبادة يأمرنا الله تعالى تثمر ثمرة التقوى ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢) ، كما ذيل فريضة الصيام بالتقوى أيضاً في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٣) ، كما نشاهد ذلك أيضاً في آيات الحج في قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (٤) ، ويختتم الله تعالى آيات الحج بقوله تعالى : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ﴾ (٥) .

وفي كل هذا إشارة إلى الثواب الجميل الذي ينطبع به حس المؤمن ويصطبغ به فؤاده جزاء على ما قام به من رعاية لفرائض الله تعالى وأداء لواجباته ومسؤولياته ، فكأن تقوى الله تعالى وترك الاسترسال في الصغائر ظاهراً وباطناً يبعده عن محارمه و يدفعه إلى اكتساب الفضائل وعمل الصالحات الباقيات .

(١) . أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تفسير البر والإثم ، ص : ١١٢٠ ، رقم الحديث : ١٤ .

(٢) . سورة البقرة . آية ٢١ .

(٣) . سورة البقرة . آية ١٨٣ .

(٤) . سورة الحج . آية ٣٢ .

(٥) . سورة الحج . آية ٣٧ .

لذلك كانت تقوى الله تعالى ثمرة كل عبادة وأثراً لكل فضيلة يفعلها الإنسان . فالإنسان إذا باشر الأعمال الصالحة تكتنفه روح الخشوع والخضوع و الإخلاص ، طهرت نفسه وصح مزاجه وشعوره كما قال الرسول ﷺ في حديث : " والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء " . (١)

فالصلاة إذا أقامها الإنسان على وجهها الصحيح كانت سبباً لإشراق أنوار المعارف وانسراح القلب كما أنها تمنع صاحبها من المعاصي وتنهيه عن الفحشاء والمنكر وتهديه إلى الصواب والحق . كما قال تعالى : ﴿ ائْتِ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ . (٢)

كما أن الزكاة لها أثرها في تطهير النفس من رذيلة البخل والشح وتزكيتها إلى درجة الكرم والإيثار والبذل والتضحية ، كما أنها برهان على صدق إيمان صاحبها . كما قال تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ (٣) ، وكذلك كل ما أمرنا الله تعالى به وحثنا عليه من عبادات ومكارم أخلاق ومحاسن الآداب و ما شرع لنا من معاملات إذا قام بها الإنسان خير قيام مخلصاً لله تعالى ومبتغياً وطالباً لمرضاته أحدث أثره الطيب في نفس الإنسان .

٢. الهداية والتوفيق :

ويتمثل هذا الثواب الدنيوي الذي يناله الإنسان جزاء على ما فعله الخيرات ورعاية جميع المسؤوليات التي ألزمه الله بها ، في الهداية والتوفيق الذي يفيضه الله تعالى من اتبع طريقه وسلك سبيله ، فالله تعالى يرشد أولئك الذين يعملون له ويسيروا على منهجه كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٥) ، وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (٦) ، كما يهديهم بتوفيقه إلى طريقه المستقيم و يقيمهم على دينه الحق . كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ﴾ . (٧)

فبالإيمان وما يتبعه من أعمال صالحة ينشرح صدر الإنسان ويوسع الله تعالى قلب المؤمن ويجعله يسلك ويلتزم طريق الإسلام . كما يقول تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ

(١) . أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الطهارة ، باب فضل الوضوء ، ص : ١١٤ ، رقم الحديث : ١ .

(٢) . سورة العنكبوت . آية ٤٥ .

(٣) . سورة التوبة . آية ١٠٣ .

(٤) . سورة العنكبوت . آية ٦٩ .

(٥) . سورة التباين . آية ١١ .

(٦) . سورة البقرة . آية ٢٥٧ .

(٧) . سورة النساء . آية ٦٦ .

وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعْدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ . (١)

وغير ذلك من النصوص القرآنية تقرر الثواب الجميل الذى يعطاه فاعل الخير في هذه الدنيا جزاء على عمله الطيب الحسن ويبدوا أثره في هدايته إلى الحق وتوفيقه إلى الرشد ، و صدق الله تعالى حيث يقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ . (٢)

يقول ابن القيم : " فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل الباسقة الفرع في السماء علوا التي لا تزال تؤتى ثمرتها كل حين . وإذا تأملت هذا التشبيه رأيت مطابقتها لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب التي فروعها الأعمال الصالحة الصاعدة إلى السماء ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت بحسب ثباتها في القلب ومحبة القلب لها وإخلاصه فيها ومعرفته بحقيقتها وقيامه بحقوقها ومراعاتها حق رعايتها " . (٣)

٣. نضرة الوجوه :

ويظهر هذا الثواب فيما يشاهد في وجوه الصالحين من نور وضياء وبسمة منعكس على وجوههم من إيمانهم الصادق وأعمالهم الطيبة وما تطبعه في نفوسهم من سرور وفرحة . قال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٤) ، وهذه السمة تظهر على وجوه المؤمنين في الدنيا كما سوف تظهر في الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ (٥) ، فيعرف الصالحون بسيماهم وما يبدوا على وجوههم من ضياء ونور للطاعات والخيرات ، قال تعالى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ (٦) ، ذكر ابن كثير عدة أقوال في تفسير هذه الآية أذكر منها البعض : قيل : سيماهم في وجوههم يعني السمات الحسن وقيل : يعني الخشوع والتواضع . وقيل : الصلاة تحسن وجوههم . ثم يقول : الغرض أن الشئ الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه بالمؤمن إذا كانت سريرته

(١) . سورة الأنعام . آية ١٢٥ .

(٢) . سورة إبراهيم . آية ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) . إعلام الموقعين عن رب العالمين ، لابن القيم ، فصل أثر كلمة التوحيد ، ١ / ٢٢٤ ، بتحقيق :

الشيخ عبدالرحمن الوكيل ، الناشر : مكتبة ابن تيمية ، القاهرة .

(٤) . سورة يونس . آية ٢٦ .

(٥) . سورة عبس . آية ٣٩ .

(٦) . سورة الفتح . آية ٢٩ .

صحيحة مع الله تعالى أصلح الله تعالى ظاهره للناس ، كما روى عن عمر (١) ﷺ قال : " من أصلح سريرته أصلح الله تعالى علانيته . (٢) وما يظهر على وجوههم من آثار لإيمانهم الحقيقي ويقينهم الثابت بالله عزوجل يكسبهم حسنة في الوسط الاجتماعي الذي يعيشون فيه ويؤكد ارتباطهم الوثيق بمن حولهم من المؤمنين الصادقين .

٤ . كهيئة الحياة :

ويظهر هذا الثواب الدنيوي الذي يتفضل به الله تعالى على من يعمل صالحا ويتبع أمره ويتجنب نهيه ، في كهيئة الحياة الطيبة . قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٣) . فهذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وكان مخلصاً في عمله ومتابعاً لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وقلبه مؤمن بالله ورسوله ، بأن يجيبه حياة طيبة في الدنيا وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الآخرة .

ففي الآية وعد بالثواب الدنيوي وهو قوله تعالى : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ ، فان المراد بهذه الحياة هي حياة الدنيا ، وقد قال به كثير من المفسرين عند تفسيرهم لهذه الآية الكريمة . وفي الجلالين " قيل هي حياة الجنة ، وقيل في الدنيا بالقناعة أو الرزق الحلال " . (٤) ويقول ابن كثير : " والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت وقد روى عن ابن عباس ﷺ عنها وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب وعن علي ابن طالب ﷺ أنه فسرها بالقناعة . وعن ابن عباس ﷺ أنها السعادة . (٥)

ولا شك أن حياة المؤمن تصير طيبة سعيدة بيقينه الصادق بقضاء الله وقدره واعترافه الحق أن كل ما يأتيه إنما هو من تدبير الله تعالى وذلك يجعله راضياً مقنعاً . كما أن قلبه يكون دائما منشراحا بمعرفة الله تعالى الذي يدفع عنه كل حزن وهم وخوف ، وبذلك يعيش حياة هادئة مطمئنة .

(١) . هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي أحفص الفاروق كان إسلامه فتحا عظيما للمسلمين وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأول من لقب بأمير المؤمنين ولد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة وتوفي سنة ٢٣هـ انظر: الاصابة لابن حجر العسقلاني ٥١٨/٢-٥١٩ وأسد الغابة لابن الأثير ٤/١٤٥-١٨١ .

(٢) . تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ص : ١٧٤١ .

(٣) . سورة النحل . آية ٩٧ .

(٤) . تفسير الجلالين ، لجلال الدين السيوطي ، وجلال الدين المحلى ، ص : ٢٦١ ، مكتبة الصفاء ، بالقاهرة . ط : الأولى ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠٢م .

(٥) . تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ص : ١٠٧٥ ، ١٠٧٦ .

٥. المعية الإلهية :

ويظهر هذا الثواب في المعية الإلهية الخاصة بنصره وتأييده لعباده المؤمنين الصالحين كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (١) . فالله تعالى مع المؤمنين الصادقين بتأييده ونصره كما قال تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ (٢) وقوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام : ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ (٣) ، فقد وعد الله تعالى من يتبع أوامره ويقف عند حدوده بالنصر ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (٤) .

وكما وصى النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنه " احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك .. " الحديث (٥) . فمن حفظ حدود الله تعالى وحقوقه وأدى ما أمره به واجتنب نواهيه بأن يقف عند أوامره بالإمتثال وعند حدوده بالإجتنب فلا يتجاوزها ، فمن فعل ذلك كان جزاؤه حفظ الله له ، لأن الجزاء من جنس العمل . فالله تعالى يحفظه في بدنه وولده وأهله وماله ، كما يوكل به ملائكته ، يحفظونه ويحرسونه . قال تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ (٦) يقول مجاهد (٧) : ما من عبد إلا له ملك يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام فما من شر يأتيه إلا قال له وراءك إلا شيئا أذن الله فيه فيصيبه . (٨)

كما يدافع الله تعالى عمن آمن به وتوكل عليه ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَأَ يَجِبُ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ (٩) ، يخبر الله تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه شر الأشرار وكيد الفجار ويحفظهم ويبلوهم وينصرهم ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (١٠) ، وقال تعالى : ﴿ وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾

(١) . سورة النحل . آية ١٢٨ .

(٢) . سورة الأنفال . آية ١٢ .

(٣) . سورة طه . آية ٤٦ .

(٤) . سورة محمد . آية ٧ .

(٥) . أخرجه الترمذي في سننه ، في صفة القيامة والرقائق ، باب حديث حنظلة ٥٩ ، ص : ٥٧٢ ، رقم الحديث : ٢٥١٦ .

(٦) . سورة الرعد . آية ١١ .

(٧) . هو ابن جبر أبو الحجاج المكي صاحب ابن عباس رضي الله عنه كان مفسرا توفي سنة ١٠٣ هـ انظر : شذرات الذهب ١/١٣٠ .

(٨) . تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ص : ١٠٠٥ .

(٩) . سورة الحج . آية ٣٨ .

(١٠) . سورة الزمر . آية ٣٦ .

(١) ، كما يكتب الله تعالى للمؤمنين المتقين الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة صلاح الحال في الدارين. قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ . (٢)
يقول الرازي : " وفي تكرير أولئك تنبيه على أولئك على أنهم كما ثبت لهم الاختصاص بالفلاح أيضا فقد تميزوا عن غيرهم بهذين الاختصاصين . (٣)

كما أزال الله عنهم الخوف والحزن في الدنيا كما قال تعالى : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٥) ، فلمهتدون بهداية الله تعالى لا يخافون مما هو آت ولا يحزنون على ما فات لأن اتباع الهدى يسهل عليهم طريق اكتساب الخيرات ويعددهم لسعادة الدنيا والآخرة ، ومن كانت هذه وجهته يسهل عليه كل ما يسقبله ويهون عليه كل ما أصابه أو فقده .

٦. التمكين في الأرض :

ويتمثل هذا الجزاء الدنيوي لأهل الإيمان بالتمكين في الأرض وجعلهم أئمة لأهل الاستقامة على دين الله قال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٦) . يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية : " هذا وعد الله تعالى لرسوله ﷺ بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض أي أئمة الناس والولاية عليهم وبهم تصلح البلاد وتخضع لهم العباد ، وليبدلنهم من بعد خوفهم من الناس أمنًا وحكما فيهم ، وقد فعله تبارك وتعالى وله الحمد والمنة " . (٧)

نشاهد في كثير من الآيات القرآنية بأن الله تعالى أعز المؤمنين ونصرهم وجعلهم أئمة الناس ونلاحظ أن هذه سنة الله ﷻ في الخلق حيث يمكن سبحانه للأئمة الصالحة الاستخلاف والزعامة كما قال تعالى عن موسى الكليم عليه السلام حيث قال لقومه : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (٨) ، وقال تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَىٰ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ

(١) . سورة الطلاق . آية ٣ .

(٢) . سورة البقرة . آية ٥ .

(٣) . التفسير الكبير ، لإمام الرازي ، ١ / ٣٢ ، ط : الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١١ هـ ، ١٩٩٠ .

(٤) . سورة البقرة . آية ٣٨ .

(٥) . سورة البقرة . آية ١١٢ .

(٦) . سورة النور . آية ٥٥ .

(٧) . تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ص : ١٣٤٢ ، ١٣٤٣ .

(٨) . سورة الأعراف . آية ١٢٩ .

أئمةً وَنَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿١﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (٢) ، فالله تعالى يخبرنا عما قضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ (٣) وكل ذلك جزاء وثواباً لهم على طاعتهم واتباعهم لمنهج الله تعالى .

٧. محبة الناس وثناؤهم :

هذا الثواب مرجعه إلى الله تعالى ، فهو سبحانه الذي يثيب عبده إذا آمن وعمل صالحاً بوّد الناس له ، وارتفاع ذكره بينهم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ (٤) ، كما قال النبي ﷺ : " إذا أحب الله العبد نادى جبريل إن الله يحب فلاناً فأحبهه فيحبه جبريل فينادي جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلاناً فأحبهه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض " (٥) . ولما كان هذا الجزاء أمراً واقعاً بين الناس ، يدركه كل عامل أمكن بإخلاص أن يصير مقياساً يعرف به الإنسان حسن عمله من سوءه . قال آلوسي (٦) : أي مودة في القلوب لإيمانهم وعملهم الصالح ، والمشهور أن ذلك الجعل في الدنيا . (٧)

وقال الشوكاني " أي حباً في قلوب عباده يجعله لهم من دون أن يطلبوه بالأسباب التي توجب ذلك كما يقذف في قلوب أعدائهم الرعب " (٨) . لذلك إن من دعاء إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ (٩)

ذكر الإمام القرطبي قول ابن عطية (١٠) : هو الثناء وخلد المكانة بإجماع المفسرين وكذلك أجاب الله دعوته وكل أمة تتمسك به وتعظمه وهو على الحنيفية التي جاء بها محمد ﷺ . ثم يقول الإمام

(١) . سورة القصص . آية ٥ .

(٢) . سورة الأنبياء . آية ١٠٥ .

(٣) . سورة غافر . آية ٥١ .

(٤) . سورة مريم . آية ٩٦ .

(٥) . أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة ، ص : ٥٣٦ ، رقم الحديث : ٣٢٠٩ .

(٦) . هو أبو الفضل شهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني الألوسي مفسر محدث من أهل بغداد وكان مفتي بغداد ولد عام ١٢١٧هـ وله مؤلفات كثيرة منها : روح المعاني في التفسير ، دقائق التفسير ، المقامات في التصوف والأخلاق ، توفي عام ١٢٧٠هـ انظر : الأعلام للزركلي ٥٣/٨ .

(٧) . روح المعاني ، محمود الألوسي ، ٩ / ٢٠٩ ، ط : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤١٧هـ ، ١٩٩٧م

(٨) . فتح القدير ، لإمام الشوكاني ، ص : ١٠٥٧ ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠١م ، مكتبة الرشد ، الرياض

(٩) . سورة الشعراء . ٨٤ .

(١٠) . هو عبد الحق بن غالب بن عبدالرحمن بن عطية الإمام الكبير قدوة المفسرين أبو محمد الغرناطي القاضي ولد سنة ٤٨١هـ كان فقيها عالماً بالتفسير والأحكام والحديث والنحو واللغة والأدب له مؤلفات عديدة منها :

الوجيز في التفسير توفي سنة ٥٤١هـ ، انظر : سير أعلام النبلاء ٧ / ٤٥ .

: وقد فعل الله ذلك إذ ليس أحد يصلي على النبي ﷺ إلا وهو يصلي على إبراهيم التليد و خاصة في الصلوات وعلى المنابر التي هي أفضل الحالات وأفضل الدرجات والصلوة دعاء بالرحمة . (١)

٨. تيسير الخيرات والأرزاق :

ويتمثل هذا الثواب الدنيوي فيما يسره الله تعالى من الخيرات والأرزاق لأهل الصلاح والتقوى . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٢) ، فان الإيمان بما جاءت به الرسل واتباعه وتقوى الله بفعل الطاعات وترك المحرمات يكون سببا في إنزال المطر من السماء فينبت الأرض وتصبح مخضرة تؤتى أكلها ، وينعم المتقون بثمارها فقد جعل الله تعالى بفضل رحمته وجوده الاستغفار والتوبة سببا للمتاع الحسن في الدنيا قال تعالى : ﴿ وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ (٣) ، " و يمتعكم متاعا حسنا " أي في الدنيا ، وذلك بما يفيضه عليهم من البركات والخيرات والنعيم السابقات . كما قال تعالى على لسان نوح التليد : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ (٤) أي إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه كثر الرزق عليكم وأسقاكم من بركات السماء وأنبت لكم من بركات الأرض وأنبت لكم الزرع وأدر لكم الضرع وأمدكم بأموال وبنين أي أعطاكم الأموال والأولاد وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار وخللها بالأثمار الجارية بينها . وهكذا نرى صورا كثيرا للصواب الذي وعد الله تعالى به المتقين في الدنيا من اتباع دينه القويم وسلك سبيل الرسول ﷺ ، و في هذا ترغيب وتبشير لمن عمل الصالحات وترك المبطلات واتباع الحق وترك الباطل .

(١) . الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي ، ١١٢ / ١٣ .

(٢) . سورة الأعراف . آية ٩٦ .

(٣) . سورة هود . آية ٣ .

(٤) . سورة نوح . آية ١٢ .

المبحث الثاني : الجزاء الإلهي في الدنيا للطالحين :

ولما كانت طبائع النفوس متفاوتة ، وكان فيهم من يكفيه الترغيب في ثواب الله والترهيب من عقابه ، وفيهم من لا تكفيه هذه الأساليب ، فهولاء لو تركهم الله تعالى بدون جزاء لعم الفساد في الأرض ، فلما كان هذا شأن الناس قضت حكمة الله تعالى أن يكون في دين الله ومن أصوله جزاء المحسن على إحسانه ، وعقاب المسيئ على إساءته ، حتى يستقيم أمر الناس وتعتدل أحوالهم .
لذلك يرى المتتبع لنصوص القرآن والسنة النبوية بأن الله تعالى يعاقب الكافرين والمنافقين والعاصين الذين لا يقومون بواجباتهم ولا يراعون بمسئولياتهم ، بصور من العقوبات ، وبألوان من العذاب في الدنيا ، تتمثل فيما يأتي :

مظاهر العقاب :

١ . غضب الله تعالى :

ومن صور العقاب الدينوى الذى يصيب من عصى الله تعالى واتبع نفسه هواها أن ينال غضب الله تعالى ونقمته ، كما قال تعالى عن بني إسرائيل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَّهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ (١) ، يقول ابن كثير : " أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل فهو أن الله تعالى : لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضا . وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلا وصغارا في الحياة الدنيا " . (٢)

وقال الشوكاني في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ " أي مثل ما فعلنا بهؤلاء نفعل بالمفترين والافتراء الكذب فمن افتري على الله سيناله من الله غضب وذلة في الحياة الدنيا وإن لم يكن بنفس ما عوقب به هؤلاء بل المراد ما يصدق عليه أنه من غضب الله سبحانه وأن فيه ذلة بأي نوع كان " . (٣)

كما أن الله تعالى يغضب أعظم الغضب على من لا يشكر نعم الله تعالى بل يكفر كما قال تعالى : ﴿ كُلُّوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴾ . (٤)

(١) . سورة الأعراف . آية ١٥٢ .

(٢) . تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ص : ٧٨٦ .

(٣) . فتح القدير ، لإمام الشوكاني ، ص : ٥٩٢ ، ٥٩٣ .

(٤) . سورة طه . آية ٨١ .

يقول الشوكاني في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَطْعَمُوا فِيهِ﴾ " والطغيان " التجاوز : أي لا تتجاوزوا ما هو جائز إلى ما لا يجوز وقيل المعنى : لا تجحدوا نعمة الله فتكونوا طاغين وقيل لا تكفروا النعمة ولا تنسوا شكرها وقيل لا تعصوا المنعم : أي لا تحملنكم السعة والعافية على المعصية ولا مانع من حمل الطغيان على جميع هذه المعاني فإن كل واحد منها يصدق عليه أن طغيان ﴿فَيَجِلُّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ هذا جواب النهي : أي يلزمكم غضبي ويتزل بكم " . (١)

وقد تكررت آيات الغضب في القرآن الكريم في أماكن كثيرة كما قال تعالى : ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَكَهَمُّ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (٢) ، وغير ذلك من الآيات .

٢ . إهلاك المفسدين :

وقد يتمثل هذا العقاب الديني في إهلاك المفسدين وإنزال العذاب عليهم في الدنيا . ولقد كانت سنة الله تعالى في الذين خلوا أنهم إذا كثرت مفاسدهم أهلكتهم الله تعالى . ولقد ضرب الله تعالى أمثلة كثيرة لهذا الهلاك الذي أصاب الظالمين والفاسقين كما تعالى : ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٣) ، يخبر الله تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسول كيف أنه أهلكتهم . فعاد ، قوم هود لما عتوا واستكبروا وقالوا : من أشد منا قوة ، أرسل الله عليهم ريحاً صرصراً فاصبحوا كأنهم أعجاز نخل منقعر ، وثمود ، قوم صالح عندما استمروا على طغيانهم و كفرهم ، وقتلوا الناقة التي امتحنهم الله بها ، وهمدودوا صالحاً ومن آمن معه بأن يخرجوهم ويرجموهم ، أرسل الله تعالى صيحة أخذت أصواتهم واسكتت حركاتهم .

ولما بغى قارون وطغى ومشى في الأرض فرحاً ، واعتقد الفضل على غيره من الخلق ، خسف الله تعالى به وبداره الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة . وكذلك لما عصى فرعون وطغى وبغى هو ووزيره هامان وجنودهما ، ووصل بهم الأمر في عتوهم واستكبارهم إلى أن اقتحموا البحر وراء موسى ، فكان عقابهم أن أغرقهم الله تعالى ولم ينجوا منهم أحد . وإنما أوقع الله تعالى هذا العقاب جزاء على ما كسبت أيديهم ، كما قال تعالى : ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٤) .

(١) . فتح القدير ، لإمام الشوكاني ، ص : ٥٩٢ ، ٥٩٣ .

(٢) . سورة النحل . آية ١٠٦ .

(٣) . سورة العنكبوت . آية ٤٠ .

(٤) . سورة الروم . آية ٩ .

وهكذا جرت سنة الله تعالى في خلقه أن يتزل عذابه على كل مجتمع كفر بنعمته ، وكل قرية جحدت آياته وكذبت رسله . قال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ (١) ، وقال تعالى أيضاً : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ يُؤَسِّسُوا لَهَا مِن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ (٤) ، وغير ذلك من الآيات التي تبين ما أصاب المجتمعات الظالمة المجاوزة لأوامر الله تعالى والمنتهكة لنواهييه ، وهي تنذر وتوعد كل مجتمع متكبر جبار متعد لحدود الله تعالى .

ففي محاسبة الله تعالى وإهلاكه لهذه القرى الظالمة تحذير لكل من ينتهج نهجهم أو يسلك مسلكهم ويتبع غير طريق الله تعالى الذي ارتضاه لعباده .

٣. زوال النعمة :

ومن مظاهر هذا العقاب الذي يصيب الظالمين والفاسقين زوال النعم عنهم . ومن الأمثلة ما ذكر الله تعالى في شأن " أصحاب الجنة " الذين حلفوا فيما بينهم ليجدن ثمر البستان ليلاً لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء . فلما ذهبوا إلى جنتهم وجدوها قد احترقت ، فوقعوا في الحيرة حتى ظنوا أنهم ضلوا طريقها ثم تبين لهم الأمر بأنها هي بعينها ، لكن قد طاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأخذوا يلومون أنفسهم ويلوم بعضهم بعضاً ، أدركوا أنهم كانوا ظالمين ، فعادوا إلى ربهم ورجعوا أن يغفر لهم وأن يبدلهم خيراً من جنتهم ، كما جاءت قصتهم في سورة ن قال تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَشُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَيَّ حَرِّتُكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴾ (٥) .

ونرى بأن الله قد ذيل القصة بقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٦) ، لبيان أن سنة الله في هؤلاء المستكبرين وفي كل أرباب النعم ، هي سنته في أصحاب

(١) . سورة الطلاق . آية ٨ ، ٩ .

(٢) . سورة القصص . آية ٥٨ .

(٣) . سورة الأعراف . ٤ .

(٤) . سورة الأنبياء . آية ١١ .

(٥) . سورة القلم . آية ١٧ - ٢٢ .

(٦) . سورة القلم . آية ٣٣ .

الجنة . ومعناه أن العذاب الذى نرسله في دار الدنيا على الطاغين ، والذى من شأنه أن يؤثر في النفوس ، إنما يكون مثل ذلك العذاب الذي نزل بأصحاب الجنة فأهلك حرثهم وأباد حضراءهم . وكما ذكر الله تعالى في شأن الرجل الذى كفر بربه وأنكر المعاد واغتر بماله وثمار جنته الذى ذكره الله تعالى في سورة الكهف في قوله تعالى : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلًا مِّثْلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴾ (١) ، فكان عقابه أن أنزل الله عليه حسابنا من السماء أى عذاباً ووقع به ما كان يحذر وأصبح يقرب كفيه على ما أنفق فيها بقوله تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ (٢) .

فثبت بكل ما تقدم أن المصائب والآلام والهموم والأحزان التى تصيب الإنسان إنما سببها ما فعله من معاصى وسيئات ، كما قال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ ﴾ (٣) . لذلك لا يثاب الإنسان على المصائب التى تصيبه في نفسه أو أهله أو ماله فإنه لا يثاب على نفس المصيبة لأنه جزاء فعله . بل لكن إن صبر عليها كان له أجر الصابرين وإن رضى كان له أجر الراضين .

ومن الجدير بالملاحظة في هذا المقام أن نعلم بما تقدم أن الكافر والمؤمن يجازى ويعاقب على أعماله السيئة في الدنيا كما يشاهد فيما وقع لصاحب الجنة في سورة الكهف . ولعموم قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ (٤) . إلا أن المؤمن يختلف أمره عن الكافر ، فالكافر يعاقب على أعماله السيئة في الدنيا والآخرة . أما المؤمن فإن المصائب تكفر عنه سيئاته ، أما في الآخرة فإنه يكون مصيره الجنة .

٤ . القلق والضيق :

ومن صور العقاب الدنيوى الإحساس والشعور بالقلق والضيق عند ارتكاب الشرور والآثام . ونرى بأن القرآن الكريم كثيراً ما يسجل الخسران على من يفسد في الأرض ويطغى فيها . كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٥) ، والإفساد الذى حصل من هؤلاء إفساد عام يشمل العقيدة والاخلاق

(١) . سورة الكهف . آية ٣٢ .

(٢) . سورة الكهف . آية ٤٢ .

(٣) . سورة النساء . آية ٧٩ .

(٤) . سورة النساء . آية ١٢٣ .

(٥) . سورة البقرة . آية ٢٧ .

والأعمال ، لذلك سجل الله عليهم الخسران ، وخسرانهم في الدينا يتمثل في ظلمة أنفسهم وفساد أخلاقهم وأنواع الهموم التي تصيبهم ، وكل هذا يؤدي بهم إلى الإفراط الذي يسبب لهم الأمراض الجسدية والنفسية .

ولقد كان الختم والطبع على قلوب الكافرين أثراً من آثار كفرهم وعقاب لهم على تكذيبهم وافتراءهم على أنبيائهم ، لأن الكفر يعمى القلوب ويطمس البصيرة ويصد عن الحق ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) ، وكما قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) ، وقوله تعالى في شأن الكافرين : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) ، فالضلال والضيق الذي أصابهم ، والختم الذي غطى قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، وكذلك الغشاوة والميل والبعد عن الحق ، كل ذلك كان أثراً طبيعياً لما اكتسبوا واقترفوا من الضلال والعتو والاستكبار عن الحق .

٥. تحريم الطيبات :

وقد يكون العقاب في الدنيا للأمم المكذبة لرسالتها وعن أتباع أمر ربها ، بتحريم طيبات كانت حلالاً لهم قبل ظلمهم وبغيهم ، كما حدث ذلك بالنسبة لليهود . يقول الله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّ وَقَدْ نُهِوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اختَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبِغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (٥) . وهذا التحريم كان عقاباً لليهود على طغيانهم وبغيهم وظلمهم ومجاوزتهم حدود الله تعالى .

وإن هذا العقاب وإن كان خاصاً باليهود لكنه من الممكن من أن يقع على كل من هاد عن طريق الله تعالى واتباع غير شرعه ، فإن الإنسان إذا أدار ظهره لأحكام الله تعالى وانتهج نهجاً آخر ، فإنه بذلك

(١) . سورة الأنعام . آية ١٢٥ .

(٢) . سورة الجاثية . آية ٢٣ .

(٣) . سورة البقرة . ٧ .

(٤) . سورة النساء . آية ١٦٠ ، ١٦١ .

(٥) . سورة الأنعام . آية ١٤٦ .

يُحْرَمُ خَيْرًا كَثِيرًا كَانَ يَصِيْبُهُ وَيُنَالُهُ لَوْ أَنَّهُ سَلَكَ طَرِيقَ رَبِّهِ وَاتَّبَعَ سُنَّةَ نَبِيِّهِ ، وَعِنْدَ الْمُخَالَفَةِ يَكُونُ قَدْ حُرِمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُ وَفِي هَذَا أَشَدَّ عِقَابًا يَلْحَظُهُ مَنْ اسْتَنَّارَ قَلْبَهُ بِنُورِ الْإِيمَانِ وَاسْتَقَامَ نَهْجَهُ عَلَى طَرِيقِ الرَّحْمَنِ .

٦. عدم الإهتداء إلى الحق :

ويتمثل هذا العقاب الدنيوي في عدم الإهتداء الظالمين إلى الحق كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (١) ، قال الإمام الطبري في معنى هذه الآية : " إن الذين جحدوا رسالة محمد ﷺ فكفروا بالله بجدود ذلك وظلموا بمقامهم على الكفر على علم منهم بظلمهم عباد الله ، وحسداً للعرب ، وبغيا على رسوله محمد ﷺ ﴿ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ ﴾ يعني : لم يكن الله ليغفو عن ذنوبهم بتركه عقوبتهم عليها ولكنه يفضحهم بما بعقوبته إياهم عليها ﴿ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴾ يقول الإمام : ولم يكن الله تعالى ذكره ليهدي هؤلاء الذين كفروا وظلموا الذين وصفنا صفتهم فيوقفهم لطريق من الطرق التي ينالون بها ثواب الله ويصلون بلزومهم إياه إلى الجنة ولكنه يخذلهم عن ذلك حتى يسلكوا طريق جهنم وإنما كنى بذكر الطريق عن الدين وإنما معنى الكلام : لم يكن الله ليوقفهم للإسلام ولكنه يخذلهم عنه إلى طريق جهنم وهو الكفر يعني : حتى يكفروا بالله ورسله فيدخلوا جهنم ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ يقول : مقيمين فيها أبدا ، ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ . (٢) وكل هذا يدل على عدم هدايتهم في الدنيا إلى الصواب من الأفعال ، فيكون هذا سبباً لدخولهم جهنم يوم القيامة . وذلك لأن الله تعالى يعاقب الكفار في الدنيا بالحثم والطبع على قلوبهم والصرف عن تدبر آياته ، وكل هذه العقوبات في الحقيقة إبعاد لأصحابها عن الإهتداء إلى طريق الجنة .

٧. إحباط الأعمال :

هذه العقوبة وردت في عدة مواضع من القرآن الكريم ، وجاءت مقترنة بالدنيا في قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ (٣) ، يقول الراغب : وحبط العمل على ضرب :

(١) . سورة النساء . آية ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٢) . انظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، لابن جرير الطبري ، ١٦٩ / ٦ ، ط : دار الفكر ، ١٤٠٨ ، ١٩٨٨ .

(٣) . سورة آل عمران . آية ٢٢ .

الأول : أن تكون الأعمال دنيوية فلا تعني يوم القيامة غناء ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ﴾ . (١)

الثاني : أن تكون الأعمال أخروية ، ولكن صاحبها لم يقصد بها وجه الله . كما روي عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها ؟ قال قاتلت فيك حتى استشهدت قال كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها ؟ قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها ؟ قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار) . (٢)

الثالث : أن تكون أعمالا صالحة يكون بإزائها سيئات تزيد عليها . وهذا هو المشار إليه بخفة الميزان . (٣)

قال الإمام الطبري : ﴿ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ يعني : بطلت أعمالهم ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ فأما في الدنيا فلم ينالوا بها محمدة ولا ثناء من الناس لأنهم كانوا على ضلال وباطل ولم يرفع الله لهم بها ذكرا بل لعنهم وهتك أستارهم وأبدى ما كانوا يخفون من قبائح أعمالهم على ألسن أنبيائه ورسله في كتبه التي أنزلها عليهم فأبقى لهم ما بقيت الدنيا مذمة فذلك حبوطها في الدنيا وأما في الآخرة فإنه أعد لهم فيها من العقاب ما وصف في كتابه وأعلم عباده أن أعمالهم تصير بورا لا ثواب لها لأنها كانت كفرا بالله فجزاء أهلها الخلود في الجحيم . (٤)

(١) . سورة الفرقان . آية ٢٣ .

(٢) . أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإمارة ، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار ، ص : ١٥٢ ، رقم الحديث : ٨٥٢ .

(٣) . المفردات في غريب القرآن ، للراغب الاصفهاني ، ص : ١١٣ .

(٤) . جامع البيان عن تأويل أي القرآن ، لابن جرير الطبري ، ٣ / ٢١٧ .

٨. العقوبات الحسية :

ومن العقاب الدنيوى الذى وصفه الله تعالى وحددته نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية ، عقوبات الجرائم العامة والجنايات التى تصيب الأصول العامة والأسس الضرورية للحياة الإنسانية لحفظ كيان المجتمع البشرى وصيانتة سلامته وحماية مصالحه من الفساد والتدهور والإنحطاط .

كان من عدل الله تعالى ورحمته بخلقه أن شرع لهم عقوبات زاجرة لحفظ الأمور الخمسة التى تقوم عليها الحياة الإنسانية الكريمة التى تقتضى توفر هذه الأمور والمحافظة عليها ومنع الإعتداء عليها وهى :

١. المحافظة على الدين .

٢. المحافظة على النفس .

٣. المحافظة على العقل .

٤. المحافظة على العرض .

٥. المحافظة على المال .

وإن هذه الأصول قد جاءت جميع الشرائع السماوية للمحافظة عليها وبنيت عليها العقوبات كلها فى الإسلام . فلما كانت هذه الأمور من المصالح المقررة الثابتة فقد قرر القرآن الكريم والسنة والنبوية الشريفة عقوبات تضمن صيانتها وحفظها وزاجرة عن الاعتداء عليها مؤدبة إلى درء المفاسد عن المجتمع البشرى ومحققة لمصلحته .

وفيما يلي سوف أبين ما شرعه الله تعالى من عقوبة على كل جريمة تمس أحد هذه الأمور الخمسة السابقة .

وهذه العقوبات تنقسم إلى قسمين :

١. قسم يسمى بالحدود والقصاص وهى الجزاءات والعقوبات النصية التى حددها القرآن الكريم والسنة النبوية تحديداً دقيقاً .

٢. وقسم يسمى بالتعزيرات وهى الجزاءات والعقوبات التفويضية التى فوض فيها الأمر للأمام أن يعاقب عليها بما يراه رادعاً لفاعلها وزاجراً لغيره .

أما الحدود فهى تحتوى على عقوبات الردة ، والزنا ، والقذف ، وشرب الخمر ، والسرقه ، و الحراية . والآن نذكر نبذة بالإيجاز عن كل حد فيما يلي :

١. عقوبة الإعتداء على الدين بالإرتداد :

تعريف الردة : إجراء كلمة الكفر على اللسان بعد وجود الإيمان ، إذ الردة عبارة عن الرجوع عن الإيمان ، فالرجوع عن الإيمان يسمى ردة في الشرع (١) . فالمرتد هو الراجع عن دين الإسلام إلى الكفر في الإصطلاح الفقهاء . (٢)

ولقد اعتبر القرآن الردة من أشد التضليل ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أزدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ (٣) ، وذلك لأن العقيدة الدينية من الضروريات الإنسانية التي أجمعت الشرائع السماوية كلها على وجوب المحافظة عليها . ومن ثم شرع الاسلام أشد العقوبات عليها في الدنيا وهي القتل زيادة على ما ينال المرتد من عقاب شديد في الآخرة .

والعقاب الديني لهذه الجناية هو القتل ، وقد ثبت بحديث الرسول ﷺ أنه قال : " من بدل دينه فاقتلوه " (٤) . وهذا القتل الذي قرره الرسول ﷺ جدير بهذه الجناية الشنيعة إذ بقاء المرتد بين العباد مفسدة لهم ولا خير يرجى في بقائهم ، لأن الله تعالى لا يسوغ لأهل الأهواء أن يعشوا بالدين أو يتخذوه لهواً ولعباً . ويبين القرآن الكريم عقوبة المرتد في قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَمَا كَانَ لَهُمْ جُزَاءٌ فَؤُؤُوكَ حَبَطَ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٥) .

فجعل الله تعالى عقوبة المرتد حبوط أعماله ، والمراد به زوال آثارها وثوابها المرتب عليها شرعاً وذلك يشمل آثارها في الدنيا والآخرة . ولقد قرر القرآن ذلك في عدة آيات ، نذكر منها قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٦) . فالمرتد تزول عنه خصائص الإسلام من حرمة النفس والمال والعرض والصلوات عليه بعد الموت والدفن في مقابر المسلمين وغير ذلك من الأحكام التي تناله بعد رده .

(١) . بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، لإمام علاء الدين الكاساني الحنفي ، ١٣٤/٧ ، ط: الثالثة ١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦م دار الكتب العلمية . بيروت .

(٢) . المغني ، لابن قدامة ، ٢٦٤ / ١٢ ، دار عالم الكتب للطباعة والنشر ، ط : الثالثة ، ١٤١٧ هـ ، ١٩٩٧م .
(٣) . سورة النساء . آية ١٣٧ .

(٤) . أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب استنابة المرتدين والمعاندين وقتالهم ، باب حكم المرتد والمرتدة واستنابتهما ، ص : ١١٩٣ ، رقم الحديث : ٧٩٢٢ .

(٥) . سورة البقرة . آية ٢١٧ .

(٦) . سورة المائدة . آية ٥ .

٢. عقوبة الجناية على النفس البشرية :

لقد كرم الله تعالى الإنسان وأعلى من قدره وشأنه حتى وضعه على قمة الكائنات التي خلقها في هذه الحياة يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (١) ، ومن ثم فقد غلظ واشتد في عقوبته من يتعدى على نفس الانسان واعتبر أن من قتل النفس الواحدة بمثابة قتل الناس جميعاً ، وأن إحياء النفس الواحدة بمثابة إحياء الناس جميعاً . يقول الله تعالى :

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (٢) ، وفي هذا إشارة إلى عظيم جريمة القتل والإعتداء على الغير ، فانه إعتداء على حق الحياة المقدسة ، وهو حق ثابت لكل الناس مما يجعل الإعتداء على النفس البشرية من أخطر الجرائم وأبشع الجنايات ، ولذلك تكرر النهي في القرآن الكريم عن القتل . قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمَ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ (٤) .

ولقد جعل الله تعالى عقوبة القاتل المتعمد أو المعتدى على غيره من بني الإنسان بقتل أو جرح القصاص قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بِعَدْوٍ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٥) ، فالله تعالى قد فرض علينا العدل في القصاص فالقاتل يقتل قصاصاً عقوبة بالمثل لأن مادة القصاص تدل على التساوى والتعادل و التماثل ، وفي شرع القصاص ، وهو قتل القاتل حكمة جليلة وسر عظيم لأن فيه صيانة المجتمع من الفساد والتدهور . وذلك أن القاتل إذا علم أنه يقتل إذا اقترف هذا العمل الشنيع امتنع عن القتل وفي امتناعه حياة لنفسه وحياة للمقتول وحياة لجميع الخلق ، ولقد بين الله تعالى حكمة مشروعية القصاص بقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٦) ، كما شرع الله تعالى عقوبة الاعتداء على الأطراف والجوارح بقوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ

(١) . سورة الإسراء . آية ٧٠ .

(٢) . سورة المائدة . آية ٣٢ .

(٣) . سورة الأنعام . آية ١٥١ .

(٤) . سورة الإسراء . آية ٣٣ .

(٥) . سورة البقرة . آية ١٧٨ .

(٦) . سورة البقرة . آية ١٧٩ .

فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١﴾ ، فهذه الآية الكريمة وان كانت حكاية لما كتبه وفرضه الله تعالى التوراة على بنى اسرائيل إلا أن ورودها في القرآن الكريم يجعلها شرعاً لازماً علينا يجب تطبيقه لاسيما أنه لم يرد ما ينسخه .

وقال الحسن البصرى (٢) : هي عليهم وعلى الناس عامة (٣) ، ويفسر سنة رسول الله ﷺ فقد روى البخارى بسنده عن أنس ابن مالك رضي الله عنه (٤) : " أن الربيع عمته كسرت ثنية جارية فطلبوا إلى أهلها العفو فأبوا فعرضوا عليهم الأرض فأبوا . فأتوا رسول الله ﷺ فأبوا إلا القصاص فأمر رسول الله ﷺ بالقصاص فقال : أنس بن النضير : يا رسول الله ﷺ أتكسر ثنية الربيع ، لا والذى بعثك بالحق لا تكسر ثنيته فقال رسول الله ﷺ يا أنس : كتاب الله القصاص فرضى القوم فعفوا فقال رسول الله ﷺ " إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره " (٥) .

ولقد أوجب الله تعالى عقوبة الدية والكفارة على القاتل غيره خطأ كمن أراد أن يرمى صيدا فأصاب ملسماً فعلى القاتل في هذه الحالة تحرير نفس مؤمنة من الرق . وأن يدفع دية إلى المقتول : قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا ﴾ . (٦)

ومن النصوص نستفيد ما يأتي :

١ . أن القاتل عمدا يقتص منه .

٢ . إذا عفى عنه أولياء المقتول ورضوا بالدية وجب عليه دفع الدية .

٣ . أن الجروح قصاص .

٤ . أن القاتل قتلاً خطأ عليه الدية والكفارة .

وبذلك نشاهد أن الاسلام بما شرعه من عقوبة الاعتداء على البشرية فيه علاج شاف للطبائع البشرية والنفوس الشريرة التي تميل إلى الاعتداء على الغير . وفيه قضاء على الاجرام وردع للمعتدين وزجر وحماية للنفس الانسانية وصيانة لها من الهدم الهلاك .

(١) . سورة المائدة . آية ٤٥ .

(٢) . هو الحسن بن أبي الحسن واسمه يسار البصري أبوسعيد مولى زيد بن ثابت ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بلغ من العمر تسعا وثمانين سنة ، انظر : سير أعلام النبلاء ٤/٥٨٨-٥٦٣ .

(٣) . تفسير القرآن العظيم ، ص : ٦٢٢ .

(٤) . هو أنس بن مالك بن النضرين ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم ابن عدي بن النجار أبو حمزة الأنصاري الخزرجي خادم رسول الله ﷺ وأحد المكثرين من الرواية شهد بدرًا وغيرها من الغزوات توفي سنة ٩٣ هـ وكان عمره (١٠٠ سنة) ، انظر : الإصابة في تمييز الصحابة ١/٢٧٦ وتهديب الكمال ٣/٣٥٣ .

(٥) . أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب التفسير ، باب قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص) ص : ٧٦٥ ، رقم الحديث : ٤٥٠٠ .

(٦) . سورة النساء . آية ٩٢ .

٣ . عقوبة الإعتداء على العقل :

لقد شرف الله تعالى الإنسان وميزه بميزة كبرى وهي العقل . وبالعقل يتلقى الانسان ويفهم أوامر الله تعالى ونواهيه وهو مناط التكليف وأساس مسؤولية الإنسان . لذلك هي الله تعالى عن كل ما يؤدي إلى تعطيل القوى العقلية ، ومن أضر الأشياء على العقل وأشدّها فتكا به شرب الخمر .

ولقد هيى الله تعالى عباده المؤمنين عن تناول الخمر وحذرهم منها قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [١] إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ (٢) ، وقال النبي ﷺ " كل مسكر خمر وكل خمر حرام . ومن شرب الخمر في الدنيا ومات وهو يدمنها لم يشربها في الآخرة " . (٣)

لم ينص القرآن الكريم على عقوبة جريمة الشرب ، ولكن نصت السنة المطهرة على ذلك فقد أخرج البخارى في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال " جلد النبي ﷺ في الخمر بالجريد والنعال وجلد أبو بكر رضي الله عنه (٤) أربعين " . (٥)

وكما جاء في حديث عن أنس رضي الله عنه " أن النبي ﷺ أتى برجل قد شرب الخمر فجلده بجريد نحو أربعين . قال وفعله أبو بكر رضي الله عنه فلما كان عمر رضي الله عنه استشار الناس فقال عبد الرحمن رضي الله عنه (٦) : اخف الحدود ثمانين " . (٧)

ونلخص من كل ما تقدم إلى أن القرآن الكريم لم يحدد حد الخمر . وأن الرسول ﷺ جلد مقدار أربعين وسار على ذلك خليفته من بعده أبو بكر الصديق رضي الله عنه ثم عمر رضي الله عنه ضرب ثمانين .

(١) . سورة البقرة . آية ٢١٩ .

(٢) . سورة المائدة . آية ٩١ .

(٣) . أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الأشربة ، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام ، ص : ٨٩٦ ، رقم الحديث : ٧٥ .

(٤) . هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه بن أبي قحافة صاحب رسول الله ﷺ في الغار والهجرة ، كان من أعلم الصحابة ، زاهدا متواضعا توفي في سنة ١٣ هـ . أنظر أسد الغابة ، لابن الأثير ٣ / ٣٠٩ - ٣٣٥ .

(٥) . أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الحدود ، باب ما جاء في ضرب شارب الخمر ، ص : ١١٦٨ ، رقم الحديث : ٦٧٧٣ .

(٦) . هو عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بن عبد عوف ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، ولد بعد عام الفيل بعشر سنين ، أسلم قديما قبل دار الأرقم ، هاجر الهجرتين ، وشهد بدرأ . توفي سنة ٣١ هـ ، ودفن بالقيع . أنظر الاصابة ٢٤٧ / ٤ - ٢٥٠ .

(٧) . أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الحدود ، باب حد الخمر ، ص : ٧٥٦ ، رقم الحديث : ٣٥ .

والذي يهمننا في هذا المقام أن نظهر أن الإسلام قد حرص كل الحرص على تكريم الإنسان وإحترامه . وهو في تشريعه حداً وتعزيراً وتأديباً لشارب الخمر ، تأكيداً على حرصه حماية الإنسان وإعلاء لشأنه بين جميع الكائنات .

٤. عقوبة الإعتداء على العرض :

لقد أوجب الإسلام عقوبة زاجرة رادعة لمن يعتدى على أعراض الناس ، لأجل المحافظة على الأنساب . والإعتداء على الأعراض يأتي من جهتين :

١. الإعتداء بالزنا .

٢. الإعتداء بالقذف .

١. الإعتداء بالزنا :

الزنا شرعاً : وطء المرأة من غير عقد شرعي (١) . فالزنا جريمة قبيحة من جرائم الإعتداء على الأعراض . فحرمها الله تعالى بالنص الصريح بقوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَأْهَذَا عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ * الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) ، وفي هاتين الآيتين بيان لما يأتي :

١. حكم الزاني الذي لم يتزوج بأنه يجلد مائة جلدة .

٢. أن يكون جلد الزناة بحضرة الناس المؤمنين فإنه يكون أبلغ في زجرهما .

٣. تحريم نكاح الزاني والزانية .

وهذا إذا لم يكن محصناً ولا خلاف بين الفقهاء في ذلك . أما إذا كان الزاني محصناً فعقوبته الرجم حتى الموت ، وقد ثبتت هذه العقوبة بالسنة النبوية . وقد فصلت كتب الفروع المحررة كل ما يتصل بأحكام هذه العقوبة وما يترتب عليها من آثار .

وان المتبع لنصوص القرآن الكريم يجد كثيراً من الآيات القرآنية تقرر النهي عن قتل النفس بالنهي عن الزنى ، أذكر منها قوله تعالى :

(١) . المفردات في غريب القرآن ، ص : ٢٢٠ .

(٢) . سورة النور . آية ٢ ، ٣ .

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ (١) ، ومن هذا النص يتبين أن بين الزنى وقتل النفس صلة ومناسبة أوجهة جامعة ، لأن في جريمة القتل إعتداء على نفس واحدة ، فجريمة الزنا إعتداء على أنفس كثيرة كانت تريد حياة كريمة ، فلم تنلها أو نالتها ذليلة منبوذة . من أجل تلك النتائج البعيدة المدى في الجماعة وفي مصلحة الشخص نفسه ، كانت عقوبة الزنى من أغلظ العقوبات في التشريع الإسلامي .

٢ . الإعتداء بالقذف :

القذف شرعاً : هو الرمي المحصن بالزنا ، أي نسبة الشخص إلى الزنا بشروط معينة (٢) . والقذف محرم بنص القرآن ويوجب الحد بقدر ثمانين جلدة إذا توافرت شروط القذف طبقاً لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٣) .

وهذا النص القرآني يبين عقوبة القاذف في الدنيا إذا لم يقيم بينة على ما قاله . وكان المقذوف بالغاً عاقلاً عفيفاً وهو المراد بالإحصان وهي ثلاثة أمور :

١ . أن يجلد ثمانين جلدة .

٢ . أنه ترد شهادته أبداً .

٣ . أن يكون فاسقاً ليس يعدل لا عند الله تعالى ولا عند الناس .

والقذف بالزنا من السبع الموبقات وفقاً لقول الرسول ﷺ " اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا يا رسول الله وما هن ؟ قال ﷺ : (الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات) . (٤)

٥ . عقوبة الإعتداء على المال :

إن الإسلام يحافظ على المال الذي هو أصل من الأصول الخمسة ، وان من حق الإنسان أن يكون له مالا يستعين به في معيشته ليقوم بحقوق دينه ودنياه على أكمل وجه . والمال هو الذي تتوقف عليه حاجات الإنسان في كل زمان ومكان . ولما كان هذا شأن المال وضع الإسلام نظاماً كاملاً يكفل

(١) . سورة الفرقان . آية ٦٨ .

(٢) . بدائع الصنائع ، للكاساني ، ٤٠ / ٧ .

(٣) . سورة النور . آية ٤ .

(٤) . أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب المحاربيين من أهل الكفر والردة ، باب رمي المحصنات ، ص :

١١٨٢ ، رقم الحديث : ٦٨٥٧ .

حفظ أموال الناس وصيانتها من العبث والضياع ، من ذلك أن حرم الإسلام أكل أموال الناس بالباطل ، فحرم الربا والغصب والرشوة والسرقه وغير ذلك .

والإعتداء على المال يأتي من جهتين :

١ . السرقة .

٢ . الحراة أو قطع الطريق .

١ . السرقة :

يعرفها الفقهاء بأنها " الأخذ على سبيل الإستخفاء " (١) . وقال الراغب : أخذ ما ليس له أخذه في

خفاء وصار ذلك في الشرع لتناول الشيء من موضع مخصوص وقدر مخصوص . (٢)

وشرع الله تعالى عقاباً رادعاً زاجراً لكل من يتعدى على أموال الناس بالسرقة . ونص القرآن الكريم على قطع يد السارق بقوله تعالى ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ . (٣)

فقرر الله تعالى قطع يد كل من يأخذ مال غيره على وجه الخفية والإستتار عقاباً على صنيعه السيء وحيث أخذ أموال الناس بيده ناسب أن يقطع ما استعان به في ذلك تنكيلاً من الله تعالى على ارتكاب ذلك . وقد بينت السنة الشريفة مقدار نصاب السرقة التي توجب القطع .

فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " تقطع يد السارق في ربع دينار " . (٤)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه (٥) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده " . (٦)

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال " قطع النبي صلى الله عليه وسلم في مجن ثمنه ثلاثة دراهم " . (٧)

وغير ذلك من الأحاديث التي توضح ما شرعه الله تعالى من عقوبة للسارق وذلك حفظاً لأموال الناس ومنعاً من الإعتداء عليها وتأكيداً لأمن الناس وراحتهم .

(١) . بدائع الصنائع ، للكاساني ، ٦٥ / ٧ .

(٢) . المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني ، ص : ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٣) . سورة المائدة . آية ٣٨ .

(٤) . أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الحدود ، باب قول الله تعالى : (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) ، ص : ١١٧٠ ، رقم الحديث : ٦٧٨٩ .

(٥) . هو عبدالرحمن بن صخر وقيل عبد الشمس وعبدالله كان أكثر الصحابة حفظاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثرهم رواية كناه النبي صلى الله عليه وسلم بأبي هريرة أسلم عام خيبر روى عنه أكثر من ٨٠٠ رجل بين صحابي وتابعي توفي سنة ٥٧هـ انظر الإصابة ٢٠٢/٤ - ٢١١ وأسد الغابة ٣١٨/٦ - ٣٢١ .

(٦) . أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الحدود ، باب لعن السارق إذا لم يسم ، ص : ١١٦٩ ، رقم الحديث : ٦٧٨٣ .

(٧) . أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الحدود ، باب قول الله تعالى : (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) ، ص : ١١٧١ ، رقم الحديث : ٦٧٩٧ .

٢. الحراة أو قطع الطريق :

يعرفها الفقهاء " بأنها الخروج على المارة لأخذ المال على سبيل المغالبة على وجه يمتنع المارة عن المرور وينقطع الطريق ، سواء كان القطع من جماعة أو من واحد بعد أن يكون له قوة القطع ، وسواء كان القطع بسلاح أو غيره . وسما مرتكب هذه الجريمة بالمحارب . (١)

والفرق بين السرقة والحراة ، أن في السرقة يؤخذ فيها المال دون علم المجني عليه دون رضا ، أما في الحراة يؤخذ فيها المال بعلم المجني عليه ولكن بغير رضاه على سبيل المغالبة . (٢)

وقد نص القرآن الكريم على تحريم هذه الجريمة وشدد في عقوبتها . فقد شرع عقوبة قوية زاجرة على قطاع الطريق والمحاربين لله تعالى الذين يغتصبون أموال الناس ظلماً وكرهاً ويخرجون على المارة لسلب أموالهم على سبيل المغالبة والتخويف والفساد في الأرض . قال تعالى ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) ، فاعتبر الله تعالى قاطع الطريق محارب لله ولرسوله ، لأنه يحارب شرع الله ويحارب المجتمع الذي جاء الإسلام لحماية وتثبيت أمنه وسلامته لذلك وضع الإسلام لكل من يفعل ذلك عقوبة تتناسب مع بشاعة جريمته .

روى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال " إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا . وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعوا أيديهم وأرجلهم من خلاف . وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا نفوا من الأرض " . (٤)

ولقد أوقع الرسول صلى الله عليه وسلم أفضع العقوبات على من فعل ذلك . روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه : " أن نفرا من عكل ثمانية قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعوه على الإسلام فاستوخموا الأرض وسقمت أجسامهم فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (ألا تخرجون مع راعينا في إبله فتصيبون من أبوالها وألبانها ؟) فقالوا بلى فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها فصحوا فقتلوا الراعي وطردهوا الإبل فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعث في آثارهم فأدركوا فحجىء بهم فأمر بهم ففقطعت أيديهم وأرجلهم وسمر أعينهم ثم نبدوا في الشمس حتى ماتوا (٥) .

(١) . بدائع الصنائع ، للكاساني ، ٧ / ٩٠ ، ٩١ .

(٢) . التشريع الجنائي الإسلامي ، عبدالقادر عودة ، ٢ / ٥١٤ ، ط : الرابعة عشرة ، مؤسسة الرسالة . بيروت ١٩٩٧ م .

(٣) . سورة المائدة . آية ٣٣ .

(٤) . تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ص : ٦١٢ .

(٥) . أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات ، باب حكم المحاربين والمرتدين ص : ٧٣٨ ، رقم الحديث : ١٠ .

هذا ما شرعه الله تعالى من عقوبات للجرائم الكبيرة التي تهدد كيان المجتمع وتصيب بنيانه وتخيف أفرادَه وتسلب سلامته وأمنه .

٦. التعزيرات :

معناه لغة : ضرب دون الحد ، لمنع الجاني عن المعاودة وردعه عن المعصية (١) .
وشرعاً : " تأديب على ذنوب لم تشرع فيها الحدود " (٢) .

فإن جرائم التعزير هي محظورات شرعية ليس لها عقوبة مقدرة من قبل الشارع ، وتختلف مقادير هذه العقوبة وصفاتها حسب كبر الذنوب وصغرها ، وحسب حال المذنب وحال الذنب في قتلته وكثرته ، وقد ذكر ابن تيمية امثلة لهذه المعاصي مثل الخلوة بالأجنبية أو المباشرة بلا جماع أو أكل ما لا يحل كالدُم والميتة أو القذف بغير الزنا أو السرقة من غير حرز أو شيئاً يسيراً أو الخيانة من الأمانة أو الغش في المعاملة كالغش في الأطمعة والثياب وما إلى ذلك أو شهادة الزور أو الإلقاء أو الإشارة في حكم أو الحكم بغير ما أنزل الله أو غير ذلك من أنواع المحرمات .

قال الإمام ابن تيمية ما نصه : " وأما المعاصي التي ليس فيها حد مقدر ولا كفارة كالذي يقبل الصبي والمرأة الأجنبية أو يباشر بلا جماع أو يأكل ما لا يحل كالدُم والميتة أو يقذف الناس بغير الزنا أو يسرق من غير حرز أو شيئاً يسيراً أو يخون أمانته كولاية أموال بيت المال أو الوقوف ومال اليتيم ونحو ذلك إذا خانوا فيها وكالولاء والشركاء إذا خانوا أو يغش في معاملته كالذين يغشون في الأطمعة والثياب ونحو ذلك أو يطفف المكيال والميزان أو يشهد بالزور أو يلغن شهادة الزور أو يرتشي في حكمه أو يحكم بغير ما أنزل الله أو يعتدي على رعيته أو يتعزى بعزاء الجاهلية أو يلي داعي الجاهلية إلى غير ذلك من أنواع المحرمات فهؤلاء يعاقبون تعزيراً وتنكيلاً داعي الجاهلية إلى غير ذلك من أنواع المحرمات فهؤلاء يعاقبون تعزيراً وتنكيلاً وتأديباً بقدر ما يراه الوالي على حسب كثرة ذلك الذنب في الناس وقتله فإذا كان كثيراً زاد في العقوبة بخلاف ما إذا كان قليلاً وعلى حسب حال المذنب فإذا كان من المدمنين على الفجور زيد في عقوبته بخلاف المقل من ذلك وعلى حسب كبر المذنب وصغره

(١) . انظر: لسان العرب ، لابن منظور، بتحقيق : عامرأحمد ، مادة (عزر) ، ٦٤٦/٣ ، ط : الأولى ١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٣ م ، دارالكتب العلمية ، بيروت . وتاج العروس ، للزبيدي ، بتحقيق: د/ حسين نصار ، ٢٠/١٣ ، مطبعة حكومة الكويت.

(٢) . الأحكام السلطانية ، لأبي الحسن الماوردي ، ص : ٢٣٦ ، دارالكتب العلمية ، بيروت ١٣٩٨ هـ ، ١٩٧٨ م .

فيعاقب من يتعرض لنساء الناس وأولادهم ما لا يعاقبه من يتعرض لإمرأة واحدة أو صبي واحد " (١).

والإمام أو من ينوب عنه ، يقدر عقوبة التعزير . ولهذا قال الفقهاء أن من الفروق بين الحد والتعزير أن الحد مقدر والتعزير مفوض إلى رأى الإمام . والإمام أو نائبه ، كالقاضى ، في تقديره عقوبة التعزير لا يصدر الحكم عن الهوى وإنما من واجبه أن يلاحظ جسامة الجريمة وظروفها ومقدار ضررها وحال الجاني من كونه ذوى الأخلاق والجاه ولم يرتكب من قبل جريمة . من أجل هذا تركت الشرعية الإسلامية المجال فسيحاً ، والامر متسعاً أمام القاضى أو ولى الأمر لتقدير الملائم من هذه العقوبات . وهو من باب السياسة الشرعية ، بل قد اعتبر بعض الفقهاء السياسة الشرعية هي التعزير ، أو العكس .

ويمكن القول بأن العقوبات المقدرة في الشريعة ، هي طريق الوصول إلى العقوبات غير المقدرة . وانه يمكن ان نأخذ من الحدود أساساً تبنى عليه عقوبات جرائم التعزير ، ذلك أن حدود الله تعالى قد جاءت من أجل رعاية المصالح المعتبرة في الإسلام ، فكل ما يتضمن المحافظة على الأصول الخمسة أو أدى إلى ذلك فهو مصلحة وكل ما تضمن تفويتها أو أدى إليه فهو مفسدة .

فالقاعدة العامة في ذلك أن كل عقوبة تؤدي الى تأديب المجرم واستصلاحه وزجر غيره وحماية الجماعة من شر المجرم والجريمة هي عقوبة مشروعة . (٢)

(١) . السياسة الشرعية ، لإبن تيمية ، ص : ١١١-١٢ ، ط : الرابعة ، دارالكتاب العربي ، بمصر .
(٢) . التشريع الجنائي الإسلامي ، عبدالقادر عودة ، ١ / ٦٨٦ .

الفصل الثاني : الجزء الإلهي في الآخرة

المبحث الأول : الجزء الإلهي في الآخرة للصالحين :

التمهيد :

١ . الجزء في الدنيا ليس شاملاً :

وبعد أن ذكرنا في الفصل الماضي بعض مظاهر الجزء الدنيوي للصالحين والطالحين ، أريد أن أنبه هنا إلى أمر مهم وهو أن الجزء في الدنيا ليس شاملاً ولا كاملاً . فقد يفعل أحد الناس خيراً ولا يعطى ثوابه في الدنيا بل يدخر الله تعالى له الثواب في الآخرة . وقد يفعل البعض إجراماً ومعاصي ، ولا يلحقه شيئاً من العقاب في الدنيا بل يمهل الله تعالى إلى الآخرة ليكون عقابه أشد وعذابه أقوى وأغلظ . لذا الجزء بنوعيه ثواباً أم عقاباً ليس شاملاً ولا تاماً ولا كاملاً في الدنيا ، وهذا ما تؤكد وتدعمه آيات القرآن الكريم يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ (١) ، يبين الله تعالى أن كل ما يصيب الناس من مصائب في الدنيا إنما هي بسبب ما كسبت واقترفت أيديهم من سيئات ومعاصي ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ ، لبيان أنه تعالى قد يعفوا عن كثير من السيئات فلا يعاقب عليها بل يعفوا عنها .

ذكر الإمام الرازي في تفسيره : " بأن الله تعالى جعل ذنوب المؤمنين صنفين : صنف كفره عنهم بالمصائب في الدنيا ، وصنف عفا عنه في الدنيا ، وهو كريم لا يرجع في عفوه ، وهذه سنة الله مع المؤمنين ، وأما الكافر فلأنه لا يعجل عليه عقوبة ذنبه حتى يوافي ربه يوم القيامة " . (٢)

ويزيد الأمر تقريراً وتأكيدياً ، قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ (٣) ، ومعناه أن الله تعالى لو أخذ الناس في الدنيا بجميع ذنوبهم لأهلك جميع أهل الأرض ولكنه يمهلهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم يوم الحساب الأوفى ، ويجازى كل عامل بعمله فتثيب أهل الطاعة ويعاقب أهل المعصية .

(١) . سورة الشورى . آية ٣٠ .

(٢) . التفسير الكبير ، لإمام الرازي ، ١٤ / ١٧٤ ، دار الفكر ، بيروت . ط : ١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠ م .

(٣) . سورة فاطر . آية ٤٥ .

٢ . الجزء الأخرى :

إن القارئ للقرآن الكريم والمتدبر في آياته يلحظ في كل سورة من سور القرآن الكريم الإهتمام البالغ بالحياة الآخرة بحيث لا تخلو سورة من سور القرآن من ذكر الآخرة أو الإشارة إليها ، بل نجد بعض السور تتجه كل آياتها لتحلية معالم الآخرة وإبراز حقائقها وصورها . وذلك لإقناع الناس بأن الدار الآخرة هي الحق الواقع والأصل الثابت يرى فيها المرء الجزء الكامل على أعماله في الدنيا إن خيراً فخير إن شراً فشر . والدار الآخرة هي الدار الحاصلة بعد الموت التي يقع فيها البعث والنشور والحشر والحساب والجنة والنار . يقول الراغب " ويعبر بالدار الآخرة عن النشأة الثانية كما يعبر بالدار الدنيا عن النشأة الأولى . (١)

فالحياة الآخرة هي التي يتحقق فيها الجزء التام الكامل على الأعمال وتشمل كل ما وردت به النصوص القطعية من بعث وحشر وحساب وجنة ونار .

٣ . وجود الجنة والنار :

من المتفق عليه عند الجمهور أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان وهما باقيتان ، وأن الله تعالى قد أعدهما وهياً ليكونا مستقراً لعباده الجنة لأهل الطاعة والإيمان . والنار لأهل الكفر والعصيان . ولم يخالف ذلك إلا بعض ممن ضعف إيمانهم وتضاءلت عقولهم عن فهم النصوص القطعية الثابتة الدالة على وجود الجنة والنار وأنها مخلوقتان وما تمسكوا به من أدلة لا ينظر إليه ولا يؤبه به لذلك أذكر هنا فقط الأدلة التي تمسك بها العلماء المحققون من أهل السنة والجماعة .

يقول ابن القيم : " لم يزل أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون وتابعوهم وأهل السنة والحديث قاطبة وفقهاء الإسلام وأهل التصوف والزهد على إعتقاد ذلك وإثباته مستنديين في ذلك إلى نصوص الكتاب والسنة وما علم بالضرورة من أخبار الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم فإنهم دعوا الأمم إليها وأخبروا بها ، إلى أن نبغت نابغة من القدرية والمعتزلة فأنكرت أن تكون مخلوقة الآن وقالت بل الله ينشئها يوم القيامة وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة الله فيما يفعله " (٢) ويقول ابن حزم (٣) : " ذهب طائفة من المعتزلة والخوارج إلى أن الجنة والنار لم يخلقها بعد وذهب

(١) . مفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني ، ص : ٢٣ .

(٢) . حادي الأفراح إلى بلاد الأفراح ، لابن القيم ، بتحقيق : الدكتور السيد الجميلي ، الباب الأول : في بيان وجود الجنة ، ص : ٣٧ ، الطبعة الرابعة ١٤٠٩ هـ ، ١٩٨٨ م ، دار الكتاب العربي .

(٣) . هو الإمام أبو محمد علي بن أحمد الشهير بابن حزم الأندلسي الظاهري صاحب اللسان الشديد برع في فنون كثيرة ومن مؤلفاته: المحلى في الفقه، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ولد سنة ٣٨٤ هـ وتوفي سنة ٤٥٦ هـ انظر : سير أعلام النبلاء ١٨/١٨٧-٢١١ .

جمهور المسلمين إلى أنهما قد خلقتا وما نعلم لمن قال أنهما لم يخلقا " . (١) .

ولقد تضافرت نصوص القرآن والسنة على إثبات ما ذهب جمهور المسلمين من كون الجنة والنار مخلوقتان الآن فالله تعالى يقول في شأن الجنة : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) ، ويقول تعالى ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (٣) ، وغير ذلك من الآيات التي تدل على أن الجنة مخلوقة موجودة الآن . وقد عبر القرآن بصيغة الماضي في قوله (أعدت) وهذا التعبير يفيد أنها مخلوقة موجودة وفي قصة المعراج يقول تعالى ﴿ وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * إِذْ يَعْشَىٰ السُّدْرَةَ مَا يَعْشَىٰ ﴾ (٤) ، مما يفيد أن النبي ﷺ رأى سدرة المنتهى ورأى عندها جنة المأوى كما في حديث أبي ﷺ في قصة الإسراء حيث يقول في آخره : (ثم أنطلق بي جبريل حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى وغشيها ألوان لا أدرى ما هي ؟ ثم دخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك " (٥) . وأخبر الله تعالى أنهما الجنة التي يدخلها المؤمنون يوم القيامة فقال تعالى : ﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٦) .

ويقول في شأن النار : ﴿ وَأَتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (٧) ، ويقول تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ (٨) ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴾ (٩) ، وقال تعالى : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (١٠) .

وغير ذلك من الآيات الدالة على وجود النار . أما الأحاديث الدالة كذلك على وجود الجنة والنار وأنهما مخلوقتان فكثيرة تقتصر على ذكر حديتين فقط منها عن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال :

(١) . الفصل والملل والأهواء والنحل ، لابن حزم ، الكلام في خلق الجنة والنار ، ٤ / ٨١ ، دار الفكر ، ١٤٠٠ هـ ، ١٩٨٠ م .

(٢) . سورة آل عمران . آية ١٣٣ .

(٣) . سورة الحديد . آية ٢١ .

(٤) . سورة النجم . آية ١٣ - ١٦ .

(٥) . أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأنبياء ، باب ذكر إدريس عليه السلام ، ص : ٥٥٦ ، رقم الحديث : ٣٣٤٢

(٦) . سورة السجدة . آية ١٩ .

(٧) . سورة آل عمران . آية ١٣١ .

(٨) . سورة الكهف . آية ٢٩ .

(٩) . سورة الكهف . آية ١٠٢ .

(١٠) . سورة غافر . آية ٤٦ .

" إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغدادة والعشى إن كان من أهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة " . (١)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . فافروا إن شئتم (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) . (٢) وغير ذلك من الأحاديث التي تقرر وتؤكد أن الجنة والنار مخلوقتان وموجودتان الآن ومعدتان لإستقبال الخلق .

مظاهر الجزاء الإلهي في الآخرة للصالحين :

إن الله تعالى قد وعد عباده المؤمنين الأبرار بدار في الآخرة ينعمون بجمالها و يتهجون بحسنها و يقيمون في ظلها و ينالون فيها كل ما تشتهيهم أنفسهم و تقر به أعينهم ثواباً من الله تعالى بسبب ما قاموا به من أعمال حسنة طيبة و مراعاتهم لمسئلياتهم ، وأدائهم لأمر عبادتهم .
و القارئ للقرآن الكريم ليجد فيه ذكر كثير من هذه الألوان النعم وهذا الخير الذي وعد الله تعالى عباده الصالحين . ولو تتبعنا كل ما جاء في القرآن الكريم من ذلك فسوف يطول الحديث جدا .
ولهذا سوف اقتصر فيما يلي على بعض مظاهر هذه النعم التي أعدها الله تعالى لعباده الصالحين في الآخرة .

١ . الجنة متبواً المؤمنين :

يقرر القرآن الكريم في كثير من آياته الكريمة أن الجنة و نعيمها متبواً المؤمنين و مستقرهم و ميراثهم الذي يرثونه بسبب أعمالهم الطيبة في الدنيا قال تعالى ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ (٣) ، كما قال تعالى ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٤) كما قال تعالى ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٥) .
ولذلك كان من دعاء ابراهيم عليه السلام فيما حكاه القرآن الكريم ﴿ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ (٦) ويقول الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا ﴾ (٧) ، فالله

(١) . صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب الميت يعرض عليه بالغدادة والغشي ، ص : ٢٢١ ، رقم الحديث : ١٣٧٩ .

(٢) . صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ، ص : ٥٤١ ، رقم الحديث : ٣٢٤٤ .

(٣) . سورة مريم . آية ٦٣ .

(٤) . سورة المؤمنون . آية ١٠ ، ١١ .

(٥) . سورة الزخرف . آية ٧٢ .

(٦) . سورة الشعراء . آية ٨٥ .

(٧) . سورة العنكبوت . آية ٥٨ .

سبحانه وتعالى هياً وسوى و زين الجنة للمؤمنين ، لذا يقولون عند دخولهم إليها : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدُّهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ . (١)

فحمدوا الله تعالى واثنوا عليه حيث أورثهم الجنة وجعلها متبؤهم ومستقرهم وحقق لهم ما وعدهم به في مثل قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ (٢) ، وغير ذلك من الآيات الكريمة التي تؤكد وعد الله تعالى للمؤمنين بأن الجنة ميراثهم و متبؤهم و مستقرهم .

٢ . تحيتهم بالسلام :

أن أهل الطاعة والإيمان الذين عاشوا في الدنيا مسلمين لله ﷻ يتفضل الله تعالى عليهم في الآخرة بسلامه كما قال تعالى : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾ (٣) ، كما تحييهم الملائكة بالسلام كلما دخلوا عليهم أو شاهدوهم يقول الله تعالى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (٤) ، كما يحيونهم بذلك عند دخولهم الجنة ﴿ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ . (٥)

ويكون السلام تحية بعضهم بعضا ، يقول الله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٦) ، و كما قال تعالى : ﴿ وَيُلقُونَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ (٧) . فحياتهم في الجنة خالية عن اللغو والعبث مملوءة بالسلام كما قال تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَعْوًا وَلَا تَأْتِيهَا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ . (٨)

٣ . عدم الخوف :

إن الله تعالى يتفضل على أهل الجنة من المؤمنين والصالحين فيبعد عنهم الخوف والحزن والقلق ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ . (٩)

(١) . سورة الزمر . آية ٧٣ .

(٢) . سورة الكهف . آية ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٣) . سورة يس . آية ٥٨ .

(٤) . سورة النحل . آية ٢٣ ، ٢٤ .

(٥) . سورة النحل . آية ٣٢ .

(٦) . سورة يونس . آية ١٠ .

(٧) . سورة الفرقان . آية ٧٥ .

(٨) . سورة الواقعة . آية ٢٦ .

(٩) . سورة طه . آية ١٢٣ .

فاذا كان الخوف قد نفى عن أهل الجنة فهذا يدل على أن كل أسباب ذلك مبعدة عنهم . لذلك سوف يناديهم الله تعالى ويمن عليهم بقوله : ﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ (١)

وهنا يفرح المؤمنون بذلك ويقولون ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (٢) فهم يثنون ويحمدون ربهم على ما أراحه عنهم مما كانوا يخافونه و يحذرونه . وبالجملة فإن الله تعالى يتفضل وينعم على عباده المؤمنين في الجنة بأن يريح عنهم كل ما يخيفهم أو يجزئهم ، فيحيون في الجنة بسلام آمنين .

٤. طعام وشراب أهل الجنة :

لقد وصف الله تعالى طعام أهل الجنة وبين أن فيه من أنواع الملذات ما تشتهيها الأنفس وتلذ به الأعين ، في آيات كثيرة من القرآن الكريم . يقول الله تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴾ (٣) أي مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ " (٤) ، كما يقول تعالى : ﴿ مُتَّكِنِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾ (٥) ويقول تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ (٦) ، وغير ذلك من الآيات التي تخبر بأن ثمار الجنة وطعامها كثير ومتنوع . يقول تعالى : ﴿ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ (٧) . وهذه الطعوم والثمار تكون قريبة دانية من أهل الجنة تقدم إليهم وهم مكرمون ، يقول تعالى : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (٨)

كما أن الله تعالى يتفضل على أهل الجنة بألذ الشراب وأطيبه ، يقول تعالى في وصف شراهم : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ (٩) ، وقال تعالى : ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَعْوٌ فِيهَا

(١) . سورة الزخرف . آية ٦٨ .

(٢) . سورة فاطر . آية ٣٤ .

(٣) . سورة يس . آية ٥٧ .

(٤) . تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ص : ١٥٧٢ .

(٥) . سورة ص . آية ٥١ .

(٦) . سورة محمد . آية ١٥ .

(٧) . سورة الرحمن . آية ٥٢ .

(٨) . سورة الصافات . آية ٤٢ ، ٤٣ .

(٩) . سورة محمد . آية ١٥ .

وَلَا تَأْتِيهِمْ ﴿١﴾ " أي يتعاطون فيها كأسا أي من الخمر ، لا يتكلمون فيها بكلام لاغ أي هذيان ولا إثم أي فحش كما يتكلم به الشربة من أهل الدنيا " . ﴿٢﴾

٥ . درجات أهل الجنة :

يخبرنا الله تعالى أن الجنة درجات بعضها فوق بعض وأن لكل مؤمن درجة خاصة على حسب إيمانه وطاعته وأعماله الصالحة . قال تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٣﴾ ، يقول القرطبي في تفسير هذه الآية : " وفي هذا ما يدل على أن المطيع من الجن في الجنة والعاصي منهم في النار كالإنس سواء وهو أصح ما قيل في ذلك فاعلمه ومعنى ولكل درجات أي ولكل عامل بطاعة درجات في الثواب ولكل عامل بمعصية دركات في العقاب " . ﴿٤﴾ ويقول ابن كثير " أي ولكل عامل في طاعة الله أو معصيته مراتب ومنازل من عمله يبلغه الله إياها ويثيبه بها إن خيرا فخير وإن شرا فشر " ﴿٥﴾ . ويؤكد هذا قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَيُؤْتِيهِمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ﴿٦﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ﴿٧﴾ ، وقوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ ﴿٨﴾ ، فأهل الجنة يتفاوتون في الدرجات فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه ولا يرى الذي هو أسفل منه أنه فضل عليه أحد و يوضح هذه الدرجات ويفسرها الرسول ﷺ بقوله " في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاها درجة ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة ومن فوقها يكون العرش فإذا سألتهم الله فسلوه الفردوس " . ﴿٩﴾ وقال النبي ﷺ " إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكواكب الدري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم قالوا يا رسول الله ﷺ تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين " . ﴿١٠﴾

(١) . سورة الطور . آية ٢٣ .

(٢) . تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ص : ١٧٧١ .

(٣) . سورة الأنعام . آية ١٣٢ .

(٤) . الجامع لأحكام القرآن ، لإمام القرطبي ، ٧ / ٨٧ ، ٨٨ .

(٥) . تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ص : ٧٢٣ .

(٦) . سورة الأحقاف . آية ١٩ . .

(٧) . سورة النساء . آية ٩٦ .

(٨) . سورة الأنفال . آية ٤ .

(٩) . أخرجه الترمذي في سننه ، صفة الجنة ، في صفة درجات الجنة ، ص : ٥٧٣ ، رقم الحديث : ٢٥٢٩ .

(١٠) . صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ، ص : ٥٤٣ ،

رقم الحديث : ٣٢٥٧ .

٦. مساكن أهل الجنة :

إن الله تعالى قد وعد عباده المؤمنين الصالحين المتقين بمساكن طيبة في الجنات ثواباً على أعمالهم الصالحة في الدنيا . يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (١) ، وبين الله تعالى بأن هذه المساكن غرف مبنية بعضها فوق بعض . يقول الله تعالى : ﴿ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنَ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾ (٢) ، " أحرر عَلَى عن عباده السعداء أن لهم غرفاً في الجنة وهي القصور أي الشاهقة ﴿ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ﴾ طباق فوق طباق مبنيات محكمات مزخرفات عاليات " . (٣)

وقد وصف الله تعالى هذه المساكن بأنها طيبة حسنة جميلة بقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٤) ، كما وصف بأن أهل الجنة سوف يكونون في أمن وسلامة ولا يخافون شيئاً في الجنة وفي مساكنهم التي يسكنونها . قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ ﴾ (٥) ، أي هم في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى ومن كل شر يجذر منه .

كما أخبرنا الله تعالى إن أهل الجنة يدخلونها و يتعرفون على مساكنهم فيها كأنهم قد سكنوها قبل ذلك . يقول تعالى ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ (٦) ، قال مجاهد : يهتدى أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم ، وحيث قسم الله تعالى لهم منها ، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا ، لا يستدلون عليها أحداً (٧) . وبذلك يحيا المؤمنون في الجنة وقصورها ومساكنها حياة سعيدة هادئة طيبة يقيمون فيها أبداً ولا ييغون عنها حولاً .

٧. أهل الجنة يرثون نصيب أهل النار في الجنة :

جعل الله لكل واحد من بني آدم منزلين : منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار ، ثم إن من كتبت له الشقاوة من أهل الكفر والشرك يرثون منازل أهل الجنة التي كانت لهم في النار ، والذين كتب لهم السعادة من

(١) . سورة العنكبوت . آية ٥٨ .

(٢) . سورة الزمر . آية ٢٠ .

(٣) . تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ص : ١٦١٧ .

(٤) . سورة التوبة . آية ٧٢ .

(٥) . سورة سبأ . آية ٣٧ .

(٦) . سورة محمد . آية ٦ .

(٧) . تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ص : ١٧١٨ .

أهل الجنة يرثون منازل أهل النار التي كانت لهم في الجنة ، قال تعالى في حق المؤمنين المفلحين بعد أن ذكر أعمالهم التي تدخلهم الجنة : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١) ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " ما منكم من أحد إلا وله منزلان : منزل في الجنة ومنزل في النار ، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ . (٢)

وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية : فالمؤمنون يرثون منازل الكفار ، لأنهم خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له ، فلما قام هؤلاء بما وجب عليهم من العبادة ، وترك أولئك ما أمروا به مما خلقوا له ، أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم ﷻ ، بل أبلغ من هذا أيضا ، وهو ما ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ قال : " يجيء ناس يوم القيامة من المسلمين بذنوب أمثال الجبال ، فيغفرها الله لهم ، ويضعها على اليهود والنصارى " (٣) ، وقال النبي ﷺ " إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً ، فيقول : هذا فكاك من النار " (٤) ، وهذا الحديث كقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الْحِجَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ (٥) ، أي " هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة هي التي نورثها عبادنا المتقين وهم المطيعون لله ﷻ في السراء والضراء والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس " . (٦)

وذكر الرازي قول الحسن في تفسير هذه الآية " أن المراد أنا ننقل تلك المنازل ممن لو أطاع لكانت له إلى عبادنا الذين اتقوا ربهم فجعل هذا النقل إرثاً " . (٧)

(١) . سورة المؤمنون . آية ١٠ - ١١ .

(٢) . أخرجه ابن ماجه في سننه ، كتاب الزهد ، باب صفة الجنة ، ص : ٦٣٥ ، رقم الحديث : ٤٣٤١ .

(٣) . أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب التوبة ، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله ، ص : ١٢٠٠ ، رقم الحديث : ٥١ .

(٤) . أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب التوبة ، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله ، ص : ١١٩٩ ، رقم الحديث : ٤٩ .

(٥) . سورة مريم . آية ٦٣ .

(٦) . تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ص : ١١٩٥ و ص : ١٢٩٢ .

(٧) . التفسير الكبير ، لإمام الرازي ، ١١ / ٢٠٣ ، دارالكتب العلمية ، بيروت . ط : الثانية ١٤٢٥ هـ ، ٢٠٠٤ م .

٨ . أفضل ما يُعطاه أهل الجنة :

وأفضل ما يعطاه أهل الجنة من النعيم هو رضوان الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم . وقد صرح الحق تبارك وتعالى برؤية العباد لربهم في جنات النعيم بقوله ﴿ وَجُورَةٌ يَوْمَئِذٍ تَأْخُذُهَا * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ (١) والكفار والمشركون يجرمون من هذا النعيم العظيم ، والتكرمة الباهرة ، قال تعالى ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ . (٢)

وقال النبي ﷺ : " إذا دخل أهل الجنة ، يقول تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة ، وتنجنا من النار؟ قال : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى " ، زاد في رواية : " (٣) ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٤) ، وقد فسرت الحسنی بالجنة ، والزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم ، كما يشير إليه الحديث .
والنظر إلى وجه الله تعالى هو من المزيد الذي وعد الله به المحسنين كما قال تعالى : ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ (٥) ، وفي حديث عن النبي ﷺ : " إن للمؤمن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوقة ، عرضها - وفي رواية طولها - ستون ميلاً ، في كل زاوية منها أهل ، ما يرون الآخريين ، يطوف عليهم المؤمن ، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكرياء على وجهه في جنة عدن " . (٦)

٩ . صحبة أسرهم وأهل مودتهم :

لقد بشر الله تعالى ووعد عباده الأبرار المتقين الصالحين بأنه يجمعهم بأسرهم وأهل مودتهم في الجنة ، كما قال تعالى : ﴿ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ (٧) ، قال ابن كثير : أي يجمع بينهم وبين أحبهم فيها من الأبناء والأهلين والأبناء ، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين ؛ لتقر أعينهم بهم ، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى ، من غير تنقيص لذلك الأعلى عن درجته ، بل امتناناً من الله وإحساناً (٨)

(١) . سورة القيامة . آية ٢٢ - ٢٣ .

(٢) . سورة المطففين . آية ١٥ .

(٣) . أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ، ص : ٩٢ ، رقم الحديث : ٢٩٧ .

(٤) . سورة يونس . آية ٢٦ .

(٥) . سورة ق . آية ٣٥ .

(٦) . أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب التفسير ، سورة الرحمن ، ص : ٨٦٣ ، ٤٨٧٩ .

(٧) . سورة الرعد . آية ٢٣ .

(٨) . تفسير القرآن الكريم ، لابن كثير ، ص : ١٠١١ .

كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (١) ، وقال في تفسير هذه الآية " يخبر تعالى عن فضله وكرمه ، وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه : إن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يلحقهم بأبائهم في المترلة وإن لم يبلغوا عملهم ، لتقر أعين الأباء بالأبناء عندهم في منازلهم ، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه ، بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل ، ولا ينقص ذلك من عمله ومترلته ، للتساوي بينه وبين ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ ﴾ " (٢)

١٠ . خلود النعمة :

يقرر القرآن الكريم في كثير من الآيات بأن نعم الدنيا فانية ، ونعم الآخرة باقية أبدية ، لذلك سمى الله تعالى ما زين للناس من زهرة الدنيا متاعاً ، لأنه يتمتع به ثم يزول ، أما نعيم الآخرة فهو باق ، ليس له نفاذ ، كما قال تعالى : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ . (٣)

قال ابن كثير (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ) أي يفرغ وينقضي فإنه إلى أجل محدود محصور مقدر متناه (وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ) أي وثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع ولا نفاذ له فإنه دائم لا يحول ولا يزول (٤) .
وكما قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَرْزُقْنَا مَا لَهُ مِنْ نَّفَادٍ ﴾ (٥) ، وقال تعالى : ﴿ أَكُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ . (٦)

وهناك آيات كثيرة تؤكد وتقرر دوام واستمرار أهل الجنة في الجنة بلا انقطاع ودوام الجنة وأبديتها .
قال تعالى : ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٧) ، وقال تعالى : ﴿ وَيُشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَا كَثِيرٌ فِيهِ أَبَدًا ﴾ (٨) ، وقال تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (٩) ، نرى في هذه الآيات المتقدمة بأن الله تعالى قد كرر لفظ : ﴿ أبدا ﴾ وهذا اللفظ لا يأتي إلا بعد وصف أهل الجنة بالخلود فيها أو المكث .

(١) . سورة الطور . آية ٢١ .

(٢) . تفسير القرآن الكريم ، لابن كثير ، ص : ١٧٧١ .

(٣) . سورة النحل . آية ٩٦ .

(٤) . تفسير القرآن الكريم ، لابن كثير ، ص : ١٠٧٥ .

(٥) . سورة ص . آية ٥٤ .

(٦) . سورة الرعد . آية ٣٥ .

(٧) . سورة المائدة . آية ١١٩ .

(٨) . سورة الكهف . آية ٣ .

(٩) . سورة التوبة . آية ٢٢ .

وكل هذا يقرر أبدية الجنة وخلودها ودوام أهلها فيها . ويزيد الأمر تأكيداً في أحاديث رسول الله ﷺ ، قال ﷺ : " إذا صار أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار ، جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح ثم ينادي مناد يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزنًا إلى حزنهم " . (١)

وقال رسول الله ﷺ : " يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار فيقال يا أهل الجنة هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت ، قال : ويقال يا أهل النار هل تعرفون هذا ؟ قال : فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت ، قال فيؤمر به فيذبح ، قال ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، قال ثم قرأ رسول الله ﷺ :

﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ . (٢)

هذه هي بعض المظاهر التي ذكرناها في ضوء الآيات القرآنية من ألوان النعيم وأنواع الخير في الآخرة للصلحين ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وهذا هو الفوز الكبير الذي يناله عباد الله المؤمنون الذين سلكوا سبيل ربهم ، واتبعوا سبيل نبيهم ، وقاموا برعاية الأمانة والمسئولية الموكلة إليهم . فهم يجيئون في الجنة حياة سرمدية أبدية ، يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ . (٣)

المبحث الثاني : الجزاء الالهي في الآخرة للطالحين :

لقد أخبرنا المولى ﷺ في كتابه الكريم وعلى لسان الرسول ﷺ بأن النار هي مثوى الكافرين بالله والمستكبرين عن طاعته وعبادته وأنها منازل ودرجات تتناسب مع مستوى الإجرام والمعصية بمقتضى العدل الإلهي .

وإن القرآن الكريم قد أكثر من ذكر النار وأوصافها و بيان ما فيها من ألوان العذاب وأشكاله حتى لا تكاد تخلوا سورة من سور القرآن من الحديث عن العقاب الذي سوف يصيب الكفار والعصاة في النار . ولقد فصل الله تعالى في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أهوال النار وعذاب أهلها وما يقاسون فيها من شدة العذاب في كثير من الآيات . ولو تتبعنا عن كل هذه الآيات

(١) . أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار ، ص : ١١٣٤ ، رقم الحديث : ٦٥٤٨

(٢) . أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها

الضعفاء ، ص : ١٢٣٧ ، رقم الحديث : ٤٠ . وانظر : سورة مريم . آية ٣٩ .

(٣) . سورة الشورى . آية ٢٢ .

سوف يطول البحث ويكثر الحديث . لذلك سوف أختصر في هذا الحديث على ذكر بعض ألوان من عذاب النار و أهلها في المظاهر الآتية :

١. النار مثوى و مأوى الكافرين :

يخبرنا الله تعالى في كثير من الآيات بأن النار مثوى الكفار والعصاة والمتكبرين وإليها مآلهم ومرجعهم كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَابًا ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ (٢) ، أي قرارهم فيها وبئس المقر جهنم وقال تعالى : ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٣) والله عَجَلٌ جعل النار دركات ، كما جعل الجنة درجات ، جعلها دركات مختلفة في الجحيم و العذاب ، فمنها : سقر ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَاحٍ لِّبَشَرٍ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ (٤) . ومنها الحطمة ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْنِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ * فِي عَمْدٍ مُّمدَّدةٍ ﴾ (٥) . ومنها لظى ، قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى * تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ (٦) ، ومنها الهاوية ، قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ * نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ (٧) . ومنها جهنم ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٨) .

وكل اسم من هذه الأسماء فيه ترعيب و ترهيب و تخويف يقشعر منه القلب و يهتز لسماعه الفؤاد و يذوب منه الشعور والوجدان . وذلك لتخويف الطغاة والكفار .

وأخبرنا الله تعالى بأن لها سبعة أبواب ، يدخل منها أصحاب السيئات على قدر سيئاتهم ، و كل إنسان عاص يدخل من باب بحسب عمله قال تعالى : ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ (٩) وقال قتادة " هي والله منازل بأعمالهم " (١٠) ، فإذا استقر أهل النار فيها كل في دركه الذي يناسب عمله وكسبه ، ذاقوا حرها ونالوا بالها وقاسوا شدتها ونكاتها .

(١) . سورة النبأ . آية ٢١ ، ٢٢ .

(٢) . سورة إبراهيم . آية ٢٨ .

(٣) . سورة التوبة . آية ٩٥ .

(٤) . سورة المدثر . آية ٢٧ - ٣٠ .

(٥) . سورة الهمزة . آية ٥ - ٩ .

(٦) . سورة المعارج . آية ١٥ - ١٨ .

(٧) . سورة القارعة . آية ٨ - ١١ .

(٨) . سورة الحجر . آية ٤٣ .

(٩) . سورة الحجر . آية ٤٤ .

(١٠) . تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ص : ١٠٤٧ .

٢. النعم وألوان الخير التي يحرم منها أهل النار :

ولقد أخبرنا الله تعالى في القرآن الكريم عن النعم وألوان الخير التي يسلبها الله تعالى ويجرمها على أهل النار .

منها حبوط أعمالهم : قال تعالى : ﴿ يَرْتَدِدُ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١) ، كما قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴾ (٢) ، وحبوط الأعمال أي ذهاب أثرها وثوابها .

ومنهم يأسهم من رحمة الله تعالى : يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣) ، أي يسوا من ثواب الآخرة ونعيمها .

كما تسلب منهم نعمة مغفرة الذنوب : كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴾ (٤) ، كما أن الله تعالى لا ينظر إليهم ولا يزيكهم يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٥) .

كما يحرمون من النور يوم القيامة يقول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ (٦) ، فعندما يفشى الناس يوم القيامة ظلمة شديدة يعطى الله المؤمن نورا يستضيء به ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئا . وهو المثل الذي ضربه الله في سورة النور بقوله : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ (٧) . فهذا مثل ضربه الله للكافر يوم القيامة حيث يكون في ظلمات متراكمة ويجرم من نور الله بسبب أعماله .

بل يحرمون من كل ما يشتهون يقول الله تعالى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّبِينٍ ﴾ (٨) ، فانه يحال بينهم وبين شهواتهم في الدنيا وبين ما طلبوه

(١) . سورة البقرة . آية ٢١٧ .

(٢) . سورة الكهف . آية ١٠٥ .

(٣) . سورة العنكبوت . آية ٢٣ .

(٤) . سورة النساء . ١٦٨ .

(٥) . سورة آل عمران . آية ٧٧ .

(٦) . سورة الحديد . آية ١٣ .

(٧) . سورة النور . آية ٤٠ .

(٨) . سورة سبأ . آية ٥٤ .

في الآخرة فمنعوا منه . والقرآن الكريم مليء بالآيات التي تحذر الكافرون والعصاة والمذنبين بما يصيبهم يوم القيامة من حرمان و خزي و خسران وغير ذلك .

٣ . ما يصيب أهل النار من عقوبات الذل والهوان :

فالقرآن الكريم يحدثنا عن الكفار أنهم يأتون يوم القيامة ذليلين ناكسى رؤوسهم ، يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُحْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ (١) ، كما يقول تعالى : ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ (٢) ، كما يأتون سود الوجوه تعلوا وجوههم الغيرة والقترة يقول تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَىٰ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (٣) . عابسة كالحلة يقول تعالى : ﴿ وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ بِآسِرَةٍ ﴾ (٤) ، تعلوها الظلمة والغبار . يقول تعالى : ﴿ وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ (٥) . كما أن الكافر إذا واجه أعماله السيئة يوم القيامة أصابته الحسرة والندامة وتمنى أن يباعد الله بينه وبين أعماله يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٦) . وعندئذ يدعون على أنفسهم بالويل والهلاك كما يخبرنا الله تعالى في قوله تعالى : ﴿ وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَىٰ الْمُحْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (٧) ، كما يقول تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ (٨) ، أي عندما يشاهد أعماله حاضرة لديه معروضة عليه صغيرها وكبيرها ، فمن شدة ما يلقى من العذاب ومن هول ما يرى ويصير يتمنى أن يكون حمادا لم يصب حظاً من الحياة .

ويغشاهم الخزي والعار يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ (٩) . ولسوف يعرضون أمام ربهم ويراهم الأشهاد ويشيرون إليهم باحتقار وسخرية .

(١) . سورة السجدة . آية ١٢ .

(٢) . سورة إبراهيم . آية ٤٣ .

(٣) . سورة الزمر . آية ٦٠ .

(٤) . سورة القيامة . آية ٢٤ .

(٥) . سورة عبس . آية ٤٠ ، ٤١ .

(٦) . سورة آل عمران . آية ٣٠ .

(٧) . سورة الكهف . آية ٤٩ .

(٨) . سورة النبأ . آية ٤٠ .

(٩) . سورة الأنعام . آية ١٢٤ .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

بل الأمر أشد وأفظع عليهم عندما يرون أن أبدانهم وحواسهم يشهدون عليهم يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

ويزيد همهم وغمهم عندما تنقطع الروابط والعلائق التي كانت تربطهم بأتبانهم أو بساداتهم ، قال تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ (٣) ، وعند ذلك يعضون على أصابعهم ندامة وحسرة . يقول الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ (٤) . وغير ذلك من الآيات القرآن الكريم .

٤ . تحيتهم بالتهكم والإستهزاء :

عندما يدخل الكفار والطغاة النار تسألهم خزنتها سؤال تقريع وتوبيخ . يخبرنا الله تعالى بذلك في قوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (٥) يقول أبي سعود : أي سيقوا إليها بالعنف والإهانة افواجاً متفرقة بعضها في اثر بعض مترتبة حسب ترتب طبقاتهم في الضلالة والشرارة (٦) . ويقول ابن كثير: أي بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعا لتعجل لهم العقوبة . (٧)

وهكذا يساق الأشقياء والكفرة والمنافقون إلى النار سوفاً عنيفاً بزجر وتهديد يدفعون دفعا إليها مع توبيخهم وتقريعهم كما يقول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٨) ، أي يدفعون إلى النار دفعا وتقول لهم الزبانية تقريبا وتوبيخا ، ﴿ أَفَسِحْرٌ

(١) . سورة هود . آية ١٨ .

(٢) . سورة النور . آية ٢٤ .

(٣) . سورة البقرة . آية ١٦٦ .

(٤) . سورة الفرقان . آية ٢٧ - ٢٩ .

(٥) . سورة الزمر . آية ٧١ ، ٧٢ .

(٦) . إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، لأبي سعود ، ٧ / ٢٦٣ ، ط : الرابعة ١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م ،

دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

(٧) . تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ص : ١٦٣٠ .

(٨) . سورة الطور . آية ١٣ - ١٦ .

هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١﴾ ، أي ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته : ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢) ، أي سواء صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها ﴿إِنَّمَا تُحْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي ولا يظلم الله أحدا بل يجازي كلا بعمله .

٥ . طعام أهل النار وشرابهم :

لقد صور القرآن الكريم طعام أهل النار بعبارات مختلفة تشير إلى بشاعته وشدته ما ينفر منه الطبع . فقال تعالى : ﴿إِنَّ شَجْرَةَ * طَعَامِ * الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ﴾ (٣) ، فشجرة الزقوم المشهورة بمرارها هي طعام الكفار في جهنم ولقد وصف الله شجرة الزقوم وصفاً مربعاً بقوله : ﴿أَذَلِكْ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجْرَةُ الزُّقُومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَكَالُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ (٤) .

وليس أدل على قبح منظرها وبشاعة صورتها من قوله تعالى : ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٥) قال ابن عباس رضي الله عنه : ينشب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج . كما وصف الله تعالى بقوله : ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ﴾ (٦) . فكل ما ذكره الله تعالى من طعام وأكل الكفار في النار يدل على مدى بشاعته وكرهته وقبحه ، مما ينفر النفوس منه ويجعلها تطلب كل وسيلة للفرار والبعد منه .

أما شراب أهل النار فقد ذكر الله تعالى في القرآن صوره بأنه يقطع الأمعاء ويذيب الأحشاء . قال تعالى : ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ (٧) .

قال أبي سعود : أخبر عنهم بأنهم لا يذوقون فيها شيئاً ما من برد وروح ينفس عنهم حر النار ، ولا شراب يسكن من عطشهم ولكن يذوقون فيها حميماً وغساقاً . والغساق ما يسيل من صديدهم . (٨)

(١) . سورة الطور . آية ١٥ .

(٢) . سورة الطور . آية ١٦ .

(٣) . سورة الدخان . آية ٤٣ - ٤٦ .

(٤) . سورة الصافات . آية ٦٢ - ٦٦ .

(٥) . سورة المزمل . آية ١٣ .

(٦) . سورة الحاقة . آية ٣٦ .

(٧) . سورة النبأ . آية ٢٤ ، ٢٥ .

(٨) . إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، لأبي سعود ، ٩١ / ٩ .

ووصف الله تعالى هذا الطعام أيضاً بقوله تعالى : ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ ﴾ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿١﴾ ، قال القرطبي : والغسلين هو صديد أهل النار السائل من جروحهم و فروجهم . ﴿٢﴾

فكل ما ذكره الله من أوصاف شراب أهل النار يفيد أنه حار شديد الحرارة تذوب منه الأمعاء وتفتت منه الأعضاء فقد وصفه الله تعالى بقوله : ﴿ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ ﴾ ﴿٣﴾ . قال الامام الشوكاني : والمراد بالعين الآنية : المتناهية في الحر . ثم ذكر قول الواحدي بأنه قال : قال المفسرون لو وقعت منها نطفة على جبال الدنيا لذابت . ﴿٤﴾

فهذا هو طعامهم إذا جاعوا ، فإذا أكلوا منها التهبت أكبادهم عطشاً ، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي وجوههم حتى تتساقط لحومها ، فإذا شربوه على كره وضرورة قطع أمعاءهم ، ومزق جلودهم ، وهذا شرابهم كالمهل في حرارته ، وكالصديد في ننته وخبثه ، يضطر شاربه إلى شربه اضطراراً ، يتجرعه ولا يكاد يسيغه ، ويأتيه الموت من كل مكان ، وما هو بميت ، ومن ورائه عذاب غليظ .

٦. ضرب الوجوه وسوادها :

إن أكرم ما في الإنسان وجهه ، ولذلك نهانا الرسول ﷺ عن ضرب الوجه ، ومن إهانة الله لأهل النار أنهم يحشرون في يوم القيامة على وجوههم عمياً وصماً وبكماً ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا ﴾ وَصُمَّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٥﴾ ، ويلقون في النار على وجوههم ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٦﴾ .

﴿١﴾ . سورة الحاقة . آية ٣٦ ، ٣٧ .

﴿٢﴾ . الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي ، ٢٧٣ / ١٨ .

﴿٣﴾ . سورة الغاشية . آية ٥ .

﴿٤﴾ . فتح القدير ، لإمام الشوكاني ، ص : ١٨٩٣ .

﴿٥﴾ . سورة الإسراء . آية ٩٧ .

﴿٦﴾ . سورة النمل . آية ٩٠ .

وتلحف النار وجوههم وتغشاها أبداً ، لا يجدون حائلاً يحول بينهم وبينها ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (١) ، ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالْحُونِ ﴾ (٢) ، ﴿ سَرَّابِلُهُمْ مِّنْ قَطْرَانٍ وَتَعَشَى وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴾ (٣) ، ﴿ أَفَمَن يَتَّبِعِي بَوَاجِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (٤) ، ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴾ (٥) ، وهكذا يقرب الله تعالى وجوههم في النار . ثم يسحب الكفار في النار على وجوههم ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ (٦) . ويزيد من آلامهم لما يسود الله في الدار الآخرة وجوه أهل النار ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهُهُمُ وَتَسْوَدُّ وُجُوهُهُمُ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (٧) ، وهو سواد شديد ، كأنما حلت ظلمة الليل في وجوههم ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرَهَّقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٨) .

٧. العذاب يحيط بجميع أجزاء الجسد :

فقد أخبرنا الله تعالى في آيات كثيرة بهول ما يصيب الكافر والعاصي في النار فبين أن العذاب يغشاه من رأسه إلى قدميه لا يترك جزئية من جزئيات جسمه إلا أصابها . فالعذاب يصب من فوق رءوسهم كما يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴾ (٩) ويصيب وجوههم كما قال تعالى : ﴿ سَرَّابِلُهُمْ مِّنْ قَطْرَانٍ وَتَعَشَى وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴾ (١٠) ، وقال تعالى : ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالْحُونِ ﴾ (١١) ، بل أن العذاب يصيب جباههم وجنودهم وظهورهم كما في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنُزُونَ ﴾ (١٢) ، بل يغطيهم العذاب من جميع مناحي أجسامهم يقول

-
- (١) . سورة الأنبياء . آية ٣٩ .
(٢) . سورة المؤمنون . آية ١٠٤ .
(٣) . سورة إبراهيم . آية ٥٠ .
(٤) . سورة الزمر . آية ٢٤ .
(٥) . سورة الأحزاب . آية ٦٦ .
(٦) . سورة القمر ز آية ٤٧ ، ٤٨ .
(٧) . سورة آل عمران . آية ١٠٦ .
(٨) . سورة يونس . آية ٢٧ .
(٩) . سورة الدخان . آية ٤٨ .
(١٠) . سورة إبراهيم . آية ٥٠ .
(١١) . سورة المؤمنون . آية ١٠٤ .
(١٢) . سورة التوبة . آية ٣٥ .

تعالى : ﴿ يَوْمَ يَعَشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١) ، كما قال تعالى : ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ (٢) ، فالنار تغشاهم وتغطيهم من سائر جهاتهم وهذا أبلغ في العذاب الحسى . وكلمة احترقت جلود الكفار كلما احترقت وزالت من النار يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (٣) . فكلما أكلت النار جلود الكفار أبدلهم الله تعالى جلوداً غيرها كي يستمر الألم بلا انقطاع ويذوقوا العذاب الأليم بدون توقف .

وبالجملة فإن عذاب جهنم وشدته يحيط بالكافرين والمجرمين من جميع الجهات فيعذبون ظاهراً وباطناً يشملهم العذاب من كل جوانب كما يقول تعالى ﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ (٤) .

٨ . سعة جهنم و خزنتها :

إن الله ﷻ يعذب الكفار والعصاة بأنواع من العذاب ومنها الضيق في جهنم وهو يشمل ظواهرهم وبواطنهم ، وقد اجتمعت عليهم ألوان العذاب فنفسهم ضيقة حيث قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضِيْقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ (٥) ، فهم ملقون في أضيق الأماكن ، وقد كانوا في الدنيا ينحتون من الجبال القصور فرحين بها ، فما أوحجهم يوم القيامة إلى شبر من الأرض يعبدون الله فيه فينجون من ذلك الضيق وذلك العذاب . قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ (٦) . وجهنم مع ما يحصل لأهلها من الضيق ، فهي واسعة ضخمة ، يدل على ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ ، إذ سمع وجبة (أي سقطة) فقال النبي ﷺ : " تدرن ما هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفاً ، فهو يهوى في النار إلى الآن حتى انتهى في قعرها " . (٧)

ومما يدل على سعة النار وعظمتها كثرة الداخلين إليها على ما هم عليه من ضخامة الجسم وعظم الهيئة ، وكذلك قذف الشمس والقمر فيها على ضخامة الشمس وسعة القمر .

(١) . سورة العنكبوت . آية ٥٥ .

(٢) . سورة الزمر . ١٦ .

(٣) . سورة النساء . آية ٥٦ .

(٤) . سورة الأعراف . آية ٤١ .

(٥) . سورة الفرقان . آية ١٣ .

(٦) . سورة المطففين . آية ٧ .

(٧) . أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب : جهنم أعادنا الله منها ، ص : ٢٣٤ ، رقم الحديث : ٣١ .

فهي واسعة عظيمة ، كبيرة مهولة ، ومع ذلك يجد فيها المجرمون من الضيق والحبس ، ما يعضون عليه الأنامل من ندم التفريط في الدنيا ، عن عائشة رضي الله عنها : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (١) ، قالت : فأين الناس يومئذ ؟ قال : على جسر جهنم " (٢) ، فأين ما جمعوا في الدنيا وهم على جسرهما العظيم ، ينتظرون نتيجة المصير .

ومما يدل على سعة جهنم كثرة الملائكة الذين يأتون بها يوم القيامة . قال صلى الله عليه وسلم : " يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها " (٣) ، وقال الله عز وجل : ﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ (٤) ، وهذا ما يدل على عظمها وأنها تسع الكفار والمجرمين والعصاة .

أما خزنتها ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٥) ، فخرنة جهنم موصوفون بالغلظة والشدة ، لما لمناسبة هاتين الصفتين لمكان العذاب ، فهم غلاظ على الكفار شداد عليهم ، فلا يغلبون ولا يقهرون ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وقد ذكر الله عز وجل عددهم فتنة للمنافقين والكفار فقال سبحانه : ﴿ سَأُصَلِّيهُ سَقَرًا * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَاحٍةٌ لِلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ (٦) ، وقد افتتن المنافقون بذلك فظنوا أنهم قادرون على هذا العدد القليل ، فأعقب الله جل وعلا الآية بقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (٧) .

٩ . حسرة أهل النار و ندامتهم :

عندما يرى الكفار النار يندمون أشد الندم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٨) ، وعندما يطالع الكافر على صحيفة أعماله ، فيرى كفره وشركه الذي يؤهله للخلود في النار ، فإنه

(١) . سورة الزمر . آية ٦٧ .

(٢) . أخرجه الترمذي في سننه ، تفسير القرآن ، سورة الزمر (والأرض جميعاً قبضته) ص : ٧٣٧ ،

رقم الحديث : ٣٢٤١ .

(٣) . أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب : جهنم أعادنا الله منها ، ص : ١٢٣٤ ، رقم الحديث : ٢٩ .

(٤) . سورة الفجر . آية ٢٣ .

(٥) . سورة التحريم . ٦ .

(٦) . سورة المدثر . آية ٢٦ - ٣٠ .

(٧) . سورة المدثر . آية ٣١ .

(٨) . سورة يونس . آية ٥٤ .

يدعو بالثبور والهلاك ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴾ (١) ويتكرر دعاؤهم بالويل والهلاك عندما يلقون في النار ، ويصلون حرها : ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضِيقًا مُقْرَنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ (٢) ، وهم في ذلك الوقت يعترفون بضلالتهم وكفرهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِّقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٣) ، ﴿ قَالَوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ (٤) ، ولكن طلبهم يرفض بشدة ، ويجابون بما تستحق أن تجاب به الأنعام : ﴿ قَالَوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِن عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ (٥) . ويتوجه أهل النار بعد ذلك بالنداء إلى خزنة النار ، يطلبون منهم أن يشفعوا لهم كي يخفف الله عنهم العذاب : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوْلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ (٦) ، وعند ذلك يسألون الشفاعة كي يهلكهم رهم : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٧) ، إنه الرفض لكل ما يطلبون ، لا خروج من النار، ولا تخفيف من عذابها ، ولا إهلاك ، بل هو العذاب الأبدي ، ويقال لهم آن ذلك : ﴿ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْنكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٨) . هناك يشتد نحيبهم وتفيض دموعهم ، ويطول بكاءهم : قال تعالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٩) ، إنهم يبكون حتى تنقطع الدموع ، ثم يبكون دما ، وتؤثر دموعهم في وجوههم كما يؤثر السيل في الصخر ، لقد خسر هؤلاء الظالمون أنفسهم وأهليهم عندما استحباوا الكفر على الإيمان .

١٠ . الخلود في النار :

أخبرنا الله تعالى في كثير من الآيات بأن النار مقيم وأن أهلها لا يخرجون منها ، وأنها خالدة باقية ، والأدلة القرآنية التي تقطع وتثبت بأبدية النار وخلودها ودوام أهلها فيها كثيرة جداً نذكر منها

(١) . سورة الإنشقاق . آية ١٠ - ١٢ .

(٢) . سورة الفرقان . آية ١٣ ، ١٤ .

(٣) . سورة الملك . آية ١٠ ، ١١ .

(٤) . سورة غافر . آية ١١ .

(٥) . سورة المؤمنون . آية ١٠٦ - ١٠٨ .

(٦) . سورة غافر . آية ٤٩ ، ٥٠ .

(٧) . سورة الزخرف . آية ٧٧ .

(٨) . سورة الطور . آية ١٦ .

(٩) . سورة التوبة . آية ٨٢ .

البعض ، قال تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾^(١) وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾^(٢) . كما أخبر الله تعالى بأنهم خالدون في العذاب أبداً وصرح سبحانه وأكد بأبدية أهل النار في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾^(٣) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾^(٤) .

يقول الراغب : " والأبد عبارة عن مدة الزمان الممتد الذي لا يتجزأ كما يتجزأ الزمان " .^(٥)

كما أكذب الله تعالى اليهود في زعمهم بأن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة ، بقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾^(٦) . ومما يؤكد خلود الكافرين في النار وأبديتهم فيها قوله تعالى : ﴿ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾^(٧) ، وقال تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾^(٨) .

فهذه الآيات من كتاب الله فيها التصريح بالبقاء في العذاب وذكر الخلود ، وتأکید هذا الخلود بالتأيد . كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾^(٩) . ففي هذه الآية أخبر تبارك وتعالى بعدم خروجهم من النار ، مؤكداً ذلك بأن العذاب مقيم ودائم معهم . قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾^(١٠) . وكما قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ ﴾^(١١) ، وغير ذلك مما يفيد القطع بدوام عذاب النار

(١) . سورة المائدة . آية ٣٧ .

(٢) . سورة الزخرف . آية ٧٤ ، ٧٥ .

(٣) . سورة النساء . آية ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٤) . سورة الجن . آية ٢٣ .

(٥) . المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني ، ص : ١٧ .

(٦) . سورة البقرة . ٨٠ ، ٨١ .

(٧) . سورة النساء . آية ١٦٩ .

(٨) . سورة الأحزاب . آية ٦٥ .

(٩) . سورة البقرة . آية ١٦٧ .

(١٠) . سورة فصلت . آية ٢٨ .

(١١) . سورة هود . آية ١٠٦ ، ١٠٧ .

بالنسبة للكفار والمشركين . لذا ثبت من كل هذه الأدلة خلود أهل النار فيها ، الذين لا يرحلون ولا يبيدون وهم الكفرة والمشركون . هذا بالنسبة للكفار والمشركين .

أما العصاة من الموحدون يدخلون الجنة في آخر أمرهم ، كما ثبت في الحديث بأن بعد ما يخرج من النار من كان يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً ، ويدخلون الجنة ، يأمر الله تعالى أن يؤتي بالموت على صورة كبش أملح ، ويجعل بين الجنة والنار ، ثم يذبح ، كما قال النبي ﷺ " يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال يا أهل الجنة هل تعرفون هذا ؟ فيشربون وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت . ويقال يا أهل النار هل تعرفون هذا ؟ فيشربون وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت ، قال : فيؤمر به فيذبح . ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت " . (١)

فالنار خالدة لا تفتى ولا تبديد ، ونقل ابن حزم اتفاق الأمة على ذلك ، فقد جاء في كتابه " الفصل في الملل " قوله : " اتفقت فرق الأمة كلها على أن لا فناء للجنة ولا لنعيمها ، ولا للنار ولا لعذابها ، إلا الجهم بن صفوان وأبا الهذيل العلاف ، وقوماً من الروافض " . (٢)

هذا مذهب أهل السنة والجماعة أن النار خالدة لا تبديد ، وأهلها فيها خالدون ، ولا يخرج منها إلا عصاة الموحدين ، أما الكفرة والمشركون فهم فيها خالدون . كما قرر ذلك أهل السنة في مصنفات العقائد ، والنصوص الدالة على خلود النار كثيرة جداً ، كما ذكرنا بعض منها آنفاً .

لقد أطال القرآن في تبيان جرائم الخالدين الذين استحقوا بها الخلود في النيران ، ونحن نذكر هنا أهمها ١- الكفر والشرك : فقد أخبرنا الحق تبارك وتعالى أن الذين كفروا ينادون عندما يكونون في النار .

فيقال لهم : إن مقت الله لكم أعظم من مقتكم أنفسكم بسبب كفركم بالإيمان، ثم بين أن خلودهم في النار إنما هو بسبب كفرهم وشركهم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَّقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ * قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ . (٣)

٢- عدم القيام بالتكاليف الشرعية مع التكذيب بيوم الدين وترك الإلتزام بالضوابط الشرعية وعدم تحمل المسؤوليات ، فقد أخبرنا الحق تبارك وتعالى أن أهل الجنة يسألون أهل النار قائلين : ﴿ مَا

(١) . أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ، ص : ١٢٣٧ ، رقم الحديث : ٤٠ .

(٢) . الفصل والملل والأهواء والنحل ، لابن حزم ، الكلام في بقاء أهل الجنة والنار أبداً ، ص : ٨٣ / ٤ .

(٣) . سورة الغافر . آية ١٠ - ١٢ .

سَلَكَكُمْ فِي سَفَرٍ ﴿١﴾ ، فيجيبون قائلين : ﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ . (١)

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية : ما عمل أهل النار ، وما عمل أهل الجنة ؟ فأجاب : " عمل أهل النار : الإشراك بالله تعالى ، والتكذيب للرسول ، والكفر ، والحسد ، والكذب ، والخيانة ، والظلم ، والفواحش ، والغدر ، وقطيعة الرحم ، والجبن عن الجهاد ، والبخل ، واختلاف السر والعلانية ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله ، والجزع عند المصائب ، والفخر والبطر عند النعم ، وترك فرائض الله ، واعتداء حدوده ، وانتهاك حرماته ، وخوف المخلوق دون الخالق ، والعمل رياءً وسمعة ، ومخالفة الكتاب والسنة ، أي اعتقاداً وعملاً ، وطاعة المخلوق في معصية الخالق ، والتعصب للباطل ، واستهزاء بآيات الله ، وجحد الحق ، والكتمان لما يجب إظهاره من علم وشهادة ، والسحر ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، والربا ، والفرار من الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات " . (٢)

(١) . سورة المدثر . آية ٤٢-٤٧ .

(٢) . مجموع الفتاوى ، لابن تيمية ، رسالة في العبادات والفرق بين شرعيها وبدعيها ، ١٠ / ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، جمع وترتيب : عبدالرحمن قاسم ، مكتبة المعارف ، الرباط ، المغرب .

الفصل الثالث : الجزء وأثره على الفرد والمجتمع

المبحث الأول : أثر الجزء الديني على الفرد والمجتمع :

التمهيد :

وبعد هذا العرض لمظاهر الثواب والعقاب للصالحين و الطالحين في الدنيا والآخرة في الفصول السابقة ، لعله من المهم توضيح آثار هذا الجزء التي تعود بعضها إلى صلاح الفرد وبعضها إلى صلاح المجتمع . " وذلك لأن تصرفات البشر إذا قامت على خشية الله والخوف من الجزء السيئ ، والطمع في الجزء الحسن ، فإن ذلك له أشد الأثر في توجيه الفرد والمجتمع إلى فعل الخير و اجتناب الشر ، بل هو الميزان الذي يقف عليه الإنسان ليزن أعماله " . (١)

لذا لا يتصور قيام حياة الفرد والمجتمع من غير نظام الجزء ، إذ تصور مثل هذا جهل ، بما ركبت عليه النفوس البشرية من حب الخير يحتاج إلى ثواب مشجع ، و نزوع إلى الشر يحتاج إلى عقاب و زجر ، إذ الغالب أن الإنسان يستجيب بما يطلب منه إذا وعد عليه بثواب ، ويتجنب ما ينهى عنه إذا توعد عليه بعقاب (٢) . والآن سأورد بعض هذه الآثار المترتبة للجزء على الفرد والمجتمع فيما يلي :

١ . أثر مظاهر الثواب على الفرد والمجتمع :

آثار فردية :

١ . مراقبة الله تعالى :

ومن أعظم فوائد وآثار الجزء الحسن على الفرد في الدنيا مراقبة الله في السر والعلن ، حيث يستحضر الإنسان عظمة ربه واطلاعه عليه ونظره إليه وفضله عليه ، فيورث ذلك كله دوام المراقبة في العبد ، فيطيع خالقه وينفذ أوامره و يجتنب نواهيه ، ويتقي غضبه بإجتنا محارمه وإتيان محابه ، فيرزق الإنسان بهذا تقوى الله تعالى ويرتقي إلى مرتبة الإحسان ، فهو يعبد الله كأنه يراه ، ومن لازم التقوى نال من الله تعالى الدرجات العلى ، وأثر التقوى في المؤمن واضح من قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (٣) ، وهكذا يعيش الإنسان في كنف الله تعالى قد التجأ إليه وفوض أمره كله ، قد اطمأن قلبه وهدأت نفسه وزالت وساوسه .

(١) . مجتمعنا المعاصر . أسباب ضعفه ووسائل علاجه ، د. عبدالله سليمان المشوخي ، ص : ٤٣ ، ط :

الأولى ١٩٨٧م ، مكتبة المنار ، الأردن .

(٢) . المسؤولية الخلقية والجزاء عليها ، ص : ٤٥٧ .

(٣) . سورة الطلاق . آية ٢ ، ٣ .

٢ . معرفة النفس :

ومن الآثار أن الجزاء يعرف الإنسان بحقيقة نفسه، ومكانته في هذا الوجود ، فهو أولاً وآخر مخلوق لله المكرم ، خلقه سبحانه في أحسن تقويم ، وكرمه الله على سائر مخلوقاته ، كما أخبرنا بذلك سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (١) ، فإذا عرف الإنسان حقيقة نفسه سار في حياته على هدى ونور من ربه .

وبهذا " يحس الإنسان بكرامته وذاتيته ، ويشعر بأن له وزناً وقيمة في هذا الوجود ، ويشعر أن لوجوده غاية . وحياته رسالة ، وأنه شيء مذكور بين أشياء هذا الكون العديدة . وأنه مخلوق متميز عن القروود والدواب والحشرات ، وأنه لم يخلق في هذه الأرض عبثاً ، ولا أُعطي العقل وعلم البيان اعتباراً " . (٢)

٣ . العمل الدائم :

وإن من أهم آثار مظاهر الثواب في الدنيا على الفرد ، إندفاع المؤمن في الدنيا إلى العمل الدائم . لأنه يدرك سنن الله في الكون بأنه من يعمل عملاً صالحاً يجد ثمرته في الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٣) ، وهذه سنة الله في الكون لا تتغير ولا تتبدل ، ثم سنن الله في الدنيا لا تفرق في الجزاء على العمل بين مؤمن وكافر ، فمن عمل أجر ، ومن قعد حرم ، مهما كان دينه أو اعتقاده . وبهذا يندفع المؤمن إلى العمل دائماً ، حتى لا يصادم سنن الله في الكون فتصدمه ؛ فيكون من الهالكين . (٤)

(١) . سورة الإسراء . آية ٧٠ .

(٢) . الإيمان والحياة . للقرضاوي ، ص : ٥٥ ، ٥٦ ، ط : الثالثة عشرة ١٤٢٣هـ ، ٢٠٠٢ م ، مكتبة وهبة ، القاهرة .

(٣) . سورة النحل . آية ٩٧ .

(٤) . الإيمان والحياة ، ص : ٢٩٦ . نفس المرجع .

آثار إجتماعية :

١. الأمن والرضا :

ومن أهم آثار الجزاء الحسن على المجتمع في الدنيا الأمن والراحة ، بحيث " يتمتع أفراد المجتمع بالأمن النفسى والسلام مع الذات ، كما أنهم يتمتعون بالرضا ، فهم راضون عن أنفسهم ، وعن مكانهم في الحياة ، راضون عن ربهم العادل الرحيم ، راضون عن تدبيره وتقديره ، كما احساسهم بنعم الله عميق فياض ، فلا سخط ولا تبرم ، ولا ضجر " (١) ، وكما قال تعالى : ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) وكما ينال الإنسان السعادة في الدنيا والآخرة ، السعادة التي يبحث عنها كثير من الناس فلا يجدونها إلا في هذا الدين - وهذا باعتراف من أسلم منهم - مع الإشارة إلى أن مفهوم السعادة لا يعني التفوق المادي ونحوه ، وإنما السعادة الحقيقية يجيهاها من التزام دين الإسلام حق الالتزام . يشهد لهذا واقع الناس اليوم ، فإن كثيراً ممن لا يدين بهذا الدين يشعر بالفراغ الروحي ، وبفقدان الأمن والاستقرار النفسى ، وقد ذكر سبحانه في كتابه الكريم أن حصول الأمن إنما يحصل لعباده الذين آمنوا به واتبعوا سبيله ، فقال : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (٣) .

فمع الإيمان الحق يكون الأمن والاطمئنان ، ومع الأعراض يكون الضنك والشقاء ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (٤) . ويجمع هذا وذاك قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٥) .

(١) . الإيمان . حقيقته وأثره في النفس والمجتمع ، لدكتور محمد عبدالله الشرقاوي ، ص : ٥١ ، ط : الثانية ١٤١٠هـ

١٩٩٠م الناشر دار الحبل ، بيروت .

(٢) . سورة النحل . آية ٣٠ .

(٣) . سورة الأنعام . آية ٨٢ .

(٤) . سورة طه . آية ١٢٤ .

(٥) . سورة الأعراف . آية ٩٦ .

٢. التفاؤل والاقدام :

وكذلك من آثار الجزاء الحسن بأن أفراد المجتمع يتمتعون بالأمل والرحب والاستبشار والتفاؤل ، لا يعرفون يأساً ، ولا يخشون بأساً ، لا يحل القنوط بساحتهم ، ولا يعرف اليأس باهم (١) . عرفوا تسخير الكون لهم فانتفعوا به ، هذا كله يدفعهم إلى النشاط والتفاؤل .

فيلجؤون إلى الإيمان عند الخوف فيطمئنون إليه فيزيدهم إيماناً وثباتاً ، وقوة وشجاعة ، ويضمحل الخوف الذي أصابهم ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (٢) . لقد اضمحل الخوف من قلوب هؤلاء الأخيار ، وخلفه قوة الإيمان وحلاوته ، وقوة التوكل على الله ، والثقة بوعده .

ويلجؤون إلى الإيمان عند الطاعة والتوفيق للأعمال الصالحة ، فيعترفون بنعمة الله عليهم ، ويلجؤون إلى الإيمان إذا ابتلوا بشيء من المعاصي بالمبادرة إلى التوبة منها ، وعمل ما يقدر عليه من الحسنات ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ (٣) ، فالؤمنون في جميع تقلباتهم وتصرفاتهم ملجؤهم إلى الإيمان ومفرعهم إلى تحقيقه ، ودفع ما ينافيه وبيضاده ، وذلك من فضل الله عليهم ومنه .

٣ . الأمن المعيشي :

ومن آثار الجزاء الحسن على المجتمع تحقيق الأمن المعيشي والاستقرار . ولقد بين الله تعالى أن الأمن المعيشي بصورته الحقيقية رهين بالتزام هديه والإيمان به وتقواه . يقول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ (٥) ، " أما الكفار فإن ما يمدهم الله به من فتوحات مادية من الإستدراج لهم وتعجيل الطيبات لهم في هذه الدنيا ، وهي فتوحات تغريهم بالإخلاق إليها حتى يأخذهم الله وهم فرحون آمنون وذلك أشد لهم كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا

(١) . الإيمان ، لدكتور عبدالله الشرفاوي ، ص : ٥١ .

(٢) . سورة آل عمران . آية ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٣) . سورة الأعراف . آية ٢٠١ .

(٤) . سورة الأعراف . آية ٩٦ .

(٥) . سورة المائدة . آية ٦٥ ، ٦٦ .

هُم مُبْلِسُونَ ﴿١﴾ ، وفرق بين هذا الفتح والفتح على المؤمنين ، فهذا الفتح لا بركة فيه : ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أما الفتح على المؤمنين بسبب إيمانهم فهو فتح مبارك " (٢) ، ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ . (٣)

٢ . . أثر مظاهر العقاب على الفرد والمجتمع :

آثار فردية :

١ . قبول هدي الله تعالى :

إن لمظاهر العقاب على الفرد لآثاراً واضحة وثماراً طيبة ، لا بد أن تظهر في قلب العبد وعلى لسانه وجوارحه ، وفي حياته كلها ، ومن أهم آثار لمظاهر العقوبات على الفرد في الدنيا ، قبول الإنسان هدي الله تعالى أو الرجوع إليه سبحانه وتعالى بالعمل الصالح ، والزهد في الدنيا والحذر منها ومن فتنها ، وحينئذ لا يجزن على فواتها ، ولا يمدن عينيه إلى ما متع الله به بعض عباده من نعم ليفتنهم فيها ، كما يتولد أيضاً من هذا الشعور الراحة النفسية والسعادة القلبية وقوة الاحتمال والصبر على الشدائد والابتلاءات ، وكل ذلك رجاء فيما عند الله تعالى من الأجر والثواب ، وأنه مهما جاء من شدائد الدنيا فهي منقطعة ولها أجل ، فهو ينتظر الفرج ويرجو الثواب الذي لا ينقطع يوم الرجوع إلى الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ (٤) . وكما يحرص على طاعة الله تعالى رغبة في ثواب ذلك اليوم ، والبعد عن معصيته خوفاً من عقاب ذلك اليوم .

٢ . العلم بعظمة الله وقوته :

وإن من أهم آثار العقاب الإلهي على نفس المسلم ، العلم بعظمة خالقهم تبارك وتعالى وقوته وسلطانه . وذلك عن طريق الشعور برقابة الله تعالى عليه ، وأنه مطلع على جميع حركاته وسكناته ، فيبعثه ذلك على الخشية منه و الإستقامة على أمر الله تعالى بتنفيذ الأوامر واجتناب النواهي ، والشعور بالطمأنينة والأنس ، فيكون ذلك دافعاً إلى الصبر وعدم اليأس .

(١) . سورة الأنعام . آية ٤٤ .

(٢) . تطبيق الشريعة الإسلامية في المملكة العربية السعودية واثاره في الحياة ، د. عبدالرحمن بن زيد ، ص : ٤٧٨ ط : ١٩٩٩ م .

(٣) . سورة الأعراف . آية ٩٦ .

(٤) . سورة النساء . آية ١٠٤ .

وكما يدرك الإنسان أن لهذا الكون خالقاً ومدبراً ، وأن ما من شيء في هذا الكون إلا بأمره سبحانه وتعالى ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ . (١)

وهكذا يبقى المؤمن بين الخوف من عقاب الله ، والرجاء لعفوه ، يذكر بأن الله سريع الحساب وأنه شديد العقاب ، فيغلب عليه الخوف ، ويذكر أنه عفو رحيم ، وأنه أرحم الراحمين .

٣. التوبة من المعاصي :

إن من أعظم أثارالعقوبات على الفرد ، اللجوء إلى الله تعالى بالتوبة والإنابة ، لأنه حرت سنة الله تعالى في العصاة ، أنه يعاقبهم على ذنوبهم في الدنيا قبل الآخرة ، وذلك تنبيهاً للغافلين ، وتذكراً للناسين ، يقول الله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٢) ، فالله تعالى لا يجازيهم بكل ما عملوا من سوء ، بل يعاقبهم ببعضه فقط ، ويعفوا عن الباقي وهو كثير ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ (٣) ، فقد ترك الله تعالى باب التوبة والإنابة مفتوحاً في كل وقت وفي كل حين ليرجع من أراد الإنابة إليه ، والدخول في رحمته . فيعود العبد إلى الله تعالى طالباً للمغفرة ، هارباً من الذنب لاجئاً إلى التواب الرحيم ، فيجده رحماناً رحيماً .

كما أنه يخاف من كوارث الحياة ، ريحاً أو مطراً أو غير ذلك ، ويخاف من الأمراض المتعددة ، وهو يخاف ويضطرب من أمور كثيرة ومتعددة لا يمكن حصرها، حتى أصبح الخوف والقلق سمة من سماته ، ويدرك بأن الله سبحانه وتعالى يسوق الكوارث على البشر في حياتهم الدنيا ، لينبه النفوس من غفلتها ، وليعيدها إلى خالقها ، ويربطها بموجدتها ، كما قال تعالى : ﴿ وَكُنُوزِكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (٤)

فكل هذه المصائب على النفوس المؤمنة من أجل أن يتوب الإنسان ، فيتذكر أن من أسماء الله " الرحيم ، التواب ، والغفور " فلا يتمادى في خطيئته ، بل يتزع عنها ، ويتوب إلى ربه ، ويستغفره فيجده غفوراً تواباً رحيماً .

(١) . سورة الأعراف . آية ٥٤ .

(٢) . سورة الروم . آية ٤١ .

(٣) . سورة الشورى . آية ٣٠ .

(٤) . سورة البقرة . آية ١٥٥ .

آثار اجتماعية :

١ . إحياء المعاني والصفات الحميدة :

فالإيمان باليوم الآخر يحيي في نفوس المؤمنين معاني الصبر والإحتساب ، والرضا ، والعفو والبذل في سبيل الله عز وجل ، فالمؤمن يعلم أن الدنيا دار ابتلاء وامتحان وليست دار للجزاء و النعيم ، فيعفو عمن ظلمه ، و يقبل الأعذار ، ويبدل وينفق في سبيل الله تعالى ، ويضرب أروع الأمثلة في التضحية والفداء ويسعى إلى الخير ويقاوم الشر ، لا يغش و لا يخدع ، ولا يسرق ، ولا يزيي ، وكل هذا لإيمانه باليوم الآخر ومقتدياً قوله تعالى : ﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١) ، قال القرطبي : أي أنكم ترجون ثواب الله وهم لا يرجونه وذلك أن من لا يؤمن بالله لا يرجو من الله شيئاً . (٢)

كما يترتب على هذا الجزاء ، خضوع المسلم لأحكام الشريعة خضوعاً اختيارياً في السر والعلن خوفاً من عقاب الله ، وحتى لو استطاع الإفلات من عقاب الدنيا ، لأن عقاب الآخرة ينتظره ولا يستطيع الإفلات منه .

٣ . الاعتبار بما حل بالأمم السابقة :

إن المؤمن ينطلق في الحياة فيشاهد مصارع الأولين ، وآثار ديارهم المخربة ، وحصونهم المدمرة ، فيرتعب لتلك المشاهد أن أخذ أهلها في غفلة ، وقد كانوا أقوياء ذوي كثرة ، فما أغنى عنهم غناؤهم ولا دفعت عنهم قوتهم لما جاءهم العذاب ، لقد كانت لهم آلهة يعبدونها من دون الله ، وهم من خلق الله ، وكانوا يحسبون أنها ستدفع عنهم النقم وتصرف عنهم المحن ، فحان عليهم الدهر وأحاط بهم القهر : ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ . (٣)

إن من بلغ به الإيمان بقاء الله حد اليقين اعتبر بما حصل للأمم السابقة من العذاب - كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم - ، وذلك لعلمه بأن الله من ورائهم محيط ، وقد أخذهم علي حالهم لينالوا كمال العقوبة في الآخرة ، فكان ذلك الأخذ آية مشاهدته دالة على لزوم محاسبة الناس على أعمالهم : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ (٤) ، وقد كان المشركون من أهل مكة يبرون علي ديار من أخذوا بالعذاب - كقوم

(١) . سورة النساء ، آية ١٠٤ .

(٢) . الجامع لأحكام القرآن ، لإمام القرطبي ، ٥ / ٢٧٤ .

(٣) . سورة هود . آية ١٠١ .

(٤) . سورة هود . آية ١٠٣ .

لوط - فلا يتأثرون لعدم رجائهم للآخرة ؛ فانعدم الخوف من نفوسهم فلم يعتبروا بمرورهم ذلك كما قال الله : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا أَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ (١) ، لهذا كان الخوف من لقاء الله مادة كل خير ، والأمان من غضب الله مادة كل شر .

٣. تركية النفوس :

إن المجتمع الذي يشيع فيها الظلم ، وإعتداء الناس بعضهم على بعض ، من أكل أموال الناس بالباطل ، والنيل من الأعراض ، والحسد والتباغض ، والفرقة والإختلاف ، وركون إلى الدنيا ، فتكون العقوبة الإلهية هنا علاجاً لتلك الأمراض ، وسبباً لتزكية النفوس ، كما يكون لها أثر كبير في حث الناس على العمل الصالح والمبادرة لفعل الخيرات وترك المنكرات .

وإذا عرف الإنسان هذه السنة الإلهية في المجتمعات ، وأيقن بتحققها فلا شك أن ذلك سيمنعه من التهاون في حقوق الخلق ، والحذر من ظلمهم في دم أو مال أو عرض ، سيضفي الأمان والأمان على مثل هذه المجتمعات ، لأن أهلها يخافون عقاب الله من أن يتزل عليهم ، فلا تحاكم إلا لشرع الله ، ولا تعامل إلا بأخلاق الإسلام الفاضلة ، فلا خيانة ولا غش ولا ظلم . إذاً أنه لا شيء يمنع النفس من ظلم غيرها في نفس أو مال أو عرض إلا من العقوبة الإلهية وإعطاء كل ذي حق حقه ، وإنصاف المظلوم ممن ظلمه ، والحذر من الدنيا والركون إليها .

٣. أثر العقوبات الحسية على الفرد والمجتمع :

آثار فردية :

١. ردع المجرم وإصلاحه :

إن أول أثر من آثار العقوبات الحسية في الدنيا على الفرد الذي من أجلها شرع الله الحدود في الإسلام ، هو الزجر أعني الردع والمنع وهذا قبل وقوع الجريمة ، أما بعد وقوعها بالحكمة منها زجر الجاني من العود إلى الجريمة ، كما تكون هذه العقوبة وسيلة لإصلاح المجرم وإصلاحه ، لأن العقوبة تدعو إلى الندم على ما فعل ، وتقريع نفسه عما أقدمت عليه من معصية الشرع مما يحمله على التوبة

(١) . سورة الفرقان . آية ٤٠ .

النصوح ، فينصلح حاله ، بل وقد يكون حاله بعد الجريمة وإنزال العقوبة فيه وتوبته عما ارتكب خيراً مما كان عليه قبل ارتككات الجريمة . (١)

وقال الماوردي (٢) : " الحدود زواجر وضعها الله تعالى للردع عن ارتكاب ما خطر ، وترك ما أمر به ، لما في الطمع من مغالبة الشهوات الملهية عن وعيد الآخرة بعاجل اللذة ، فجعل الله تعالى من زواجر الحدود ما يردع به ذا الجهالة حذراً من ألم العقوبة ، وخيفة من نكال الفضحية ، ليكون ما حظر من محارمه ممنوعاً ، وما أمر به من فروضة متبوعاً ، فتكون المصلحة أعم ، والتكليف أتم ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٣) ، يعني في استنفادهم من الجهالة وإرشادهم من الضلالة ، وكفهم عن المعاصي ، وبعثهم على الطاعة " . (٤)

إذا يتنفع الجاني من العقوبة الشرعية مهما بدت قاسية شديدة ، فيرتدع عن مقارفة الجريمة بعد أن غلبته الشهوة ، وزين له الشيطان فعلها حين يتذكر ألم عقوبتها في الدنيا فيترجر عنها ويسلم من خزيها .

ويقول ابن تيمية : " شرعت العقوبات رحمة من الله تعالى بعباده ، فهي صادرة عن رحمة الخلق وإرادة الإحسان إليهم ، ولهذا ينبغي لمن يعاقب الناس على ذنوبهم أن يقصد بذلك الإحسان إليهم والرحمة بهم كما يقصد الوالد تأديب ولده ، وكما يقصد الطبيب معالجة المريض " . (٥)

٢. التطهر من الذنب :

فرض الله سبحانه وتعالى الحدود في الإسلام (العقوبات الشرعية المنصوص عليها) مطهرات للذنوب التي ارتكبتها أصحابها وعوقبوا عليها ، وهي في الوقت نفسه مطهرة لصاحبها، مخصصة له من عقاب الله في الدار الآخرة ، فمن عوقب على ذنبه في الدنيا وفقاً لأحكام شرع الله ، لقي الله تعالى طاهراً

(١) . راجع المفصل في أحكام المرأة وبيت المسلم في الشريعة الإسلامية ، الدكتور عبدالكريم زيدان ، ١٥ / ٥ ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثالثة ، ١٤٢٠ هـ ، ٢٠٠٠ م .

(٢) . هو أبو الحسن علي بن محمد الماوردي البصري الشافعي ، ولد عام ٣٦٤ هـ ، بالبصرة ، توفي سنة ٤٥٠ هـ فهو إمام في الفقه والأصول ، مجتهد ، إمام في التفسير ، وله مؤلفات كثيرة منها : النكت والعيون في تفسير القرآن ، كتاب الإقناع ، الكافي ، الأحكام السلطانية وغير ذلك . راجع رسالة الماجستير بالجامعة الإسلامية العالمية ، بإسلام آباد سنة ١٩٩٨ م ، للطالب عبدالشكور .

(٣) . سورة الأنبياء . آية ١٠٧ .

(٤) . الأحكام السلطانية ، للمارودي ، الباب التاسع عشر ، في أحكام الجرائم ، فصل في ثبوت الجرائم ، ص : ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ط : الأولى ١٤١٦ هـ ، ١٩٩٧ م ، المكتب الإسلامي .

(٥) . الفتاوى الكبرى ، لابن تيمية ، كتاب الجنائيات ، ٥ / ٥٢١ ، ط : الأولى ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٧ م ، دارالكتب العلمية

نظيفاً ما عليه ذنب ، كما في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه (١) أن رسول الله ﷺ قال : " بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوا في معروف فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه " . (٢)

فهي صفة تختص بها العقوبة في الإسلام تلك هي ألها مكفرة بمعنى ألها تكفر عن الذنب وتطهر صاحبها من أدرانه ، ومن هنا كانت تلك الظاهرة الفريدة أن يسعى من يقترف ذنباً لتوقيع العقوبة صائحاً "طهرني" وفي هذه الحالة تنتفي كل أثاره من أثار المهانة ويستحق المذنب ثواباً يشمل المئات ، وهذه الحالة تختلف كل الاختلاف عما يحدث في المجتمعات الأوروبية عندما تستنفر السلطات كل وسائل الضبط لإيقاع المتهم متلبساً بالجريمة وما يحدث من إنكار المتهم ومحاوله المحكمة التوصل إلى الأدلة بمختلف الطرق .

والطهارة الشرعية من الذنب حق من حقوق الله تعالى إذ لا يغفر الذنوب إلا هو سبحانه وتعالى ، ولا يغفر الله الذنب إلا بالطرق التي شرعها لذلك . ومعنى هذا أن الذين تطبق عليهم عقوبات وضعية فإنما نفتنهم ونعذبهم فقط دون أن يعود عليهم مردود ديني وهذا في نفسه ظلم للعباد كما أنه جريمة في حق الله سبحانه وتعالى لأننا بذلك نعذب العباد بما لا يرضاه الله وما لم يشرعه . وهذا ظلم آخر . ويقول ابن القيم : " إن الله أوجب الحدود على مرتكبي الجرائم التي تتقاضاها الطباع ، وليس عليها وازع طبيعي ، والحدود عقوبات لأرباب الجرائم في الدنيا كما جعلت عقوبتهم في الآخرة بالنار إذا لم يتوبوا ، ثم إن الله تعالى جعل التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، فمن لقيه تائباً توبة نصوحاً لم يعذبه مما تاب منه " . (٣)

٣ . حفظ كرامة الإنسان وسعادته :

تعد الكرامة من أخص حقوق الإنسان الطبيعية التي يستحقها مجرد كونه إنساناً ، فهي ضرورة من ضرورات حياته ، لا يمكن بدونه أن يقوم بواجب على وجهه . لذلك أحاطها الإسلام بسياس قوي في تشريعاته التي تمنع النيل منها ، والإعتداء عليها ، ويتمثل ذلك في تحريم الزنا والقذف والغيبة والنميمة ، وتوعد فاعلها بالعقوبة الأخروية والدينية ، تصديقاً لقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ كَرَّمْنَا بَنِي

(١) . هو عبادة بن الصامت بن قيس بن حرام بن فهر بن قيس بن ثعلبة بن غنم بن سالم بن عوف بن عمر بن عوف بن الخزرج الأنصاري شهد بدرًا وقال ابن سعد كان أحد النقباء بالعقبة وآخ الرسول ﷺ بينه وبين أبي مرثد الغنوي توفي سنة ٣٤ هـ انظر: الإصابات في تميز الصحابة ٣/٥٠٥-٥٠٧ وتهذيب التهذيب ٥/١١١-١١٢ .

(٢) . أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب علامة الإيمان حب الأنصار ، رقم الحديث : ١٨ ، ص : ٦ .

(٣) . أعلام الموقعين ، لابن القيم ، ٣ / ١٤٤ ، ط : دار الجيل للنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان .

آدَمَ ﴿١﴾ ، كما يقيم سياجاً من التشريع يصون به كرامة الإنسان ما دام خاضعاً له ، بحيث يحفظ دمه أن يسفك ، عرضه أن تنتهك ، وماله أن يغتصب ، ومسكنه أن يعتدى عليه ، ونسبه أن يطعن فيه ، وقلبه أن يتحكم فيه قسراً ، وحرية أن تقيد خداعاً ، ولا يزال في حمى هذه الكرامة حتى ينتهك هو حرمتها ، ويتزع بيده هذه الحصانة بارتكاب جريمة ترفع عنه جانباً منها ، ولا تعود على ما كانت عليه حتى يتوب ويعاقب بما يستحقه . (٢)

كما يتمتع الإنسان في الجزاء الإلهي ما يكفل له دوام السعادة التي يتمتع بها ما دام متصلاً بطاعة الله ، حذراً من معصيته ، فكم يكون لضعف الإيمان بهذا الجزاء أو الجهل به أو إنكاره جحوداً من أثر في تنغيص هذه السعادة ، وتبديلها تعاسة وجحيماً لا يطاق ، إن الجزاء يحمي حياة الناس ، فهو يحول دون إرادة اغتصاب عرض أو انتهاك مال أو سفك دم ، وغير ذلك .

هنا يبين أن تشريع الجزاء في الإسلام أكثر إسعاداً للإنسان ، فهو يتصل بجميع جوانب حياة الإنسان ، ويجزي على جميع الأعمال بالثواب والعقاب ، دون استبعاد لأي نوع منها ، قال تعالى : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٣) ، مما يعني أن سلطة الجزاء في الإسلام واسعة النطاق ، تتعلق بظواهر الإنسان وبواطنه ومصالحه ومصالح مجتمعه .

آثار اجتماعية :

١ . الأمن والاستقرار :

فلقد شرع الله سبحانه وتعالى الحدود لحكم عظيمة ومنافع كثيرة ، يترتب عليها آثار كثيرة ينعم بها المجتمع الإنساني ، حيث يعم فيه الأمن والاستقرار والراحة والإطمئنان ، فيعيش المرء أمناً في بيته ، مرتاح الضمير ، روحه مصونة فلا تزهد ، ودمه محقون فلا يراق ، ونسبه لا يعتدى عليه ، وعرضه سليم فلا يقذف ، وأمواله محفوظة فلا تصل إليها يد المجرم ولا تمتد إليها يد السارق ، وعقله باق على جبلته التي ميزه الله بها ، فلا يزيل نعمة الله عليه بالسكر ، ودينه ثابت مستقيم لا تلعب به الأهواء ولا تزعزعه العواطف فتجده مذذباً متردداً يسير على غير هدى . ولا ريب أنه إذا صينت المجتمع من الرذائل ، وحفظت مسالكه من الانحراف ، ونشئ أفرادها على الفضيلة والاستقامة تحقق له الأمن والاستقرار .

(١) . سورة الإسراء . آية ٧٠ .

(٢) . المسؤولية الخلقية والجزاء عليها ، ص : ٤٥٩ .

(٣) . سورة الأنعام . آية ١٦٠ .

إن الحدود في الإسلام شرعت لتأمين حياة الناس ، فقد قال تعالى في القصاص : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) ، إذ تهيئ هذه العقوبة لأفراد المجتمع حياة آمنة ، لأنه إذا علم المجرم " أنه يقتل قصاصاً إذا قتل آخر كف عن القتل ، وانزجر عن التسرع إليه ، والوقوع فيه ، فيكون ذلك بمثابة الحياة للنفوس الإنسانية جميعها (٢) ، وكذلك الأمر في الجرائم الأخرى فإنه إذا علم أنه إذا انتهك عرضاً عوقب عليه بما يزره ، فإنه يمتنع عن ذلك ، مما يحقق انكشافاً عن الجريمة ، وبعداً عن الفساد .

٢ . إبعاد المجتمع من الرذيلة والفساد :

إن من أهم آثار من وضع العقوبة هي محاربة الجريمة وإبعاد المجتمع من الرذائل ومنع وقوعها أو تقليلها ، فإن الإسلام قد بلغ في هذه الغاية مبلغاً لم يصل إليه تشريع قبله أو بعده ، وذلك أنه حارب الجريمة قبل وقوعها ثم قضى عليها بعد وقوعها قضاء يذهب أثرها ويقلل مضارها وقد سلك في ذلك طرقاً كثيرة ، حيث أحاط الفرد منذ نشأته بالمواعظ التي تؤثر في القلوب وتملؤها بتقوى الله تعالى والرغبة في مرضاته طمعاً فيما عنده من الثواب العظيم ثم شفع هذه الموعظة بالوعيد من ارتكاب المآثم ليملاً القلوب مخافة ورهبة من سخط الله والتعرض لعذابه في الآخرة ، وهذه هي الخطوة المهمة في الدفاع ضد الجرائم حيث يقل وقوعها ممن امتلأ قلبه بالإيمان بالله والخوف من عقابه . (٣)

كما يسهم الجزاء في الإسلام إسهاماً بالغاً في حماية الفضيلة وتمكينها في المجتمع ، بإتخاذ خطوات مختلفة كالترغيب في امتثال الأخلاق الحسنة ، والتحلي بما ذاتياً ، والتعامل مع الآخرين ، مع الوعد بالثواب الجزيل الذي تتعلق به آمال المؤمنين ، مما يستلزم إعراضهم عن الرذيلة . وكالمعاقبة على كل ما يمس الفضيلة ، كالإعتداء على الأنفس والأعراض والأموال بعقوبة القصاص والحدود أم جرائم محدودة الضرر بعقوبة التعزير ، والمقصد من كل هذا كله حماية المجتمع ومنازمة الرذيلة إلى أن تختفي من المجتمع ، ومحاربة الفساد إلى أن يضمحل .

وهدف الشريعة الإسلامية من فرض العقوبة هو إصلاح النفوس وتهذيبها والعمل على سعادة الجماعة البشرية ؛ ذلك لأن للإسلام في العقاب رأياً ينفرد به .

(١) . سورة البقرة . آية ١٧٩ .

(٢) . فتح القدير ، لإمام الشوكاني ، ص : ١٣٧ ، ط : الأولى ١٤٢٢ هـ ، ٢٠٠١ م ، مكتبة الرشد ، الرياض .

(٣) . أثر تطبيق الحدود في المجتمع ، لدكتور عبدالمصعب إمام ، ص : ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، بحث مقدم لمؤتمر الفقه

الإسلامي ، جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض ١٣٩٦ هـ ، أشرفت على طباعته ونشره : إدارة

النقطة والنشر بالجامعة ، ١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٤ م

من أجل ذلك وضع الله الحدود وضعاً شرعياً كافلاً لراحة البشر في كل زمان ومكان ؛ حتى يكون الناس في مأمن وتمتتع الجرائم التي ترتكب ، فكل فعل سيئ يحدث في الأرض لا يمكن إصلاحه إلا بالعقوبة .

ويقول شاه ولي الله الدهلوي (١) في كتابه حجة الله البالغة : " اعلم أن من المعاصي ما شرع الله فيه الحد وذلك كل معصية جمعت وجوها من المفسدة ، بأن كانت فساداً في الأرض واقتضاباً على طمأنينة المسلمين ، وكانت لها داعية في نفوس بني آدم لا تزال تميج فيها ، ولها ضراوة لا يستطيع الإقلاع منها بعد أن أشربت قلوبهم بها وكان فيه ضرر لا يستطيع المظلوم دفعه عن نفسه في كثير من الأحيان ، وكان كثير الوقوع فيما بين الناس ، فمثل هذه المعاصي لا يكفي فيها الترهيب بعذاب الآخرة ، بل لا بد من إقامة ملامة شديدة عليها وإيلاء ليكون بين أعينهم ذلك فيردعهم عما يريدونه . ثم مثل ببعض المعاصي ، إلى أن قال: وكالسرقة ؛ فإن الإنسان كثيراً ما لا يجد كسباً صالحاً فينحدر إلى السرقة . (٢)

٣. معالجة الأمراض :

إن الحكمة من العقوبة بصفة عامة هي معالجة الأمراض الاجتماعية . وإيقاع العقوبات على بعض الأفراد يعتبر علاجاً للمجتمع ، لذلك تعتبر العقوبة من الأمور الضرورية للمجتمعات ، ولا يمكن أن يعيش مجتمع دون أن تفرض فيه عقوبة ، فكما أن الجريمة جزء من المجتمع ملازمة له ولا يتصور وجود مجتمع بدون جريمة ، فكذلك لا يتصور وجود مجتمع بدون عقوبة ، فالعقوبة تعتبر رد فعل للجريمة . والشريعة الإسلامية فإنها في عقوباتها متوسطة لا إفراط ولا تفريط خاصة عندما تطبق بأمانة وعدالة ، فإنها تؤثر تأثيراً بالغاً في التقليل من الإجرام والحد منه .

يقول العز بن عبد السلام (٣) في قواعد الأحكام : " ربما كانت أسباب المصالح مفسدة فيؤمر بها أو تباح ، لا لكونها مفسدة ، بل لكونها مؤدية إلى المصالح ، وذلك كقطع الأيدي المتأكلة حفظاً للأرواح ، وكالمخاطرة بالأرواح في الجهاد ، وكذلك العقوبات الشرعية كلها ليست مطلوبة لكونها

(١) . هوشاه ولي الله قطب الدين أحمد بن عبدالرحمن أبو عبدالله الدهلوي من أشهر المحدثين في الهند وفقهائها ، أحي الله به السنة وعلم الحديث ولد سنة ١١٤هـ وله مؤلفات كثيرة منها : الفوز الكبير في أصول التفسير ، حجة الله البالغة ، وغيرها ، توفي سنة ١١٧٦هـ انظر: نزهة الخواطر للحسني الندوي ٣٩٨/٦-٤١٥ .

(٢) . حجة الله البالغة ، لإمام شاه ولي الله الدهلوي ، بتحقيق : السيد سابق ، ٢ / ٧٥٦ ، ٧٥٧ ، المكتبة الأثرية ، شيخوبوره ، باكستان .

(٣) . هو عز الدين شيخ الإسلام أبو محمد عبدالعزيز بن عبدالسلام بن أبي القاسم بن الحسن الإمام العلامة المصري الشافعي ، ولد بدمشق سنة ٥٧٧هـ وله مؤلفات كثيرة في الفقه والتفسير والحديث والتصوف والسيرة ومنها : قواعد الأحكام في مصالح الأنام ، توفي سنة ٦٦٠هـ ، انظر: شذرات الذهب ٣٠١/٥ وطبقات المفسرين لدوادوي ٣٠٨/١-٣٢٣ .

مفاسد ، بل لكون المصلحة هي المقصودة من شرعها كقطع يد السارق وقاطع الطريق ، وقد سميت مصالِح من قبيل المجاز بتسمية السبب باسم المسبب " . (١)

فشرع الله الذي شرع لعباده ، هو الذي يصلح المجتمعات ، ويقضي على جذور الاعتداء ، والاستخفاف بالنفوس ، وإخافة الأمنين ، لما فيه من جزاء رادع يقضي بتطبيقه على الشر ، لأنه لا يصلح النفوس ، ويردها عن ذلك إلا هذا الأسلوب قال تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ . (٢)

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ﴾ (٣) وهذا هو حكم الله الذي فيه طمأنينة المجتمع ، وإخافة الفاعل ، والردع عن التمدادى في العمل الضار ، قد أنزله سبحانه على بني إسرائيل في توراتهم ، فخالفوا وعاندوا ، وبدلوا ، فكانت النتيجة جرائم متتالية ، واضطرابات في المجتمع ، وسار على منوالهم النصراري فحل بهم ما لحق بسابقيهم ، حسبما نلمسه اليوم في قوانينهم الوضعية .

واختار الله هذه الأمة لتطبيق ذلك فأمن مجتمعهم ، واطمأن الناس على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم عند الإمتثال ، ثم دب القلق في بعض المجتمعات الإسلامية ، لأن أقواماً استبدلوا بحكم الله قانوناً بشرياً ، وغيروا ما أراده الله ، بما أخذوه عن غيرهم تقليداً ، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير . ولا شيء يؤمن المجتمع ، ويحفظ الأمة ، ويقضي على أسباب الخوف ، إلا بتطبيق ما ارتضاه الله في شرعه ، وأكده رسوله الكريم ، بحماية الأفراد ، والحفاظة على الجماعات ، لأن الله بعباده رؤوف رحيم . فما من أمة ضيعت أمر الله وحدوده إلا شاع فيها الاضطرابات ، وقل خيرها ، وذهبت بركتها ، وضاعت أرزاق أهلها ، وكثرت فيها الأزمات والقلاقل . ومصادق هذا من كتاب الله قوله تعالى : ﴿ وَاللَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾ (٤) ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ . (٥)

(١) . قواعد الأحكام في مصالح الأنام ، للعز بن عبد السلام ، ١ / ١٤ ، ط : الثانية ١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠م ، دارالجيل .

(٢) . سورة المائدة . آية ٤٥ .

(٣) . سورة البقرة ، آية ١٧٨ .

(٤) . سورة الجن . آية ١٦ .

(٥) . سورة الأعراف . آية ٩٦ .

المبحث الثاني : أثر الجزاء الأخروي على الفرد والمجتمع:

١ . أثر مظاهر الثواب على الفرد والمجتمع :

آثار فردية :

١ . توجيه السلوك وانضباط الغرائز :

ركز القرآن المكي على اليوم الآخر غاية التركيز ، فقل أن توجد سورة مكية لم يذكر فيها بعض أحوال يوم القيامة وأحوال المنعمين في الجنة ومآلم فيها ، ومظاهر الثواب وكيفية حشر الناس ومحاسبتهم حتى لكأن الإنسان ينظر إلى الجنة والنار رأي العين ، لكننا نركز في هذا المبحث على مظاهر الثواب للمؤمنين في الآخرة ، وقد جاءت آيات كثيرة مبينة وواصفة للجنة ، وأن لها أبواباً ، وفيها درجات ، وتجري من تحتها الأنهار ، وفيها عيون ، وقصور وخيام وفيها أشجار متنوعة ، كسدرة المنتهى ، وشجرة طوبى ، وتحدث القرآن عن نعيم أهلها ، وطعامهم وشراهم ، وخمرهم ولباسهم وحليهم وفرشهم وخدمهم ، وأحاديث نساءهم وعن أفضل ما يعطى أهل الجنة وغير ذلك من المظاهر ، حتى لكأن الإنسان ينظر إلى الجنة كأنها معروضة أمامه ، لذلك إن للإيمان بالآخرة وما فيها من نعيم مقيم له آثار عظيمة في حياة الإنسان .

ومن أهم ما يترتب بهذا الإيمان هو توجيه الإنسان وانضباطه والتزامه بالعمل الصالح وتقوى الله تعالى ، ذلك أن تصرفات البشر إذا قامت على خشية الله تعالى والتطلع إليه والطمع في رضوانه ، فإن ذلك له أشد الأثر في توجيه الإنسان إلى فعل الخير واجتناب الشر ، بل هو ميزان الذي يقف عليه الإنسان ليزن أعماله (١) ، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ . (٢)

إذا الإيمان باليوم الآخر هو الذي يهيئ الإهتمامات ، ويجعل التعلق بالدنيا أمراً لا مجال له عندما يعلم الإنسان أن هذه الدنيا زائلة ، وأن الآخرة مقبلة ، وأن هذه الأيام والأنفاس ستنتقضي لا محالة ، وأنه سيقدم على الله ، فنتيجة للإيمان بهذا اليوم ، وبأن هناك وجنةً وجزاءً حسناً ، تنشأ سلوكيات لم تكن تنشأ لولا الإيمان بالجنة وما فيها من نعيم مقيم .

(١) . مجتمعنا المعاصر . ص : ٤٣ . المرجع السابق .

(٢) . سورة الزلزلة . آية ٧ ، ٨ .

٢. الشوق إلى نعيم الجنة :

إن من آمن بالبعث قد علم أن الله قد أعد للمؤمنين دارا يتحقق فيها رضاه عنهم في صورة نعيم ما بعده نعيم ، وإن أهل هذا الإيمان في حالة من الشوق إلى ذلك النعيم لا يصرفهم عن ذلك شئ ، كما وصف الله تعالى إبراهيم عليه السلام وبنه بقوله : ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ (١) ، ذكر ابن كثير عدة أقوال في تفسير هذه الآية منها : أي جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم غيرها ، وقيل : نزع الله تعالى من قلوبهم حب الدنيا وذكرها وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها ، وقيل : كانوا يذكرون الناس الدار الآخرة والعمل لها (٢) . ثم إن مغريات الحياة الدنيا كثيرة جداً ، ولا علاج لها إلا ما يربي القرآن في نفوسنا من إثارة الآخرة على الدنيا .

ففساء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهن من أفضل النساء في عصرهن ، اجتمعن ليطالبن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بأن يمتعهن بزينة الحياة الدنيا ، كما تتمتع نساء الملوك ، فتزل فيهن قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأزْوَاجِكُ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ [٣] وإن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٣) ، فاخترن الله وسوله والدار الآخرة ، وبقين في كنف رسول الله صلى الله عليه وسلم يصرن على شظف العيش .

٣. البذل والتضحية :

النفس عندما تعلم ضخامة العوض ، وأن طاعة الله عاقبتها جنة عرضها السماوات والأرض ، نعيمها لا يفنى ، وعيشها دائم ، أكلها وظلها دائم ، وما فيها من أنواع النعيم ، فإن هذا الجزاء العظيم ينسي المسلم تعب العمل وكده الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه يتطلع إلى الأمام ، يتطلع إلى الآخرة ، فنعيم الجنة ينسيه ما في طاعة الله من المشقة والتعب ، لأنه يدرك بأنه لا جنة بلا عمل أو تعب أو مشقة ، فيتحمّل المشقة والجهد في طاعة الله . ما الذي يجعل المصلي يقوم لصلاة الفجر من الفراش والنوم الهانئ بالتعب والمشقة إذا لم يكن هناك عوض ولم يكن هناك جزاء ، وقس على ذلك جميع الأعمال التي يقوم بها العبد لرب العالمين ، من صيام وحج و زكاة وجهاد وغير ذلك .

فالיום الآخر إذاً هو المتنافس ، هو الأمل ، هو النعيم الحقيقي الذي ينسي المسلم التعب الذي يتعبه في الدنيا ، وهو النعيم الذي يعوض المؤمن عما يفوته الآن من نعيم الدنيا ؛ لأنه يعمل لله رب العالمين .

(١) . سورة ص . آية ٤٦ .

(٢) . تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ص : ١٦١١ .

(٣) . سورة الأحزاب . آية ٢٨ ، ٢٩ .

لذلك من هنا إذا علمت النفس عظم العوض استعدت للبدل ، وما الذي يجعل المقاتل المجاهد في سبيل الله يدفع روحه ونفسه وماله لله رب العالمين ؟ إذا لم يكن هناك عوض أكبر من التضحية بالنفس والمال ، هل كان سيضحى بنفسه وماله ؟ والكفار على النقيض من المؤمنين لا يفكرون في اليوم الآخر مطلقاً ، ولا يحسبون له أي حساب كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ . (١)

" والإعتقاد في عدل الجزاء في الدار الآخرة ، وفي ضخامة العوض عما يفوت ونفاسته ؛ استعدت النفس للبدل في سبيل الحق والخير والصلاح الذي تعلم أنه من أمر الله ، وأنه مناط العوض والجزاء ، وصلاح خلق الفرد واستقام سلوكه - متى استيقن من الآخرة كما هي في التصور الاسلامي - وصلحت الأوضاع والأنظمة ، التي لا يتركها الأفراد تسوء وتنحرف ، وهم يعلمون أن سكوهم على فسادها لا يجرمهم صلاح الحياة الدنيا وحدها وخيراتها ؛ ولكنه يجرمهم كذلك العوض في الآخرة ! فيخسرون الدنيا والآخرة . (٢)

آثار اجتماعية :

١ . التحاكم بشرع الله تعالى :

إن مجتمعاً يسود بين أهله الإيمان بالله تعالى واليقين بالآخرة والجزاء الحسن في الجنة ، لا شك أنه مجتمع تسوده المحبة ويعمه السلام ؛ لأن تعظيم الله تعالى سيجعل هذه النفوس لا ترضى بغير شرع الله تعالى بديلاً ، ولا تقبل الاستسلام إلا لحكمه ، وهذا بدوره سيضفي الأمن والأمان على مثل هذه المجتمعات ، لأن أهلها يخافون الله ويخافون يوم الفصل والجزاء ، ويخامون من حرمان الجنة ، وما أعد الله تعالى لهم فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، إذاً فلا تحاكم إلا لشرع الله ، اقتضاء بقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٣) ، ولا تعامل إلا بأخلاق الإسلام الفاضلة ، فلا خيانة ولا غش ولا ظلم ، ولا يعني هذا أنه لا يوجد في المجتمعات المسلمة من يظلم أو يخون أو يغش ، فهذا لم يسلم منه عصر النبوة ولا الخلافة الراشدة ، لكن هذه المعاصي تبقى فردية ، يؤدّب أفرادها بحكم الله تعالى وحدوده ، إذا لم يردعهم وازع الدين والخوف من الله ، والحالات الفردية تلك ليست عامة ، أما عندما يقل الوازع الديني والخوف من الآخرة ، ويكون التحاكم إلى أهواء البشر وحكمهم فهذا هو البلاء العظيم والفساد الكبير ، حيث

(١) . سورة الإنسان . آية ٢٧ .

(٢) . اليوم الآخر في ظلال القرآن ، أحمد فائز ، ص : ٥ ، ط : مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٣ م .

(٣) . سورة المائدة . آية ٤٥ .

تداس القيم والحرمات ، ويأكل القوي الضعيف ، وبالتالي ، لا يأمن الناس على أديانهم ولا أنفسهم ولا أموالهم ولا أعراضهم ، وكفى بذلك سبباً في عدم الأمن والاستقرار ، وانتشار الخوف ، واختلال حياة الناس .

٢. الإندفاع لمرضاة الله تعالى :

إن التصور البديع للجنان والإعتقاد الجازم له أثر كبير في حياة المجتمع الإسلامي ، ولأهمية هذا الركن من أركان الإيمان نجد أن السياق القرآني يقرن كثيراً بين الآيات التي تتحدث عن الإيمان بالله والآيات التي تتحدث عن اليوم الآخر ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ (٢) . لذلك إن التصور البديع للجنان مهم في نهضة الأمة ، فعندما تحي صورة الجنان في نفوس أفراد الأمة يندفعون لمرضاة الله تعالى ويقدمون الغالي والنفيس ويتخلصون من الوهن وكراهة الموت وتتفجر في نفوسهم طاقات هائلة تمدهم بعزيمة وإصرار ومثابرة على إعزاز دين الله .

" ولعل من حكمة الإهتمام البالغ بالتذكير باليوم الآخر ، كثره نسيان العباد له وغفلتهم عنه ، بسبب تناقلهم الى الأرض ، وحبهم لمتاع الدنيا ، فيكون الإيمان به وبما فيه من نعيم مقيم مخففاً من الغلو في حب الدنيا ، فيعلم العباد أن شهوات الدنيا كلها لا تستحق منهم الطلب والجهد التنافس فيها ، وأن الذي يستحق ذلك منهم إنما هو ما أعد الله لهم في ذلك اليوم العظيم " (٣) ، كما قال تعالى ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

لذلك إن النبي ﷺ كان يربي أصحابه على السعي لمرضات الله تعالى حتى يدخلهم جناته العظيمة ، فكان لهم يصف لهم الجنات من خلال المنهج القرآني ، حتى لكأن الصحابي يرى الجنة معروضة أمامه في تلك اللحظة ، وينفعل بما كأنه يراها في عالم العيان بالفعل ، وليست أمراً يتصور حدوثه في المستقبل ، وتصبح الآخرة كأنها الحاضر الذي يعيشه الإنسان ، ويصبح الحاضر الذي يعيشه بالفعل كأنه ماضٍ سحيق تفصله عن الإنسان آماد ، وأبعاد . (٥)

(١) . سورة التوبة . آية ١٨ .

(٢) . سورة الطلاق . آية ٢ .

(٣) . الإيمان . أركانه ، حقيقته ، د . محمد نعيم ياسين ، ص : ٦٠ .

(٤) . سورة التوبة . آية ٤١ .

(٥) . دراسات القرآنية ، محمد قطب ، ص : ٨١ ، ط : الخامسة ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م ، دار الشروق .

٣. عدم الندم واليأس :

أن المسلم العامل لدين الله لا يندم على كل عمل عمله ولو لم ير ثمرة عمله في الدنيا . إن الذين يريدون إقامة منهج الله في الأرض ، ويشغلون بالدعوة إلى الله والتربية على منهج رسول الله ﷺ ، هؤلاء الناس الذين اصطفاهم الله من بين البشر للقيام بهذه المهمة ، قد لا يأتي عليهم اليوم الذي يرون فيه ثمرات أعمالهم ، أو يرون فيه قيام المنهج الصحيح كما أراده رب العالمين على الأرض ، وقد لا يأتي عليهم اليوم الذي يرون فيه سراج الدين وهاجاً ، وقد لا يأتي عليهم اليوم الذي يرون الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، ولكنهم بسبب إيمانهم أن هذه الأعمال لن تضيع ، وأن أجرها عند رب العالمين فهم لذلك يعملون مع طول الليل الحالك ، ولو لم يروا بزوغ الفجر ؛ اقتضاء بقوله تعالى : **﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾** (١) ، لأنهم يعلمون أين الفجر الحقيقي ، ولأنهم يعلمون أن كل هذه الأعمال لن تذهب سدى أبداً ، وأنهم سيجزون بها عند الله الجزاء الأوفى ؛ فيهون على هذا المسلم الصادق طول الطريق والمشقات والعقبات الموجودة في هذا الطريق ؛ لأنه يعلم متى وأين سيلقى هذا الجزاء عند رب العالمين . ولا يقلق على الأجر وإن كان العمل صغيراً ، فهو يعلم أن هناك رجلاً دخل الجنة بسبب جذع أزاحه من الطريق كان يؤذي المسلمين ، يعلم هذا فهو لا يتهاون بأي عمل : " اتقوا النار ولو بشق تمره " (٢) ، وعندما يعلم الإنسان أنه حتى شق التمرة يأخذ عليها أجراً ، فإنه لن يتهاون بالأعمال الصالحة ولو كانت قليلة . " والإعتقاد بالآخرة يؤدي دوره الأساسي في إفاضة السلام على روح المؤمن وعالمه ونفسي القلق والسخط والقنوط ، إن الحساب الختامي ليس في هذه الأرض ، الجزاء الأوفى ليس في هذه العاجلة ، إن الحساب الختامي هناك ، والعدالة المطلقة مضمونة في هذا الحساب . فلا ندم على الخير والجهاد في سبيله إذا لم يتحقق في الأرض أو لم يلق جزاؤه ، ولا قلق على الأجر إذا لم يوف في هذه العاجلة بمقاييس الناس ، فسوف يوفاه بميزان الله . (٣)

(١) . سورة يوسف . آية ٩٠ .

(٢) . أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الزكاة ، باب اتقوا النار ولو بشق تمره والقليل من الصدقة ، رقم الحديث : ١٤١٧ ، ص : ٢٢٩ .

(٣) . اليوم الآخر في ظلال القرآن ، أحمد فائز ، ص : ١٧ .

٢. أثر مظاهر العقاب الأخروي على الفرد والمجتمع :

آثار فردية :

١ . الإخلاص لله ﷻ والمتابعة للرسول ﷺ :

إن الموقن بقاء الله ﷻ يوم الفرع الأكبر ، لا تلقاه إلا حريصاً على أعماله ، خائفاً من كل ما يجبطها من أنواع الشرك الأكبر أو الشرك الأصغر ، حيث إن الشرك الأكبر يجبط جميع الأعمال ، فتصير هباءً منثوراً ، والشرك الأصغر يجبط العمل الذي حصل فيه هذا النوع من الشرك كيسيير الرياء ، والعجب ، والمن ، وطلب الجاه والشرف في الدنيا ، فكلما كان العبد موقناً بقاء ربه كان منه الحرص الشديد على ألا تضيع منه أعماله الصالحة في موقف القيامة ، يوم أن يكون في أشد الأوقات حاجة إليها ؛ ولذلك فهو يجاهد نفسه بحماية أعماله في الدنيا بالإخلاص فيها لله تعالى لعل الله ﷻ أن ينفعه بها ، كما أن اليقين بالرجوع إلى الله ﷻ يجعل العبد في أعماله كلها متبعاً للرسول ﷺ غير مبتدع ولا مبدل ؛ لأن الله ﷻ لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً صواباً ، قال تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ . (١)

٢ . تربية الشعور الحقيقي بالمسؤولية :

وأول ما ينعكس من مظاهر العقاب الأخروي على الفرد هو تربية الشعور الحقيقي بالمسؤولية ، وهذا الإيمان بالعقاب الأخروي هو الدافع الحقيقي الذي يكون وراء الشعور بالمسؤولية ، ولا يمكن أن يتحقق هذا الشعور بالمسؤولية بدون هذا الإيمان ، ولذلك لاحظنا أن ميزة التشريع الإسلامي تكمن في تقبيل الناس له ، ودون أي تهرب أو احتيال على هذا القانون الإلهي ، ما دام الملائكة الحفظة يكتبون ، كما قال تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٣) ، وما دام يوم الحساب والجزاء ينتظرنا بالمرصاد ، فكل من ربي تربية إسلامية يشعر بتمام المسؤولية عن كل أعماله ، خوفاً من الوقوف للحساب بين يدي الخالق في يوم تشخص فيه الأبصار . (٤)

٣ . تقصير الأمل وطرد الغفلة :

(١) . سورة الكهف . آية ١١٠ .

(٢) . سورة ق . آية ١٨ .

(٣) . سورة الانفطار . ١١ ، ١٢ .

(٤) . راجع أصول التربية الإسلامية وأساليبها ، عبدالرحمن النحلوي ، ص : ٩٠ ، ط : الأولى ١٩٧٩ م ، دار الفكر ، بدمشق .

إن من أخطر الأبواب التي يدخل منها الشيطان على العبد ، طول الأمل ، والأمان الخادعة التي تجعل صاحبها في غفلة شديدة عن الآخرة ، واغترار بزينة الحياة الدنيا ، وتضييع ساعات العمر النفيسة في اللهث وراءها حتى يأتي الأجل الذي يقطع هذه الآمال ، وتذهب النفس حسرات على ما فرطت في عمرها ، وأضاعته من أوقاتها . كما قال تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي حَسْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّآخِرِينَ ﴾ (١) ، ولكن اليقين بالرجوع إلى الله ﷻ والتذكر الدائم ليوم الحساب ، يومئذ لا يخفى شيء من نوايا البشر وأعمالهم ، حيث تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم وينشغل كل امرئ بنفسه ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُعْنِيهِ ﴾ (٢) ، هو العلاج الناجع لطول الأمل وضياح الأوقات .

ولما كانت الغفلة قد استولت على الكثيرين في هذا الزمان فهم غارقون في أنواع الملذات والالتهاج والألعاب ، والمنكرات وإضاعة الأوقات كان لا بد من تمذيب النفوس وترقيتها لتشهد ما أعد الله الواحد القهار للكافرين ، إنها تطرد الغفلة ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرُضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (٤) ، لذلك يكثر القرآن الكريم من ذكر يوم القيامة والنار ، حتى لا تكاد تمر على سورة من سور القرآن إلا وتجد فيها حديثا تفصيل ذلك اليوم وما فيها من الأحداث والأحوال ، بأساليب كثيرة متنوعة وذلك لطرد الغفلة وتقصير الأمل .

آثار اجتماعية :

١ . التكافل الإجتماعي :

إن الإيمان بما في الجنة والنار هو المحرك للإنسان في عمل الخيرات ، وفي الانتهاء عن المنكرات . وينشئ من هذه المظاهر العقاب في الآخرة وحدة و تماسكاً بين أفرادها ، فالمجتمع العابد لا يكون افراده سائبين مبعثرين لا شأن لأحدهم بما يجري للآخر من أحوال وظروف ، بل هم يرتبطون برباط معين متين هو رباط الأخوة التي عقدها الله تعالى بينهم ، لذلك نرى بان الله تعالى ربط أمر طعام إطعام المسكين بالإيمان بالآخرة ، قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ *

(١) . سورة الزمر . آية ٥٦ .

(٢) . سورة عبس . آية ٣٤ - ٣٧ .

(٣) . سورة مريم . آية ٣٩ .

(٤) . سورة الأنبياء . آية ١ ، ٢ .

وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١﴾ فالأمر عندنا أسمى من أن يكون في الجهات الأخلاقية ،
وأسمى من أن

يكون أوامر قسرية تنهب الأغنياء لتعطي الفقراء ، إنما الأمر عندنا مرتبط بالآخرة ، ومرتبب بأصل
الإيمان ، قال تعالى : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصَلِينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ
الْمَسْكِينِ ﴾ (٢) ، وانظروا كيف يحض هذا الدين على المسكين ويربطه بالرحمة ؛ فيكون إطعام
المسكين مما يحض عليه من الرحمة ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُ
رَقَبَةً * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ (٣) ، وقس على هذا بقية الأمور بين أفراد المجتمع ، ومن هنا
ينشئ التكافل في المجتمع و يعم الخير .

٢ . اجتناب الظلم بشتى صورته :

نظراً لكثرة الظلم والشحناء بين المسلمين في عصرنا الحاضر ، أنه لا شيء يمنع النفس من ظلم غيرها
في نفس أو مال أو عرض ، كاليقين بالرجوع إلى الله ﷻ ، وإعطاء كل ذي حق حقه ، وإنصاف
المظلوم ممن ظلمه ، فإذا تذكر العبد هذا الموقف العصيب الرهيب ، وأنه لا يضيع عند الله شيء ،
كما قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ
خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (٤) وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ (٥) ، إذا
تذكر العبد هذه المواقف واتعظ بهذه الآيات ، وأيقن بتحققها فلا شك أن ذلك سيمنعه من التهاون
في حقوق الخلق ، والحذر من ظلمهم في دم أو مال أو عرض ، خاصة وأن حقوق العباد مبنية على
المشاحة والحرص على استيفاء الحق من الخصم ، وبالذات في يوم الهول الأعظم الذي يتمنى العبد فيه
أن يكون له مظلمة عند أمه وأبيه وصاحبه وبنيه ، فضلاً عن غيرهم من الأبعاد ، ومعلوم أن
التقاضي هنالك ليس بالدينار والدرهم ولكن بالحسنات والسيئات .

فياليتنا نتذكر دائماً يوم الفصل العظيم ، يوم يفصل الحكم العدل بين الناس ، ويقضي بين الخصماء
بحكمه وهو أحكم الحاكمين ، ليتنا لا نغفل عن هذا المشهد العظيم ، حتى لا يجور بعضنا على
بعض ، ولا يأكل بعضنا لحوم بعض ، ولا نتكلم إلا بعلم وعدل ، إنه لا شيء يمنع من ذلك كله إلا
الخوف من الله ﷻ وخوف الوقوف بين يديه، واليقين الحق بأن ذلك كائن في يوم لا
ريب فيه ؛ قال تعالى :

(١) . سورة الماعون . آية ١-٣ .

(٢) . سورة المدثر . آية ٤٢-٤٤ .

(٣) . سورة البلد . آية ١١-١٤ .

(٤) . سورة الأنبياء . آية ٤٧ .

(٥) . سورة طه . آية ١١١ .

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ . (١)

٣ . علاج مرتكبي المحرمات :

إن من أهم الآثار المترتبة للعقوبات الأخروية على المجتمع هي علاج مرتكبي المحرمات . نحن نرى في عصرنا الحاضر غرق الناس بالشهوات والمحرمات ، انتهكت المحرمات والأعراض ، وعمت المنكرات ، إذا ما هو العلاج الإيماني للذين يقعون في الفواحش والرذائل ، والتطفيف في المكيال والميزان ، والغش والسرقة والغصب ، وأكل أموال الناس بالباطل ، ومنع الزكاة ، وترك الصلوات ، وعدم إنكار المنكر ، وترك معالي الأمور والطاعات وغير ذلك ؟

والجواب بأن المتأمل في القرآن الكريم يرى بأن الله تعالى عالج هذه المحرمات بربطها بعقوبات في النار ، فنرى أن الله تعالى ربط الشرك بالخلود في النار في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ (٢) ، وقال النبي ﷺ " من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار " (٣) .

وقال عن الربا : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٤) ، وكما قال عن الشرك والقتل والزنا بأنهم يعذبون في واد في جهنم في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ (٥) ، كما حذر الذين يتساهلون في الصلوات بقوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ (٦) . وكما أننا نجد أوصاف الأشياء في النار بالتفصيل حتى الطعام والشراب والملبس ، وألواناً وصوراً من العذاب ، وكيف يعذب أهل النار بالشدة ؟ وغير ذلك ، وكل ذلك لعلاج مرتكبي المحرمات والمنكرات .

(١) . سورة الزمر . آية ٣٠ ، ٣١ .

(٢) . سورة المائدة . آية ٧٢ .

(٣) . رواه البخاري ، كتاب الجنائز ، باب من كان آخر كلامه لا إله إلا الله ، رقم الحديث : ١٢٣٨ ، ص : ١٩٨ .

(٤) . سورة البقرة . ٢٧٥ .

(٥) . سورة الفرقان . آية ٦٨ ، ٦٩ .

(٦) . سورة الماعون . آية ٤ ، ٥ .

الخاتمة

الحمد لله الذي وفقني برحمته وامتنانه إلى خاتمة الرسالة ونتائجها, والصلاة والسلام على خير الأنام محمد ﷺ وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .
أما بعد :

فبعد شوط قصير الذي قضيناه في رحاب الرسالة من أبوابها وفصولها وأبحاثها قد توصلت إلى عدة نتائج وهي عبارة عن النقاط التالية :

١. إن المسؤولية في الإسلام جامعة تشمل كل نواحي الحياة .
٢. إن مصدر إلزام المسؤولية على الإنسان هو الله تعالى وحده .
٣. إن المرأة تساوي الرجل في المسؤولية إلا في بعض الأمور التي لا تتناسب أنوثتها وعزتها.
٤. إن الإنسان ينال جزاءه عمله في الدنيا والآخرة .
٥. إن الجزاء هو الدافع الأساسي للإنسان للشعور بالمسؤولية.
٦. إن الحياة جسر يعبره الإنسان إلى الحياة الأبدية فإما إلى الجنة أو النار.
٧. إن من أهم ميزات الجزاء الإلهي العدل والرحمة العامة الشاملة .
٨. الدنيا دار الابتلاء والآخرة دار القرار.
٩. رحمة الله واسعة حيث يثيب المؤمن والكافر في هذه الدنيا لأن الله لا يضيع أجر المحسنين.
١٠. تتميز المسؤولية في الإسلام بالمسؤولية الفردية فلا يسأل الإنسان إلا عما باشر أو تسبب فيه من أعمال .

١١. إن الشعور بالمسؤولية يغير سلوكيات الإنسان ومعاملاته في الحياة.

١٢. إن الإنسان محاسب لنفسه يوم القيامة لقوله تعالى : ﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ

حَسِيْبًا ﴾ (١٤) سورة الإسراء

١٣. فضل الله تعالى بعباده حيث جعل جزاء السيئة سيئة مثلها والحسنة بعشر أمثالها .

١٤. إن الجزاء الأوفى في الدار الآخرة .

١٥ . أن ما فصله القرآن الكريم من أحوال الآخرة ومنازلها وما ذكر من أوصاف الجنة وألوان نعيمها

ومن أوصاف النار وأهوالها يغرس في قلب المؤمن الخوف من عذاب الله تعالى و الطمع والرجاء في

رحمته وثوابه ، مما يدفع الإنسان إلى الإلتزام بشرع الله التمسك بهدي النبي ﷺ .

١٥ . إن الترغيب والترهيب يقوي في الإنسان الشعور بالآخرة وما فيها من نعيم وعذاب مقيم .

١٦ . المسؤولية في الإسلام حددت مهمة الإنسان في هذا الكون ، وبينت الحكمة من خلقه وإنشائه

، وأن له وقتاً وأجلاً محدداً ، ثم يوئل إلى الجزاء الأبدي إما نعيم أو جحيم .

وأخيراً هذا ما تيسر لي من ذكر نتائج البحث فله الفضل والمنة ، وهذا جهد بشري عرضة للنقص

والخطأ فما كان فيه من الصواب فمن الله وما كان فيه من الخطأ فمني ومن الشيطان والله أسأل أن

يرينا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأن يرينا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه وصلى الله على نبينا محمد وعلى

آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .

فهرس المصادر والمراجع

| رقم المسلسل | المصادر والمراجع |
|-------------|--|
| {١} | القرآن الكريم |
| {٢} | آثر تطبيق الحدود في المجتمع الدكتور عبد السميع إمام . بحث مقدم لمؤتمر الفقه الإسلامي ، جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض ١٣٩٦ هـ ، أشرفت على طباعته ونشره : إدارة التقانة والنشر بالجامعة ١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٤ م . |
| {٣} | الأحكام السلطانية التأليف : الإمام الماوردي ط : الأولى ١٤١٦ هـ ، ١٩٩٧ م ، المكتب الإسلامي . |
| {٤} | إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم التأليف : محمد بن محمد العمادي أبو السعود ط : الرابعة ١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت . |
| {٥} | أركان الإيمان التأليف : وهي سليمان الألباني ط : الثانية ١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٤ م ، مؤسسة الرسالة . |
| {٦} | الإسلام التأليف : سعيد حوى ط : ١٣٩٧ هـ ، ١٩٧٧ م ، مكتبة وهبة القاهرة . |
| {٧} | الإسلام عقيدة وشريعة التأليف : محمود شلتوت ط : الثانية عشرة ، ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م ، دار الشروق . بيروت |
| {٨} | أصول التربية الإسلامية وأساليبها التأليف : عبدالرحمن النحلوي ط : الأولى ١٩٧٩ م ، دار الفكر ، بدمشق . |
| {٩} | أصول الدعوة . |

| | |
|--|--|
| | <p>التأليف : د/ عبدالكريم زيدان ط : الثالثة ١٩٨٧ م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .</p> |
| | <p>أضواء البيان التأليف : محمد الأمين الشنقيطي {١٠} طبع على نفقة السوالملكي الأمير أحمد بن عبدالعزيز ٥١٣٠٣ / ١٩٨٣ م .</p> |
| | <p>إعلام الموقعين عن رب العالمين {١١} لابن القيم الجوزية . بتحقيق : الشيخ عبدالرحمن الوكيل . الناشر: مكتبة ابن تيمية ، القاهرة .</p> |
| | <p>الإنسان في القرآن {١٢} التأليف : لعباس محمود العقاد ، ط : دارالهلل .</p> |
| | <p>الإيمان {١٣} التأليف : عبدالله الشرقاوي (بدون ذكر الطبعة وسنة)</p> |
| | <p>الإيمان . حقيقته وأثره في النفس والمجتمع {١٤} التأليف : الدكتور محمد عبدالله الشرقاوي ط : الثانية ١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠ م الناشر دارالجيل ، بيروت .</p> |
| | <p>الإيمان والحياة {١٥} التأليف : الدكتور يوسف القرضاوي ط : الثالثة عشرة ١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٢ م ، مكتبة وهبة ، القاهرة .</p> |
| | <p>البحر المحيط {١٦} لأبي حيان الأندلسي ط : الثانية ١٩٨٣ م ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .</p> |
| | <p>بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع {١٧} لإمام علاء الدين الكاساني الحنفي ط : الثالثة ١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م ، دارالكتب العلمية . بيروت .</p> |
| | <p>بصائر ذوي التمييز {١٨} للفيروزآبادي ط : المكتبة العلمية ، بيروت ، لبنان</p> |

| | |
|--|------|
| تاج العروس التأليف : محمد مرتضى الزبيدي ط : دارالصادق ، بيروت . | {١٩} |
| التربية الأخلاقية الإسلامية التأليف : مقداد يالجن ط الأولى ١٩٧٧ م ، مكتبة الخانجي بالقاهرة . | {٢٠} |
| التشريع الجنائي مقارناً بالقانون الوضعي التأليف : عبدالقادر عودة ط : الرابعة عشرة ، مؤسسة الرسالة . بيروت ١٩٩٧ م . | {٢١} |
| تطبيق الشريعة الإسلامية في المملكة العربية السعودية وآثاره في الحياة التأليف : د . عبدالرحمن بن زيد ط : ١٩٩٩ م . | {٢٢} |
| تفسير الجلالين التأليف : جلال الدين المحلي و جلال الدين السيوطي مكتبة الصفاء ، بالقاهرة . ط : الأولى ١٤٢٢ هـ ، ٢٠٠٢ م . | |
| تفسير القرآن العظيم المسمى بتفسير ابن كثير تأليف : عماد الدين ابن كثير الطبعة الأولى ١٩٩٨ م ، دار السلام للنشر والتوزيع ، في مجلد ، الرياض . | {٢٣} |
| التفسير الكبير أو المفاتيح الغيب لإمام فخرالدين الرازي دارالكتب العلمية . ط : الثانية ١٤٢٥ هـ ، ٢٠٠٤ م . | {٢٤} |
| تهذيب اللغة التأليف : لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري طبعة جديدة بإشراف : محمد عوض ، دار إحياء التراث العربي . | {٢٥} |
| تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ أبي عبدالله عبدالرحمن آل سعدي دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٩ م | {٢٦} |
| جامع البيان عن تأويل آي القرآن | {٢٧} |

| | |
|--|------|
| التأليف : محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر ط : دارالفكر ، ١٤٠٨ ، ١٩٨٨ | |
| جامع الترمذي لإمام محمد بن عيسى الترمذي الطبعة الأولى ٥١٤٢٠ هـ ، دار السلام للنشر والتوزيع بالرياض . | {٢٨} |
| الجامع الصحيح مسلم تأليف : أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري المتوفى الطبعة الأولى ٥١٤٢٠ هـ ، دار السلام للنشر والتوزيع بالرياض . | {٢٩} |
| الجامع لأحكام القرآن المسمى بتفسير القرطبي تأليف : أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ط : دار إحياء التراث العربي . بيروت ١٩٨٥ م . | {٣٠} |
| الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لإبن القيم الجوزية تقديم : الدكتور محمد جميل غازي ، ط : الثانية . مطبعة المدني ، بمصر . | {٣١} |
| الجواهر الحسان في تفسير القرآن أبو زيد عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي ط : الأولى ٥١٤١٨ هـ ، ١٩٩٧ م ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت . | {٣٢} |
| حادي الأفراح إلى بلاد الأفراح لإبن القيم الجوزية ، بتحقيق : الدكتور السيد الجميلي الطبعة الرابعة ٥١٤٠٩ هـ ، ١٩٨٨ م ، دار الكتاب العربي . | {٣٣} |
| حجة الله البالغة لإمام شاه ولي الله الدهلوي بتحقيق : السيد سابق المكتبة الأثرية ، شيخوبوره ، باكستان . | {٣٤} |
| حقيقة الإنسان بين المسؤولية والتكريم الدكتور أبو اليزيد العجمي الناشر : المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ، القاهرة . | {٣٥} |
| خصائص التصور الإسلامي التأليف : سيد قطب | {٣٦} |

| | |
|------|--|
| | طبعة المنظمات الطلابية ، ١٩٧٨ . |
| {٣٧} | الخصائص العامة للإسلام الدكتور يوسف القرضاوي ط : ٧ ، ١٩٨٩ م ، مؤسسة الرسالة، بيروت . |
| {٣٨} | دراسات إسلامية في العلاقات الإجتماعية والدولية التأليف : الدكتور عبدالله دراز ط : الثانية ١٩٧٣ م ، دارالقلم كويت . |
| {٣٩} | الدراسات القرآنية التأليف : الأستاذ محمد قطب ط : الخامسة ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م ، دار الشروق . |
| {٤٠} | دستور الأخلاق التأليف : الدكتور عبدالله دراز ، بتحقيق و تعليق الدكتور عبدالصبور الشاهين ط : الرابعة ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م ، مؤسسة الرسالة بيروت . |
| {٤١} | روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني تأليف: علامة أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الالوسي البغدادي ط : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤١٧ هـ ، ١٩٩٧ م . |
| {٤٢} | سنن ابن ماجه المؤلف: محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني ط : الأولى ، ١٩٩٩ م ، دار السلام للنشر والتوزيع ، بالرياض . |
| {٤٣} | سنن أبي داؤد المؤلف: سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي بتحقيق محمد ميهي الدين عبد الحميد ، الناشر : دار الفكر . |
| {٤٤} | السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية المؤلف : أحمد بن عبد الخليم بن تيمية الحراني ط : الرابعة ، دارالكتاب العربي ، بمصر . |
| {٤٥} | شرح العقيدة الأصفهانية التأليف : أحمد بن عبد الخليم بن تيمية الحراني بتحقيق : إبراهيم سعدياي ط : الأولى ، ١٤١٥ هـ ، مكتبة الرشد ، الرياض . |

| | |
|--|--|
| <p>الصحيح</p> <p>{٤٦} التأليف : اسماعيل بن حماد الجوهري بتحقيق : أحمد عبدالغفور ، ط : الرابعة ١٤٠٧ هـ دارالعلم للملايين ، بيروت .</p> | |
| <p>صحيح البخارى</p> <p>{٤٧} محمد بن اسماعيل البخاري الطبعة الثانية ١٤١٩ هـ ، دار السلام للنشر والتوزيع بالرياض .</p> | |
| <p>العبادة في الإسلام</p> <p>{٤٨} الدكتور يوسف القرضاوي الناشر : مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الرابعة والعشرون ١٩٩٥ م .</p> | |
| <p>العبودية في الإسلام</p> <p>{٤٩} المؤلف : أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ط : الثانية ١٣٩٥ هـ ، المطبعة السلفية و مكتباتها . بالقاهرة .</p> | |
| <p>العقيدة الصحيحة وما يضادها</p> <p>{٥٠} لشيخ عبدالله بن باز ط : دار ابن رجب للنشر والتوزيع ، الرياض .</p> | |
| <p>فتح الباري بشرح صحيح البخارى</p> <p>{٥١} تأليف: إمام الحافظ أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني الناشر : دار المعرفة . بيروت ١٣٧٩ .</p> | |
| <p>فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير</p> <p>{٥٢} المؤلف: محمد بن علي الشوكاني مكتبة الرشد ، الرياض . الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ ، ٢٠٠١ م .</p> | |
| <p>الفصل والملل والأهواء والنحل</p> <p>{٥٣} تأليف: أبو محمد علي بن أحمد ابن حزم الطاهري دار الفكر ، ١٤٠٠ هـ ، ١٩٨٠ م .</p> | |
| <p>فقه المسؤولية</p> <p>{٥٤} لعلي عبدالحليم محمود ط : الأولى ، ١٤١٥ هـ ، ١٩٩٥ م ، دارالتوزيع والنشر .</p> | |

| | |
|---|-------------|
| <p>فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم تأليف : على خليل ابو العيين ط : الثانية ١٩٨٥ م ، دار الفكر العربي .</p> | <p>{٥٥}</p> |
| <p>القاموس المحيط للفيروزآبادي بإعداد وتقديم : محمد عبدالرحمن المرشيلي ط : الثانية ، ١٤٢٤ هـ ، دار إحياء التراث العربي . بيروت .</p> | <p>{٥٦}</p> |
| <p>قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام ط : الثانية ١٤٠٠ هـ ، ١٩٨٠ م ، دارالجيل .</p> | <p>{٥٧}</p> |
| <p>الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لإمام جار الله محمود بن عمر الزمخشري ط : دارالكتاب العربي . بيروت</p> | <p>{٥٨}</p> |
| <p>لسان العرب التأليف : ابن منظور بتحقيق : عامر أحمد . ط : الأولى ٢٠٠٣ م ، ١٤٢٤ هـ ، دارالكتب العلمية ، بيروت .</p> | <p>{٥٩}</p> |
| <p>لسان العرب تأليف : الإمام أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفرريقي الناشر: دار صادر ، بيروت .</p> | <p>{٦٠}</p> |
| <p>المجتمع الإسلامي التأليف : الدكتور محمد أمين المصري ط: الأولى ١٩٨٠ م ، دار الأرقم ، الكويت .</p> | <p>{٦١}</p> |
| <p>المجتمع المتكافل في الاسلام الدكتور عبدالله الخياط ط : ١٩٧٢ م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .</p> | <p>{٦٢}</p> |
| <p>مجتمعنا المعاصر . أسباب ضعفه ووسائل علاجه الدكتور عبدالله سليمان المشوخي ط : الأولى ١٩٨٧ م ، مكتبة المنار ، الأردن .</p> | <p>{٦٣}</p> |

| | |
|---|--|
| <p>مجموع فتاوى ابن تيمية {٦٤} تأليف : شيخ الإسلام أحمد بن تيمية جمع وترتيب : عبدالرحمن بن محمد بن قاسم النجدي الحنبلي ، مكتبة المعارف الرباط .</p> | |
| <p>مدارك التنزيل وحقائق التأويل {٦٥} لإمام أبي البركات النسفي ، ط : دارالفكر للطباعة والنشر .</p> | |
| <p>المدخل الفقهي العام {٦٦} للأستاذ مصطفى أحمد الزرقاء ط سنة ١٩٦٨ م ، مطابع ألف باء بدمشق .</p> | |
| <p>المدخل لمعرفة الإسلام {٦٧} التأليف : الدكتور يوسف القرضاوي ط : الثالثة ١٤٢٢ هـ ، ٢٠٠١ م ، مكتبة وهبة ، القاهرة .</p> | |
| <p>المسؤولية الخلقية والجزاء عليها {٦٨} الدكتور أحمد بن عبدالعزيز الحلبي ط : الأولى ١٤١٧ هـ \ ١٩٩٤ م ، مكتبة الرشد بالرياض .</p> | |
| <p>المسؤولية في الإسلام {٦٩} التأليف : محمد زكي الدين حجازي ط : الثالثة ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م ، الدار السعودية للنشر والتوزيع .</p> | |
| <p>المستقصى في علم الأصول {٧٠} المؤلف : محمد بن محمد الغزالي أبو حامد تحقيق : محمد عبد السلام ، ط: ١ ، ١٤١٣ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .</p> | |
| <p>مسند الإمام أحمد {٧١} لإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ط : بيت الأفكار الدولية . (بدون ذكر سنة)</p> | |
| <p>معالم التنزيل {٧٢} الحسين بن مسعود الفراء البغوي الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ ، ١٩٩٥ م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .</p> | |

| | |
|---|------|
| المعجم الفلسفي | {٧٣} |
| إعداد مجمع اللغة العربية بالقاهرة ط سنة ١٩٧٩م ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية . | |
| المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم | {٧٤} |
| للأستاذ محمد فؤاد عبدالباقي . | |
| المعجم الوسيط | {٧٥} |
| قام بإخراجه ابراهيم مصطفى وغيره . مجمع اللغة العربية . | |
| معجم لغة الفقهاء | {٧٦} |
| التأليف : د . محمد رواس ، د . حامد صادق منشورات إدارة القرآن والعلوم الإسلامية ، بكراتشي . | |
| معجم مقاييس اللغة | {٧٧} |
| التأليف : لابن فارس أبي الحسين أحمد بن زكريا بتحقيق وضبط : عبدالسلام محمد هارون . ط : دارالجيل ، بيروت . | |
| المغني | {٧٨} |
| لإبن قدامة ط : الثالثة ، ١٤١٧هـ ، ١٩٩٧م ، دارعالم الكتب للطباعة والنشر . | |
| المفردات في غرائب القرآن | {٧٩} |
| التأليف : الراغب الأصبهاني ، الناشر : أصح المطابع بكراتشي . | |
| المفصل في أحكام المرأة وبيت المسلم في الشريعة الإسلامية | {٨٠} |
| التأليف : الدكتور عبدالكريم زيدان الطبعة الثالثة ، ١٤٢٠هـ ، ٢٠٠٠م ، مؤسسة الرسالة . | |
| المنجد في اللغة والأعلام | {٨١} |
| دار المشرق ، بيروت . ط : الأربعون ٢٠٠٣م . | |
| موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول ﷺ | {٨٢} |
| باشراف د.صالح بن عبدالله الحميد | |

| | |
|------|--|
| | الطبعة الاولى ١٤١٨ هـ ، دار الوسيلة للنشر والتوزيع . |
| {٨٣} | موقف البشر تحت سلطان القدر للشيخ مصطفى صبري ط : ١ سنة ١٣٥٢ هـ ، المطبعة السلفية بالقاهرة . |
| {٨٤} | النهاية في غريب الحديث والأثر التأليف : ابن الأثير ، بتحقيق : الشيخ خليل مأمون ط : الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ ، ٢٠٠١ م ، دارالمعرفة ، بيروت . |
| {٨٥} | الوجيز في أصول التشريع محمد حسن هيتو ط ١ ، ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت . |
| {٨٦} | اليوم الآخر في ظلال القرآن التأليف : أحمد فائز ط : مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٣ م . |

فهرس الموضوعات

| اسم الموضوع | |
|---|----------|
| الإهداء | |
| الشكر والتقدير | |
| المقدمة | |
| أهمية الموضوع | |
| أسباب الإختيار الموضوع | |
| منهج البحث | |
| خطة البحث | |
| الباب الأول: المسؤولية | |
| التمهيد | |
| المسؤولية لغة | |
| معنى السؤال في القرآن الكريم | |
| المسؤولية اصطلاحاً | |
| خصائص المسؤولية في القرآن الكريم | |
| ١. الثبوت | |
| ٢. العموم | |
| ٣. الشمول | |
| أ. الشمول الزمني | |
| ب. الشمول المكاني | |
| ج. الشمول الموضوعي | |
| الفصل الأول: شروط المسؤولية ومناطها في القرآن الكريم | |
| المبحث الأول: شروط المسؤولية | |
| ١. العقل والبلوغ | |
| ٢. حرية الإرادة | |
| ٣. العمل الإرادي | |
| ٤. بلوغ الدعوة | |
| المبحث الثاني: مناط المسؤولية | ف |
| ١. مهمة الإنسان في الكون | ف |
| أ. الخلافة | ف |
| ب. العبادة | ف |

| | اسم الموضوع |
|---|--|
| ف | ج . الأمانة |
| ف | ٢ . الإنسان مخلوق مكرم |
| ف | أ . تسخير الكون للإنسان |
| ف | ب . تكريم الإنسان بالجوارح والحواس |
| ف | ج . تميز الإنسان بالوحي |
| ف | الفصل الثاني: أنواع المسؤولية وأهدافها |
| ف | المبحث الأول: أنواع المسؤولية |
| ف | ١ . المسؤولية تجاه الخالق |
| ف | أ . جانب الاعتقاد |
| ف | • تعريف العقيدة |
| ف | • أهمية العقيدة |
| ف | • أركان العقيدة |
| ف | ١ . الإيمان بالله |
| ع | ٢ . الإيمان بالملائكة |
| ف | ٣ . الإيمان بالرسول |
| ف | ٤ . الإيمان بالآخرة |
| ف | ٥ . الإيمان بالقدر |
| ف | ب . جانب السلوك |
| ف | ١ . الصلاة |
| ف | ٢ . الزكاة |
| ع | ٣ . الصوم |
| ف | ٤ . الحج |
| ف | ٢ . المسؤولية تجاه الأسرة |
| ف | ١ . المسؤولية تجاه الوالدين |
| ف | ٢ . المسؤولية تجاه الزوجة |
| ف | ٣ . مسؤولية الزوجة تجاه الزوج |
| ف | ٤ . المسؤولية تجاه الأولاد |
| ف | ٢ . المسؤولية تجاه المجتمع |
| ف | ١ . المسؤولية تجاه الجار |
| ف | ٢ . المسؤولية تجاه الأقارب |

| اسم الموضوع | |
|-------------|---|
| ف | ٣ . المسؤولية تجاه المجتمع بأسره |
| ف | المبحث الثاني: أهداف المسؤولية ف |
| ف | ١ . الأهداف العامة |
| ف | ١ . تحقيق العبودية ف |
| ف | ٢ . مرضاة الله تعالى |
| ف | ٣ . السعادة |
| ف | ٤ . هيمنة المعروف |
| ف | ٥ . النجاة من العقاب الإلهي |
| ف | ٢ . الأهداف الخاصة |
| ف | ١ . بناء الإنسان الصالح |
| ف | ٢ . بناء الأسرة الصالحة |
| ف | ٣ . بناء المجتمع الصالح |
| | فالباب الثاني : الجزاء |
| | فاتمهيد |
| ف | علاقة الجزاء بالمسؤولية |
| ع | الجزاء لغة |
| ف | معاني الجزاء في القرآن الكريم |
| ف | الجزاء اصطلاحاً |
| ف | خصائص الجزاء في القرآن الكريم |
| ف | ١ . العدل والرحمة |
| ع | ٢ . الجزاء شامل لكل الأعمال |
| ف | ٣ . العمل سبب لحصول الجزاء |
| ف | ٤ . الجزاء دينوي وأخروي |
| ف | الفصل الأول : الجزاء الإلهي في الدنيا |
| ف | المبحث الأول : الجزاء الإلهي في الدنيا للصالحين |
| | فاتمهيد |
| ف | • مظاهر الثواب |
| ف | ١ . الطمأنينة والراحة |
| ف | ٢ . الهداية والتوفيق |

| | اسم الموضوع | |
|---|--|--|
| ف | ٣ . نضرة الوجوه | |
| ف | ٤ . تهيئة الحياة | |
| ع | ٥ . المعية الإلهية | |
| ف | ٦ . التمكين في الأرض | |
| ف | ٧ . محبة الناس وثناؤهم | |
| ف | ٨ . تيسير الخيرات والأرزاق | |
| ف | المبحث الثاني: الجزاء الإلهي في الدنيا للطلحين | |
| ف | • مظاهر العقاب | |
| ف | ١ . غضب الله تعالى | |
| ف | ٢ . إهلاك المفسدين | |
| ف | ٣ . زوال النعمة | |
| ف | ٤ . القلق والضيق | |
| ف | ٥ . تحريم الطيبات | |
| ف | ٦ . عدم الإهتمام إلى الحق | |
| ف | ٧ . احباط الأعمال | |
| ف | ٨ . العقوبات الحسية | |
| ف | ١ . عقوبة الإعتداء على الدين بالإرتداد | |
| ف | ٢ . عقوبة الإعتداء على النفس البشرية | |
| ف | ٣ . عقوبة الإعتداء على العقل | |
| ف | ٤ . عقوبة الإعتداء على العرض | |
| ف | ٥ . عقوبة الإعتداء على المال | |
| ف | ٦ . التعزيرات | |
| ف | الفصل الثاني: الجزاء الإلهي في الآخرة | |
| ف | المبحث الأول: الجزاء الإلهي في الآخرة للصالحين | |
| | فالتمهيد | |
| ف | ١ . الجزاء في الدنيا ليس شاملا | |
| ف | ٢ . الجزاء الأخروي | |
| ف | ٣ . وجود الجنة والنار | |
| ف | • مظاهر الجزاء الإلهي في الآخرة للصالحين | |
| ف | ١ . الجنة متبواً المؤمنين | |

| اسم الموضوع | |
|-------------|---|
| ع | ٢ . تحيتهم بالسلام |
| ف | ٣ . عدم الخوف |
| ف | ٤ . طعام وشراب أهل الجنة |
| ف | ٥ . درجات أهل الجنة |
| ف | ٦ . مساكن أهل الجنة |
| ف | ٧ . أهل الجنة يرون نصيب أهل النار في الجنة |
| ف | ٨ . أفضل ما يعطاه أهل الجنة |
| ف | ٩ . صحبة أسرهم وأهل مودتهم |
| ف | ١٠ . خلود النعمة |
| ف | المبحث الثاني: الجزء الإلهي في الآخرة للطالحين |
| ف | ١ . النار مثوى ومأوى الكافرين |
| ف | ٢ . النعم وألوان الخير التي يحرم منها أهل النار |
| ف | ٣ . ما يصيب أهل النار من عقوبات الذل والهوان |
| ف | ٤ . تحيتهم بالتهكم والإسهزاء |
| ف | ٥ . طعام أهل النار وشرابهم |
| ف | ٦ . ضرب الوجوه وسوادها |
| ف | ٧ . العذاب يحيط بجميع أجزاء الجسد |
| ف | ٨ . سعة جهنم وحزنتها |
| ف | ٩ . حسرة أهل النار وندامتهم |
| ف | ١٠ . الخلود في النار |
| ع | الفصل الثالث: الجزء وأثره على الفرد والمجتمع |
| ف | المبحث الأول: أثر الجزء الديني على الفرد والمجتمع |
| | فالتمهيد |
| ف | ١ . أثر مظاهر الثواب على الفرد والمجتمع |
| ف | • آثار فردية |
| ف | ١ . مراقبة الله تعالى |
| ع | ٢ . معرفة النفس |
| ف | ٣ . العمل الدائم |

| اسم الموضوع | |
|-------------|--|
| ف | • آثار اجتماعية |
| ف | ١ . الأمن والرضا |
| ف | ٢ . التفاوض والتقدم |
| ف | ٣ . الأمن المعيشي |
| ف | ٢ . أثر مظاهر العقاب على الفرد والمجتمع |
| ف | • آثار فردية |
| ف | ١ . قبول هدي الله تعالى |
| ع | ٢ . العلم بعظمة الله وقوته |
| ف | ٣ . التوبة من المعاصي |
| ف | • آثار اجتماعية |
| ف | ١ . إحياء المعاني والصفات الحميدة |
| ف | ٢ . الاعتبار بما حل بالأمم السابقة |
| ف | ٣ . تركية النفوس |
| ف | ٢ أثر العقوبات الحسية على الفرد والمجتمع |
| ف | • آثار فردية |
| ف | ١ . ردع المجرم وإصلاحه |
| ع | ٢ . التطهر من الذنب |
| ف | ٣ . حفظ كرامة الإنسان وسعادته |
| ف | • آثار اجتماعية |
| ف | ١ . الأمن والإستقرار |
| ف | ٢ . إبعاد المجتمع من الرذيلة والفساد |
| ف | ٣ . معالجة الأمراض |
| | المبحث الثاني: أثر الجزاء الأخروي على الفرد والمجتمع |
| ف | ١ . أثر مظاهر الثواب على الفرد والمجتمع |
| ف | • آثار فردية |
| ف | ١ . توحيد السلوك وانضباط الغرائز |
| ع | ٢ . الشوق إلى نعيم الجنة |
| ف | ٣ . البذل والتضحية |

| | اسم الموضوع |
|---|--|
| ذ | • آثار اجتماعية |
| ذ | ١. التحاكم بشرع الله تعالى |
| ذ | ٢. الإندفاع لمرضاة الله تعالى |
| ذ | ٣. عدم الندم واليأس |
| ذ | ٢. أثر مظاهر العقاب الأخروي على الفرد والمجتمع |
| ذ | • آثار فردية |
| ذ | ١. الإخلاص لله تعالى والمتابعة للرسول |
| ع | ٢. تربية الشعور الحقيقي بالمسؤولية |
| ذ | ٣. تقصير الأمل وطرده الغفلة |
| ذ | • آثار اجتماعية |
| ذ | ١. التكافل الاجتماعي |
| ذ | ٢. اجتناب الظلم بشتى صورته |
| ذ | ٣. علاج مرتكبي المحرمات |
| ذ | • الخاتمة |
| | • الفهارس |
| | ١. فهرس الآيات القرآنية |
| | ٢. فهرس الأحاديث والآثار |
| | ٣. فهرس الأعلام المترجم لهم |
| | ٤. فهرس المصادر والمراجع |
| | ٥. فهرس الموضوعات |